
ثم انتصرت على السرطان
دار المعارف

زينب موسى

فى البدء بكيت..
ثم انتصرت على السرطان



دار المعارف

تصميم الغلاف : منال بدران

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

إهـــداء

إلى كل امرأة فى بلادى عانت من هذا المرض الخطير ، وانزوت بعيدًا عن الناس يملؤها الخوف والترقب وتخشى حتى مجرد الحديث عمّا أصابها .

إليها هذه التجربة الواقعية لامرأة واتتها الشجاعة لأن تتحدث على الملأ وبكل صراحة عن تجربتها مع هذا المرض ، وكيف اجتازت الخطر وعاشت حياتها بشكل أفضل .

إليها .. كى تعرف أنها ليست وحدها !! وكى تتعلم كيف تنتصر !!

زينب موسى



مقدمة

فى ٣٠ سبتمبر من عام ١٩٧٤ كانت إحدى المراسلات الصحفيات لمحطة التلفزيون الأمريكى إن . بى . سى ترسل تقريرًا من معهد « جوتمان » لتشخيص أورام الصدر بنيويورك . وكانت تتحدث عن رد الفعل فى أنحاء البلاد إزاء جراحة استئصال الثدى التى أجريت لزوجة رئيس الولايات المتحدة الأمريكية . وكانت المراسلة تتحدث عن حالة الفزع التى انتابت النساء فى أرجاء البلاد مما جعلهن يندفعن إلى أقرب أخصائى لعمل رسم للثدى بالأشعة . وكان تقرير هذه المراسلة يوضح أن هذا الخوف كان خوفًا إيجابيًا دفع بكثير من النساء إلى المبادرة بإجراء الفحص اللازم .

وأمام الكاميرا كانت المراسلة ذاتها تقول : « إن ذلك الرعب الذى تشعر به هؤلاء النساء تجاه مرض السرطان ، هو نوع من الخوف المعقول الذى له ما يبرره ، ولكن الشيء غير المعقول فعلاً هو أن تكبت كثير من النساء ذلك الخوف بداخلهن معتقدات أنهن إذا ما تجنبن فحص أنفسهن فكأنما يتجنبن المرض نفسه » .

ولكن منذ أن عُرفت حالات لنساء شهيرات أمثال « بتى فورد » زوجة رئيس الولايات المتحدة ، استطاعت كثير من النساء الأخريات أن يحولن خوفهن من المرض إلى عمل إيجابى من الممكن أن ينقذ أرواحهن .

إذن فقد أدت الصحفية واجبها . وكانت تعلم أن الاكتشاف المبكر للمرض على درجة كبيرة من الأهمية . وأن معظم الأورام تكون فى بادئ الأمر أورامًا حميدة فى أغلب الحالات إذا ما تم اكتشافها مبكرًا . وكانت تعلم كل شيء عن المرض وعن أنواع الجراحات المختلفة الجذرية والبسيطة وغيرهما .. وكانت أيضا على علم بالمناقشات الدائرة حول هذه العمليات والآراء التى تدور حولها .. كانت تعرف الكثير والكثير ولكن ... وهى تتحدث أمام الكاميرا لتقول للناس كل ما تعرفه عن سرطان الثدى ... كان

هناك شيء واحد لم تكن تعرفه ... ذلك هو أنها هى نفسها مصابة بهذا المرض الخطير .

وفى هذا الكتاب تتحدث « بتى رولين » المراسلة الصحفية الأمريكية عن تجربتها الشخصية مع هذا المرض بكل أمانة وصراحة . ولقد كان هدفها من ذلك – كما تقول – هو مساعدة النساء الأمريكيات اللاتى مررن بهذه التجربة الأليمة ولتشد من أزرهن ولتقول لهن : كيف اجتازت الخطر واستعادت نظرتها المتفائلة للحياة .

وأتساءل إذا كانت النساء فى أمريكا بكل الإمكانات المتاحة لهن من خدمات صحية عالية المستوى ورعاية اجتماعية ونفسية وتوعية إعلامية ، وكل هذا الكم من الدعم والمساندة من جانب الحكومة والهيئات والجمعيات المتخصصة .. وترى الكاتبة أنهن فى حاجة إلى المساعدة وتقرر أن تكتب لهن هذا الكتاب .. إذن فما بال النساء الطيبات فى بلدى ضحايا هذا المرض والجهل به .. إنهن أحوج ما يكنّ لمن يتحدث إليهن ليتعلمن وليعلمن أن لهن شركاء فى هذه المحنة ولكى يخرجن من عزلتهن ويعشن الحياة بشكل أفضل .

وحين وقع هذا الكتاب بين يدى قررت على الفور أن أقوم بترجمته ونقله إلى العربية ربما يجدن فيه بعض السلوى .. وأيضا بعض الشفاء !!

زينب موسى

الفصل الأول :

كان هناك ورم كامن فى الثدى منذ سنة تقريبا . وكان شيئًا صغيرًا صلبًا فى حجم حبة العنب الصغيرة ، لا يمكن إدراك وجوده سوى باللمس . كان راقدًا فى طرف الجانب الأيسر من الثدى الأيسر ، يسار حلمة الثدى تقريبًا ، وكنت أعلم أنه موجود ، وكان زوجى الأول يعلم أنه موجود ، وكان طبيبى الخاص يعلم بوجوده أيضًا كما أن أخصائى رسم الثدى كان يعلم ذلك هو أيضًا . كان كل هؤلاء يعلمون أن هناك ورمًا صلبًا كامنًا فى الثدى الأيسر وفى حجم حبة العنب الصغيرة . ورغم ذلك فإن واحدًا فقط من بين هؤلاء الأربعة كان الوحيد الذى يزعجه وجود ذلك الشىء ، ألا وهو الزوج « آرثر هيرتزوج » وهو نفسه الذى كان أول من اكتشف وجوده فى إحدى أمسيات ربيع عام ١٩٧٤ أثناء لحظات من الوئام الزوجى ، عندما اصطدمت يده بذلك الشىء فصاح قائلاً :

– ما هذا ؟

– لا أعرف .

– أليس ورمًا ؟

– لا أدرى .. تمتمت بلا مبالاة وأنا أغالب النعاس ، ولكنه استمر يقول :

– لماذا لا تذهبين إلى الطبيب لفحصه .

– حسنًا ، سأفعل . ثم استغرقت فى النوم .

وحينما حانت الفرصة للذهاب إلى الطبيب لفحص ذلك الشىء الذى أزعج زوجى أكثر مما أزعجنى أنا شخصيًا ، قال لى الطبيب الذى سأطلق عليه هنا اسم « دكتور سميث » .

– إنه مجرد كيس دهنى . واستطرد قائلاً : إن كثيرًا من النساء لديهن مثل هذا الشيء فلا تقلقى .. على أية حال سأرسلك إلى أخد المختصين لعمل رسم للثدى بالأشعة .

وذهبت فيما بعد إلى المختص الذى أوصى به الدكتور سميث وسأسميه هنا الدكتور « إلبى » الذى قال لى وهو يضع الصور التى أخذها للثدى أمام الضوء ليفحصها إن هذا لا يقلقنى بالمرة ، عودى بعد عام لنلقى عليه نظرة أخرى .

وبالطبع لم أقلق أنا أيضًا ، ربما يكون قد انتابنى شيء من القلق ولكننى كنت سعيدة لأننى قد انتهيت من هذه المهمة الثقيلة .

إن « الماموجرام » (رسم الثدى بالأشعة) هو نوع من الأشعة أقل درجة من أشعة إكس ، وهو يظهر البناء الداخلى للصدر ويمكنه – نظريًا – تحديد مكان أى نسيج شاذ موجود بداخل الجسم مهما صغر حجمه . وهو بالطبع ليس تجربة سارة يمر بها المرء . إنها تجربة مماثلة لتجربة أخذ صورة أشعة للصدر وإن لم تكن تماثلها تمامًا . فعند أخذ صورة أشعة للصدر ، يقف المرء أمام جهاز يقوم بكل العمل وحده . أما الماموجرام ، فإنه يتطلب نوعًا آخر من المشاركة قد يصعب تقبلها . وسأحكى لكم ما حدث معى .

فبعد أن جردونى من ملابسى التى تغطى الجزء الأعلى من جسدى ، دفعوا بى إلى حجرة أخرى باردة لا سقف لها . ثم أجلسونى على كرسى صغير أمام آلة ضخمة . وبعد ذلك حضرت سيدة شابة يبدو أنها فنية أشعة ، وكانت تتحرك بسرعة ولا تتكلم إلا قليلاً . أخذت الثدى فى يدها ووضعته على لوح من الصلب وكأنه قطعة من اللحم ، ثم رفعت ذراعها لأعلى لتدفع لأسفل قطعة مماثلة من الصلب كى تطبق على الثدى الراقد بين اللوحين كأنه ساندويتش .

وشعرت بهذه السيدة الشابة وهى تؤدى هذا العمل فى صمت وكأنها جزء من تلك الآلة وسمعتها تقول لى :

– تكلمى حين تشعرين بألم . وبمجرد أن انتهت من جملتها شعرت ببعض الألم ، فصدرت منى آهة خفيفة فتوقفت عن العمل قليلاً ثم قالت :

– لا تتنفسى .

وكأنما كان بمقدورى أن أتنفس ، ثم أسمع صوت الآلة .. كرانك – كرانك – كليك ثم تقول السيدة : تنفسى الآن .

ثم تكرر العملية كرانك – كرانك – كليك « لا تتنفسى » . كرانك – كرانك – كليك « تنفسى » . وينتهى الأمر .

ولكن بعد كل هذا لا أستطيع الانصراف . فأذهب إلى حجرة الانتظار المليئة بنساء جالسات يقرأن فى مجلات قديمة عن ديكور المنزل وأعداد أخرى قديمة من النيوزويك ، أو لا يقرأن بل يحملقن فى أى شىء .

وهناك على المرء أن ينتظر حتى تظهر نتيجة الفحص . فإما أن يقال لك « إنه ليس سرطانا » فتنصرف هادئًا مستريح البال . وإما يستدعونك ثانية لأخذ صورة جديدة ومعنى ذلك « احتمال وجود سرطان » . ولكن كلمة السرطان لا تنطق عادة بهذه البساطة لا فى حجرة الفحص ولا فى حجرة الانتظار . إنها كلمة لا تنطق تمامًا مثل حرف g الساكن فى كلمة Sign.

كان خوفى من سرطان الثدى قد انتهى عمليًّا حينما قال لى دكتور « ألبى » إنه غير قلق . وتلاشى تمامًا بعدها بأسبوع واحد حين قال لى الدكتور « سميث » وبعد أن اطلع على صور الماموجرام إنه أيضًا ليس قلقًا .

إن الدكتور « ألبى » هو إمبراطور الماموجرام كما يطلقون عليه فى منطقة نيويورك كلها فقد قال لى أحد الأصدقاء من الأطباء : إنه حتى الجراحين

أنفسهم يرسلون زوجاتهم إليه لمهارته . وأيضًا كان دكتور « سميث » هو طبيبى الخاص على مدى ثمانى سنوات وسمعته طيبة وثقتى به كبيرة . فإذا كان كل هؤلاء لا يشعرون بالقلق فلماذا أقلق أنا !! ؟

وذات مرة صحت فى آرثر [illegible] عاد يتحدث فى هذا الموضوع من جديد بعد مرور حوالى شهر .

– لا تكن سخيفًا . إن هذا الورم شىء تافه لا يثير القلق بالمرة . وأنت تعلم أننى قد أجريت الفحص اللازم ، أليس كذلك ؟

– بلى ، ولكنه صلب جدًّا .

وقلت له مثل خبيرة ببواطن الأمور :

– من الطبيعى أن يكون صلبًا ، إنه كيس دهنى ، والأكياس الدهنية تكون صلبة فى العادة . كما أن كثيرًا من النساء لديهن مثل هذه الأشياء وهى ليست بالضرورة سرطانًا .

الفصل الثانى :

واستمر الحال هكذا لمدة عام . وعلى الرغم من أننى لم أكن قلقة بسبب الورم ولكننى لم أستطع أبدًا أن أنسى وجوده . فهو لا يزال هناك على أية حال ، وأحيانا كنت أتحسس مكانه من وقت لآخر مثلما يتحسس المرء موضع شامة أو كاللو فى جزء من جسده وكنت أدفعه بأصبع الإبهام إلى الداخل أحيانًا . وفى كل مرة أتحسسه أجده فى مكانه فأقول لنفسى : لا بأس ، فليكن مادام وجوده لا يعنى شيئًا خطيرًا .

وفى إحدى المرات عندما كنت أستكمل موضوع سرطان الثدى فى معهد « جوتمان » وبينما أنا أتناقش مع أحد الأطباء المتخصصين فى الأورام ، تذكرت الورم الذى يخصنى ، وخطر لى لأول وهلة أن أطلب من أحد أطباء المعهد أن يلقى نظرة عليه .. ولكنى تراجعت على الفور وقلت لنفسى : إن هذا تصرف سخيف . أولاً : لأنهم مشغولون للغاية وثانيًا : لأننى أنا أيضًا مشغولة ، إذ كان لابد من إذاعة البرنامج على الهواء فى نفس الليلة . أى أن كل العمل بما فيه من تصوير ومونتاج وكتابة يجب أن يتم قبيل الخامسة مساء وكانت الساعة تقترب من الثانية .

إلى جانب أننى ذكرت نفسى أن اثنين من مشاهير الأطباء قد قاموا بفحصى وقالوا : لا داعى للقلق . فإن هذا الورم لا يعنى شيئًا على الإطلاق . وكذلك فقد نهرت نفسى قائلة : لا تكونى انتهازية ، فليس معنى أنك تقومين بعمل موضوع عن محل للحلوى أن تأكلى من الحلوى التى فى المحل – كما يقول المثل – وصرفت النظر بسرعة عن هذا الأمر . وسمعت هاتفًا داخليًا يقول لى : « إنك صحفية ولك حصانة ، كما أنك تقومين بعمل موضوع عن النساء الأكثر استعدادًا للإصابة بالسرطان وإذن فأنت لست واحدة منهن بلا شك .. إنك بعيدة عن كل هذه الاحتمالات . أنت صحفية ،

ولك أوراق اعتماد ، وتصاريح خاصة للدخول إلى كل الأماكن أو الخروج منها وبمقدورك الحصول على العون الذى تحتاجينه وعلى الحماية إذا كنت فى حاجة إليها إن لك وضعًا خاصًّا متميزًا .. باختصار إنك آمنة فاطمئنى » .

ولم تكن صفتى الشخصية كصحفية فقط هى التى أعطتنى الشعور بالحصانة بل إن حقيقة تاريخى الصحى الرائع تنبئ بأننى كنت دائمًا فى تمام الصحة والعافية بل وشديدة المناعة أيضًا .

فقد كنت دائمًا أتمتع بصحة جيدة فى جميع مراحل حياتى المختلفة . وكانت أمى تفخر دائمًا بلياقتى البدنية مثلما تفخر الأمهات الأخريات بمواهب أبنائهن أو جمال منظرهم كما كانت شديدة العناية بطعامى ، وكانت تفخر بأنها طاهية ممتازة . ولكن على الرغم من ذلك لم يحل طعام أمى الجيد بينى وبين أمراض الطفولة المعتادة ، ولكن فى الحقيقة كانت إصابتى بتلك الأمراض دائمًا إصابة معتدلة خفيفة ، وكنت سرعان ما أشفى منها بمعدل كان دائمًا أسرع من بقية الأطفال الآخرين . ومن الطبيعى ألا تمر هذه الحقائق دون ملاحظة من أمى . فكنت أسمعها تقول مثلاً لصديقتها عبر التليفون : حالة بسيطة جدًّا من الغدة النكفية لدرجة أن الطبيب نفسه لم يكن متأكدًا منها . أو تقول لها مثلاً عندما أصبت بالسعال الديكى : « هل سمعت عن طفلة تصاب بالسعال الديكى لمدة ثلاثة أيام فقط » .

وهكذا كانت أمى دائمًا شديدة الفخر بحصانتى الطبيعية ضد الأمراض ، وكانت تعتبر هذا تميزًا عن باقى الأطفال . ولم ينته هذا بانتهاء مرحلة طفولتى بل إنها قالت لزوجى « آرثر » فى إحدى المرات « إن ابنتى لم تتناول حبة أسبرين طوال حياتها ، ولم تشك من أى مرض حتى الصداع لم تشعر به أبدًا » .

وقد علق « آرثر » على ذلك بعد زواجنا قائلاً : «أن تتناولى الأسبرين أو لا تتناولينه ، فشيء لم يخطر ببالى . ولكن أظن من الطبيعى أن تشعرى بصداع من حين لآخر وإلا فبحق الجحيم من الذى يرغب فى الزواج من امرأة خارقة » .

وفى الواقع لم تكن أمى مبالغة فيما قالته بهذا الشأن فلم يحدث بالفعل طوال حياتى أن شكوت من الصداع أو تناولت قرصًا من الأسبرين . على أن عناية أمى الفائقة بغذائى لم تكن لتحول علميا دون إصابتى بأحد الأمراض الوراثية التى قد تكون موجودة فى العائلة مثل ضغط الدم المرتفع ، الكُلى أو الصداع . ولكن واقع الأمر أن ٣٩ عامًا قد مرت من عمرى دون أن تظهر أية بادرة لتلك الأمراض . ومن الطبيعى أننى لم أكن أهتم كثيرًا بدراسة الأمراض الموجودة فى العائلة . وعلى قدر علمى لم يحدث أن مرض أحد من أفراد عائلتى الأحياء منهم والأموات من ناحية أبى أو أمى بمرض مثل السرطان .

وانقضى عام تقريبًا وأصبح سرطان الثدى فى ذلك الوقت من الأخبار التى تلقى اهتمامًا شديدًا خاصة بعد الجراحة التى أجريت لاثنتين من مشاهير النساء وهما « بتى فورد » زوجة الرئيس الأمريكى « وهابى روكفلر » ..

وبسبب هذا الاهتمام وأيضا من أجل الموضوع الذى كنت أعده للتليفزيون فى هذا الشأن فلقد أتيحت لى الفرصة لمعرفة الكثير عن سرطان الثدى ، وأكثر بكثير مما كنت أعرفه منذ عشرة شهور مثلاً . وكذلك كان الحال بالنسبة للكثيرين . فمن خلال الدعاية يتعلم الكثيرون . كما أن الخوف أيضًا يعلمهم . وفجأة أصبح عدد كثير من الناس على دراية تامة بطبيعة المرض وعدد ضحاياه .

وكما تقول التقارير فلقد أصيب بهذا المرض حوالى تسعين ألفا وذلك فى

عام ١٩٧٤ فقط . وبدأت المانشتات العريضة تظهر فى الصحف تتحدث بالتفصيل عن المرض وعن ضحاياه . ومنها ذلك المانشيت الذى ظهر فى صحيفة النيويورك تايمز ويقول :

« سرطان الثدى يتسبب فى وفاة عدد كبير من النساء سنويًا . وفى أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية تموت سيدة من بين كل ٢٥ سيدة بسبب سرطان الثدى » .

ومانشيت آخر يقول :

« فى النساء ما بين الخامسة والعشرين والرابعة والثلاثين يأتى سرطان الثدى فى المرتبة الثانية بعد حوادث الانتحار كسبب مباشر للوفاة . وفى النساء ما بين الخامسة والثلاثين إلى الخامسة والأربعين يأتى فى المرتبة الأولى كسبب للوفاة . وفى الأعمار الأكبر من ذلك يأتى فى المرتبة التالية لأمراض القلب كسبب للوفاة » .

وكان السؤال الذى يتردد هو : من أين يأتى المرض ؟ ما الذى يسبب هذا المرض ؟ ولم يكن هناك أحد يعلم له سببًا ، ولكن كانت هناك الكثير من الاجتهادات يستند معظمها على دراسات على النساء اللاتى هن أكثر استعدادًا للإصابة بهذا المرض ، وهن كما أثبتت الدراسات النساء اللائى لهن أخوات أو أمهات أو خالات أصبن بهذا المرض من قبل . وأيضا النساء اللائى لم ينجبن أو اللائى أنجبن فى سن متأخرة . وكذلك النساء فى سن اليأس أو المصابات بمرض الضغط أو السكر .

ثم كانت هناك نظرية الفيروس ونظرية الأقراص (وإن لم يثبت صحتها وكل ما عرف فى هذا الشأن هو أن الهرمونات الأنثوية قد يكون لها علاقة ما بالمرض) .

أما نظرية الدهون الحيوانية فتبدو مقنعة إلى حد ما ! . إذ أن الدراسات

الضخمة التى أجريت أظهرت أن النساء اليابانيات اللائى عشن فى أمريكا ، ويتناولن الدهون الحيوانية فى غذائهن هن أكثر عرضة للإصابة بسرطان الثدى من النساء اليابانيات اللائى يعشن فى اليابان .

تسببت الحملة الصحفية فى إصابة الكثير من النساء بحالة من الفزع والعصبية وبدأن فى الاندفاع إلى أقرب مراكز فحص الثدى ، وكلما أسرعن بالذهاب إلى تلك المراكز لإجراء الفحوص اللازمة ، كلما نشطت الصحافة فى تغطية أخبارهن (تمامًا مثلما فعلت أنا فى برنامجى التليفزيونى عن هذا الموضوع) .

وكانت الدعاية المكثفة هى السبب فى إسراع الكثير من النساء إلى تلك المراكز لفحص أنفسهن ، كما تعلم الكثير منهن كيف يقمن بفحص أنفسهن بأنفسهن للكشف عن أية أورام يحتمل وجودها .

وكان من الواضح أن الرسالة التى أرادتها الصحافة قد وصلت إلى الجميع فى أقصر وقت ألا وهى : « الفحص المبكر ينقذ الحياة » .

وبالطبع لم يؤد الخوف إلى الفعل الإيجابى الصحيح فى كل الأحوال ، إذ أن بعض النساء اللائى كشف الفحص عن وجود أورام لديهن ، لم يفعلن شيئًا بالمرة من أجل إنقاذ حياتهن . بل إن الخوف قد شلهن تمامًا . وكما قالت لى إحدى السيدات من الجمعية الأمريكية للسرطان : « إن من العار على هؤلاء النساء أن يتركن الخوف يقضى عليهن . فى حين أن معظمهن ليس لديهن شيئًا يخشونه فى الواقع . فهن يعتقدن أن مجرد وجود ورم يعنى أنهن مصابات بالمرض وهذا فى الواقع ليس حقيقيًا . إذ أن تسعة من بين كل عشرة أورام يتم الكشف عنها تكون فى الغالب أورامًا حميدة » .

وأذكر أننى قلت لها حينئذ :

« إننى أعلم ذلك ، بل إننى شخصيًا لدى ورم من هذا النوع » .

الفصل الثالث :

وعدت إلى دكتور (ألبى) قبل أن يمر عام . فقد كانت زيارتى الأولى فى شهر يونيو من عام ١٩٧٤ ، وهذه المرة كنا فى مارس من عام ١٩٧٥ .

وجدت حجرة الانتظار كما هى مثلما تركتها آخر مرة . نفس المقاعد الباهتة ، ونفس الوجوه البائسة المتجهمة . وللأسف فقد نسيت أن أحضر معى شيئًا أقرؤه أثناء الانتظار ، ولم أجد أمامى سوى نفس المجلات القديمة التى تتحدث عن ديكور وتجميل المنازل . وبعد أن مرت نصف ساعة وأنا أقرأ عن كيفية تجديد ديكور المنزل الريفى – وبالمناسبة أنا لا أمتلك منزلاً ريفيًا – وعن طريقة عمل أشكال من الورق لتزيين الأرفف ، انتابنى الضيق والغضب ، واستعجلت موظفة الاستقبال (الممرضة) وطمأنتنى قائلة بأننى لن أنتظر طويلاً . ولقد كانت كاذبة فى ذلك ، إذ مرت نصف ساعة أخرى ، وكان لا يزال هناك حوالى خمس عشرة سيدة ينتظرن دورهن . ووجدت نفسى أسب وألعن فى سرى . وثارت حميتى الأنثوية وقلت فى نفسى : إنهم لا يعاملون الرجال هكذا . فمن غير الممكن أن يعطوا مواعيد لخمسة عشر شخصا من الرجال فى وقت واحد فى مثل هذا المساء الملعون . بالطبع فإن للرجال وظائف هامة ووقتهم ثمين ، كما أنهم ولا شك يعتقدون أننا نحن النساء ليس لدينا أعمال هامة نقوم بها . عليهم اللعنة ، على الأقل كان من الواجب أو يوفروا لزبائنهم المجلات الحديثة ذات القيمة . ولم أتمالك نفسى فقلت للممرضة ذات الوجه العريض :

– هناك خطأ ما فى نظامكم ولا شك .

وأجابتنى بهزة من كتفيها معلنة بأنها تعمل بمفردها .

ومن جديد عدت إلى قراءة كيفية عمل ورق لتزيين الأرفف . وأخيرًا سمعت الممرضة تنادى اسمى (بتى رولين) ولكنها كانت تنطق اسم عائلتى

« رولاند » بدلا من « رولين » وهى تضع ملفًا تحت ذراعها . وأسرعت بالدخول إلى حجرة الطبيب ومثل المرة الأولى خلعت ملابسى حتى الوسط وبدأ الدكتور (ألبى) يتحسس موضع الورم وحين وصل إلى مكانه بالضبط قلت « هذا هو الورم » ثم أضفت « إنه عندى منذ عام ، ولقد سبق أن قلت لى : إنه لا خوف منه ونصحتنى بالعودة لفحصه خلال عام » .

ولقد ضايقنى كثيرًا أن اضطر لشرح هذا كله . وهز رأسه ثم رسم دائرة سوداء حول مكان الورم وقال « لا تخشى شيئًا ، فإنه يزول بالماء » ثم خرج من الحجرة .

ثم سمعت مساعده الفنى يقول لى « اجمعى أشياءك وتعالى معى من فضلك » .

وكان شابًا صغير السن ، قليل الحجم ، شاحبًا تمامًا مثلما رأيته آخر مرة فى العام الماضى .

وتم عمل فحص للصدر من جديد وبنفس الطريقة الأولى التى يوضع فيها الصدر بين لوحين معدنيين مثل السندوتش تمامًا . ومررت بنفس التجربة غير السارة ، إلى جانب أننى كنت فى حالة عصبية بسبب ضياع ساعة ونصف فى الانتظار .

وارتديت ملابسى وخرجت من عند الطبيب ، وقمت بجولة حول المكان ثم طلبت زوجى بالتليفون ، وشرحت له أننى أنتظر تحميض صور الأشعة التى أخذت لى ، وأن هذا ربما يستغرق على الأقل نصف ساعة أخرى .

ثم تمشيت قليلاً ورأيت زوجًا من الصنادل فى فترينة أحد المحال أعجبنى وفكرت فى شرائه رغم أننى لم أكن فى حاجة إليه . واشتريته بالفعل .

كان الجو قد صار باردًا فى الخارج وبدت وكأنها ستمطر . وعدت إلى عيادة الدكتور (ألبى) مرة ثانية . وعند دخولى كانت هناك سيدتان

فقط فى حجرة الانتظار . وبادرتنى الممرضة قائلة عند دخولى – إن الطبيب يريد أن يأخذ صورًا أخرى للصدر . وقلت بضجر أوه ، ثم دخلت ، وفى هذه المرة قام الدكتور (ألبى) بنفسه بالمهمة الثقيلة . ولم يكن سندوتشا بسيطًا هذه المرة ، بل لم تكن نفس الآلة المستخدمة فى المرات السابقة . بل كانت أصغر حجمًا وأكثر برودة ، وبدلاً من احتوائها للصدر من أعلى لأسفل ، كان على أن أنثنى قليلاً لكى يمكن للآلة الباردة أن تحتوى الصدر من الجانب . كانت المشكلة كما فهمت من همهمته هى فى موضع الورم . إنه يرقد هناك بعيدًا فى جانب من الثدى بحيث كان من الصعب على الآلة الأولى أن تصل إليه . بحيث لم يظهر فى الصور أى ورم على الإطلاق .

وشعرت بألم يعتصر معدتى وقلت وأنا أحاول ألا أبدو قلقة :

– متى سأحصل على النتائج ؟

– إننى سأذهب إلى الأرجنتين يوم السبت (وكان اليوم هو الخميس ، فقلت فى نفسى بحق الجحيم ماذا يهمنى إلى أين تذهب ؟ ياله من وقت للقيام برحلة ..) وستصلك النتائج بالبريد ... وبالطبع إذا كان هناك خطأ ما فستتصل بطبيبك المعالج .

– متى ؟

– غدا .

وكان هناك الكثير من العمل فى اليوم التالى ، وذلك بسبب الوقت الذى ضاع منى ، كان هناك موضوع يتحتم عمل مونتاج له . وموضوع آخر عن المراهقين الذين أدمنوا الخمر . وكان هذا موضوعا شيقًا بالنسبة لى . فلقد وعدنى أحد الأشخاص الذين يعملون مع هؤلاء الشباب فى كاليفورنيا أن يرتب لى وللعاملين معى موعدًا مع هؤلاء الصغار . وكنت أعلم أن هذا سيكون موضوعًا مدهشًا لو استطعنا تصويره للتلفزيون . ولكن كانت

المشكلة أننى لم أستطع العثور على الرجل ، ورغم أننى تركت له رسائل فى كل مكان يحتمل أن يذهب إليه إلا أننى لم أسمع منه .. وتذكرت أنه كان قد قال لى : إن لديه اجتماعا يوم الاثنين القادم (وكان اليوم يوم جمعة) .

وكان لدينا حفل عشاء أنا و (آرثر) ليلة السبت . فإذا ما تمت رحلة كاليفورنيا كان علينا أن نتصل بجميع الأصدقاء لإخطارهم بإلغاء الحفل .

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف (عليها اللعنة) ، كم أكره انتظار المكالمات التليفونية ، أشعر وكأننى عدت فى السابعة عشرة من عمرى مرة ثانية وفى غاية القلق بالنسبة لترتيبات ليلة السبت . وفكرت فى استكمال أحد الموضوعات التى لم أنته من كتابتها بعد ، ولكننى لم أستطع . ومرة ثانية وبطرف قلمى أدرت قرص التليفون وطلبت أمى وسألتها متى سنتقابل للغداء معًا . ثم طلبت الكوافير وطلبت موعدًا ليوم السبت استعدادًا للحفل فى حالة عدم ذهابى إلى كاليفورنيا . ثم فجأة ، قررت أن أطلب الدكتور (سميث) . وحين سمعت صوته على التليفون بادرته قائلة :

– آسفة لإزعاجك ولكننى ذهبت إلى الدكتور (ألبى) بالأمس وقال لى إنه سيتصل بك اليوم فى حالة وجود خطأ ما . لا أعتقد أنه قد اتصل ، ولكننى فكرت بأنه من الأفضل أن أتصل بك لأطمئن على أية حال ، وخصوصا أن هناك احتمال أن أكون خارج المدينة لبضعة أيام .

ولم يتكلم دكتور (سميث) فى الحال . وحين فعل نطق كل كلمة كأنما هو يؤدى بروفة . وكان كل ما تذكرته من كلماته « ... .. ليس هناك ما يدعو للقلق ، ولكن من الضرورى استئصال هذا الورم »

ولم أنطق فى الحال أنا أيضًا . ولكنى سألته « ومتى ذلك ؟ » فأجاب :

– سأعطيك رقم تليفون جراح معروف هو الدكتور (سنجرمان) وهو جراح ممتاز . اطلبى موعدًا معه وهو سيقوم بعمل اللازم . وسألته :

– وهل من الضرورى عمل هذا الإجراء فى الحال ؟

فلقد كنت منزعجة بطريقة غامضة ، وبدا لى هذا الأمر كإزعاج إضافى وضياع للوقت أكثر ، وكأنما ما ضاع من وقت عند الدكتور (ألبى) لم يكن كافيًا .

ولم أكن قد توقعت هذا ولا مستعدة له وقلت لدكتور سميث :

– إننى ذاهبة إلى كاليفورنيا لمدة أسبوع . هل لابد من العودة بأسرع من ذلك – أقصد هل ترى أن الأمر خطير ؟

وأجابنى الدكتور سميث قائلاً : « لا بأس من العودة فى نهاية الأسبوع » .

وهو بذلك لم يجب على سؤالى فى الواقع . وحينما أدرك أننى مازلت أنتظر إجابة شافية على سؤالى أضاف قائلاً :

« انظرى ! إن معظم هذه الأورام تكون حميدة فى أغلب الأحيان ولكن من الأفضل استئصالها اتفقنا ! ؟

– اتفقنا . هكذا أجبته باستسلام . وأى اختيار كنت أملكه ! وتوقفت ونظرت إلى التليفون ، ولكننى لم أكن أفكر فى كاليفورنيا آنذاك . كنت أفكر فى المرض ، أقصد السرطان .. ورددتها بينى وبين نفسى عدة مرات . ثم فكرت فى الورم ثم فى الصدر صدرى أنا .. ولمسته بباطن ذراعى لا شعوريا .

وأخيرًا جاءت مكالمة كاليفورنيا ، وقال لى المتحدث :

– لقد تم ترتيب كل شىء ونحن فى انتظاركم .

وسرحت قليلاً وقلت لنفسى تلك هى الحياة التى أعرفها . كل شىء لا يزال يعمل من أجلى . لم يتغير شىء فى الواقع ، فلم الخوف ! إن ما يجرى لى هو مجرد إزعاج طارئ . ظروف طارئة وستنتهى ، تمامًا مثل تلك

الظروف التى خلعت فيها ضرس العقل ومثل الظروف التى اضطرتنى أن أتغيب عن حفل زواج أعز صديقاتى . وقلت لكى أُطمئن نفسى « لن يعطلنى هذا الأمر كثيرًا ولن يأخذ من وقتى أكثر من يوم واحد على الأكثر » .

وذهبت إلى كاليفورنيا ومن هناك طلبت الجراح . وأوضحت لى سكرتيرته أنه من الأفضل لى أن أحجز المستشفى من الآن . وأن آخذ موعدًا مع الجراح . واقترحت عليها موعدًا للأسبوع التالى ، ولكنها أفهمتنى بسرعة أن موعد الطبيب ليس مشكلة ولكن المشكلة هى أنها لن تتمكن من حجز مكان لى بالمستشفى قبل مرور عدة أسابيع على الأقل .

وطلبت منها أن تحاول ، وكنت أريد أن أنتهى من هذا الأمر بسرعة . وبدون أن أشعر جرحت أصبعى السبابة وبدأ ينزف .

ومرت فترة صمت ثم عادت السكرتيرة تسألنى : هل تعملين بالتلفزيون ؟

وابتسمت فى نفسى وأجبت بالإيجاب وأنا مدركة أننى أملك ورقة رابحة يمكن أن أستعملها فى أى وقت أشاء . ومن خبرتى القصيرة كشخصية مشهورة خلال عمرى القصير فى الشهرة ، أدركت أنها ربما تبذل جهدًا خاصًا لتحجز لى مكانًا فى المستشفى . حقيقة من الصعب فهم مثل هذه الأمور ولكن تلك هى طبيعة الأشياء .

وحدث ما توقعته فبعد ساعة واحدة فقط وحينما اتصلت مرة أخرى كان كل شىء معدا . وكان على أن أدخل المستشفى فى يوم الأحد التالى على أن تجرى الجراحة يوم الاثنين صباحًا . وفى يوم الجمعة السابق على الجراحة كان على أن أذهب لمقابلة دكتور « سنجرمان » . وكان شيئا غريبًا حقًا أنه لمجرد أن تصادف أن شاهدتنى السكرتيرة على التلفزيون ، تمكنت أنا من الحصول على سرير بالمستشفى .

وتراءى لى أنه من المفيد أن أقوم بزيارة صديقة قديمة تعيش فى

« بيفرلى هيلز » وهى (ميليسنت) وهى تدير وكالة للإعلانات تمتلكها ، وهى حسنة المظهر أنيقة للغاية وذات طبيعة طيبة . وكنت أعرف أنها مرت بتجربة مشابهة لتجربتى . وكان لديها ورما فى ثديها استئصل منذ عام تقريبًا . وكان ورمًا حميدًا . ويبدو أننى كنت قلقة إلى حد ما بسبب هذا الورم ، ولذلك شعرت أننى أريد أن أراها . وشعرت بى (ميللى) وأحست بالقلق الذى أحاول أن أخفيه بداخلى ورأت أن تطمئننى بطريقتها الخاصة ، ففاجأتنى وهى تفك أزرار بلوزتها وتقول :

« انظرى إلى هذا ، إنه شيء لا يكاد يذكر » وأخرجت ثديها من صديريتها كما لو كان كتابًا تظن أننى يجب أن أقرأه . وأشارت بيدها الأخرى إلى جرح قطعى طوله حوالى بوصة ويقع فوق حلمة الثدى مباشرة . وقالت بلهجة آمرة :

– انظرى – أنه لا شيء كما ترين .. رغم أننى كنت فى غاية الخوف قبل إجراء الجراحة . وضحكت وقلت لها : « إنك على حق » محاولة بذلك أن أرضيها . ثم أضفت : « إنه لا يكاد يرى حقيقة » . وكانت كلاً منا تعرف بالطبع أن ما يخيفنى وما كان يخيفها من قبل – ليس هو الجرح الناجم عن إزالة الورم ومساحته وإنما ما يخيفنا حقيقة هو نوع الورم نفسه .

وعلى الرغم من قلقى الزائد إلا أننى كنت أعتقد فى قرارة نفسى مثلما تظن صديقتى أن الذى لدى ليس سوى ورم حميد ، ولابد من استئصاله كما أنه ولابد أن يترك أثر جرح على صدرى ولكنه على أية حال سيكون فى جانب الصدر ولن يكون ملحوظًا بدرجة كبيرة .

لقد كان لطيفًا ما فعلته « ميللى » معى كى تطمئننى ، وقلت فى نفسى : أظن أننى سأفعل مثلما فعلت هى إذا علمت بأية حال عن شخص آخر

سيجرى مثل هذه الجراحة . سأريهم أثر الجرح على صدرى بنفس الطريقة التى أرتنى « ميللى » جرحها دون تردد .

وأثناء تخيلاتى هذه لم تكن فى ذهنى ضحية بعينها . كان الافتراض أنه حتمًا توجد ضحية أخرى – ليست أنا على أية حال – أى شخص آخر يمكن أن يحدث لها مثل هذا الشىء – إلا أنا ..

وتعجبت من نفسى كيف لم يساورنى أى خوف من قبل .. ربما بسبب ذلك الصوت الذى يتردد فى رأسى دائمًا مؤكدًا لى : أن الأشياء السيئة لا تحدث لى . شىء نشأ منذ مولدى كطفلة وحيدة لأبوين محبين شاكرين غذيا فىّ الإحساس بأننى شىء مختلف عن كل الأطفال وأننى محصنة ضد أى أذى .

ولقد صدق هذا الظن إلى حد بعيد وفى أوقات مختلفة من حياتى . بالطبع كانت هناك أوقات عصيبة وخصوصًا وأنا فى العشرينات من عمرى حينما كنت لا أعرف هدفى فى الحياة ولا كيف أحصل على ما أريد . كذلك عانيت من الرجال شأن معظم النساء ، وتألمت فى بعض الأحيان بسبب ظروف العمل ووصلت فى مرحلة من حياتى إلى درجة من الشقاء تكفى لأن أذهب إلى طبيب فى الأمراض النفسية طلبًا للمشورة .

وكما أننى كنت الطفلة الوحيدة المدللة المحاطة بالحب والرعاية ، كنت أيضا الأمل والحلم بالنسبة لوالدى . كان مطلوبًا منى أن أكون جديرة بكل هذا الحب ، وأن أفعل شيئًا بكل هذا الذى أخذته . كنت محاطة بالحب والتوقعات أيضا .. كانا يتوقعان أن أكون طبيبة ويرددان دائمًا – الحمد لله إنها ذكية – وإن لم أستطع ، أن أكون طبيبة ، فلابد أننى سأكون شيئًا آخر له قيمته . وكانا يتوقعان أن أتزوج وأن تكون لى أسرة ولم لا وهما يرددان دائمًا – الحمد لله إنها جميلة – .

ولم يكن هذا يضايقنى .. فلقد كنت أنا أيضًا أريد أن أكون شيئًا له قيمته مثلما يريد أبواى تمامًا . ولم يخب ظن والدى حينما رزقا بى بدلاً من صبى .. ولماذا وأنا لم أخيب رجاءهم فى أبدًا .. فلقد كنت لهما الفتاة والشاب فى آن واحد .

ولقد عملت بالتمثيل فى فترة من الفترات حينما رآنى أحد العاملين فى الحفل الفنى وأنا أمثل إحدى المسرحيات بالجامعة وعرض على القيام بدور صغير فى إحدى المسرحيات التى تقدم على مسرح « برودواى » . وكانت تجربة مسلية للغاية رغم أن دورى كان قصيرًا جدًّا .. ولم يكن هناك كلام كثير أقوله على المسرح . فقد كان على أن أظل واقفة على المسرح وأروح بمروحة من الريش . وعلى الرغم من أننى لم أصبح نجمة إلا أننى نجحت كممثلة على أية حال ، صحيح أن أكون ممثلة فى نيويورك ليس بالعمل الرفيع الشأن ولكننى كنت أرى أنه أفضل بكثير من أى وظيفة روتينية داخل جدران مكتب .

وعلى الرغم من مشقة العمل اليومى على المسرح إلا أننى استفدت كثيرًا من حضور الفصول المتخصصة فى تعلم فن التمثيل . لقد كانت عملاً مثريا مفيدًا مثل أى عمل قمت به من قبل .

وبعد ذلك انزلقت إلى الكتابة ، كانت البداية فى أول الأمر كتابة موضوعات بسيطة للمجلات والكتب الصغيرة ثم واصلت حرث طريقى حتى وصلت إلى وظيفة محررة بمجلة (فوج) ثم انتقلت إلى مجلة (لوك) كمحرر أول منتهية بعمود خاص بى .

واهتممت بعملى غاية الاهتمام ، وحين يهتم المرء بعمله فلابد أن يتوقع النجاح ونجحت ولقد اعتبرت نجاحى شيئًا مسلمًا به وكنت سعيدة غاية السعادة إذ حققت ما توقعه الآخرون منى .. وما توقعته لى

أمى من نجاح على وجه التحديد . وأيضا حققت لها أملها فى أن أتزوج وتزوجت رغم أننى تزوجت فى سن متأخر نسبيًّا إلا أننى تزوجت على أية حال . وصحيح لم أنجب أطفالاً ولكن كانت هذه رغبتى ، فلقد كنت لا أريدهم .

وبعد فترة أغلقت مجلة (لوك) ولقد بكيت كثيرًا لهذا ، ولحسن الحظ لم أنتقل إلى مجلة (لايف) التى أفلست أيضًا بعد (لوك) بعام واحد . واستطعت أن أحصل على وظيفة (مراسلة إخبارية) فى محطة التلفزيون الأمريكية (إن . بى . سى .) . ووجدت العمل صعبًا فى بادئ الأمر . إذ كان مطلوبًا منى أن أؤدى عملاً لم أكن أعرف عنه شيئًا . ولم تكن لدى خبرة سابقة بكيفية إخراج البرامج الإخبارية العادية أو المصورة . ولا عن كيفية تغطية الموضوعات الإخبارية . ولكننى سرعان ما تعلمت كل ذلك وأجدته فى وقت قصير .

وكان كل شىء يسير حسبما توقعته ، ولم يكن هذا يحدث لأننى أكثر موهبة أو ذكاء من الآخرين ، ولكن لأننى كنت محظوظة دائمًا وواثقة من نفسى إلى حد كبير . ولم تكن ثقتى بنفسى فقط ولكنها كانت تمتد لتشمل عالمى كله ..

صحيح أننى أعلم أن العالم ملىء بالأشياء السيئة .. فأنا أعلم ما يدور هناك فى « فيتنام » مثلاً وما يحدث من حولنا فى (هارلم) ولكننى أنا شخصيًّا لم يمسنى شىء من هذه الأشياء السيئة بشكل مباشر .

وطوال حياتى كانت أشياء مثل .. الحرمان .. الظلم .. الفشل .. المرض .. كلها أشياء بعيدة عنى تمامًا بُعد بنجلاديش .. وأيضا غير واردة مثل .. السرطان .

الفصل الرابع :

وفى يوم الجمعة عدت إلى نيويورك ، وفى حجرة المونتاج كنا نشاهد الفيلم الخاص بالمراهقين المدمنين .. وكان فيلمًا رائعًا .. وكان أروع ما فيه حديث المدمنين الصغار والصدق والتلقائية التى يعبرون بها عن أنفسهم مهما كان ذلك مخالفًا لما يجب أن يقال على شاشة التلفزيون . لقد كان ما يقوله أطفال فى سن الخامسة عشرة عن تجربتهم مع الشراب وكيف صاروا مدمنين للخمر شيئا غاية فى التشويق والعجب . وكنت أعلم أنه إذا نجح هذا الفيلم – وهو ما حدث فيما بعد – فسيكون أبلغ رسالة لكل من يهمه الأمر وأبعد تأثيرًا من أى حديث لخبير متخصص فى هذا الموضوع يمكن أن أستضيفه ليتحدث عن هذه المشكلة .

وعندما ينجح أى فيلم فعادة ما يوجد نوع من الإثارة والتشويق فى حجرة المونتاج . فقد جلسنا هناك معظم اليوم أنا والمحرر ، ومخرج الفيلم ، نشاهد الفيلم فى حجرة شبه مظلمة .. نتوقف قليلاً لنبدأ من جديد ، ونعلق على الأجزاء الجيدة من الفيلم محاولين تحديد ترتيب أحداث الموضوع ونتناقش .. هل من الأفضل أن نبدأ باجتماع لهؤلاء الصغار أم نترك ذلك للنهاية ، ولنبدأ الفيلم بمنظر للصغار وهم يحتسون الخمر فى إحدى الحانات أى نضع المشكلة مباشرة أمام المشاهدين من البداية .

وكنت قد حددت موعدًا مع الدكتور (سنجرمان) فى نهاية ذلك اليوم حتى لا يتعارض موعده مع عملى فى هذا الفيلم . وكنت أعرف على وجه التقريب أنه قد تكون هناك فرصة للخروج بعض الوقت . فإذا استطعت أن أنتهى من كتابة وتسجيل هذا الموضوع على الأقل فإن المخرج والمونتير يستطيعان تكملة بقية العمل معًا دون حاجة إلى وجودى .

قد يبدو انشغالى بالفيلم وكأننى قد انتهيت من مشكلتى الخاصة التى

تؤرقنى . ولكن فى حقيقة الأمر لم أكن قد انتهيت . صحيح أن الرعب الذى شعرت به فى كاليفورنيا مر أمامى كحادث سيارة على الطريق السريع . نظرة سريعة ثم التفاتة ثم متابعة السير من جديد ... قد يبدو منطقيًّا أن يتفاعل المرء مع الأحداث بهذه الطريقة فما جدوى القلق على شىء قد لا يحدث ؟ إن القلق يأخذ وقتًا وجهدًا وأنا أضع قيمة كبيرة لوقتى وجهدى ولم أكن أريد أن أبددهما فى القلق على شىء ربما لا يحدث مثل سرطان الثدى . إنه ورم حميد بنسبة ٩ : ١ إننى أذكر نفسى بهذه الحقيقة يوميًّا . ثم أنه ليست هناك حالات سرطان فى العائلة . ثم أننى لازلت صغيرة السن وقبل كل شىء أنا (بيتى رولين) فكيف يحدث لى مثل هذا الشىء ؟ !!

ولكننى لم أنته من كتابة وتسجيل هذا الموضوع فى ذلك اليوم . فقد كان الفيلم طويلاً وكان يجب مشاهدته أولا . كما أن الموضوع جيدا بحيث لم يكن من الحكمة الاستعجال فى الانتهاء منه مهما كانت الظروف . وحينما كنت أستعد للانصراف كنا نرى مشهدًا من الفيلم يصور الرجل الذى دبر لنا اللقاء مع هؤلاء الشباب وكان يقول : « إن بعض هؤلاء الشباب يشعرون بالقبح (الدمامة) أو القلق أو الغباء ولذلك فهم يختفون خلف كئوس الخمر .. »

وعلقت على هذا المشهد قائلة : « أعتقد أنه من الممكن أن نستخدم هذا المشهد وإن كنت لست متأكدة إذا كنا فى حاجة إليه فعلاً » ثم سألت المخرج عن رأيه فى ذلك فأجاب : « نستطيع أن نحتفظ به ثم نقرر بعد ذلك إذا كنا نستعمله أم لا » .

ثم نظرت إلى ساعة الحائط وكانت تشير إلى الرابعة والنصف وكان موعدى فى الخامسة وكان العنوان فى الشارع الثمانين ومعنى ذلك أنه يلزمنى نصف

ساعة على الأقل لأكون فى العنوان المذكور . ولعنت الأمر كله فى سرى ونهضت قائلة : « يجب أن أذهب الآن » . وضغط المونتير على مفتاح الإيقاف . وكان كلا من الرجلين يعلم أننى ذاهبة إلى المستشفى لإجراء جراحة بسيطة . وسألنى المونتير « متى تعودين ؟ » وأجبته قائلة : « من المحتمل فى نهاية الأسبوع – إفعلا ما ترياه صوابا بدونى ، أوكى ؟ » ثم جذبت معطفى وجريت إلى المصعد .

إن مكتب الدكتور (سنجرمان) كان يقع فى إحدى تلك المبانى العتيقة فى الشارع الخامس المزدحم .. وحينما وصلت إلى هناك كان (آرثر) ينتظر فى الخارج أمام المبنى تحت المظلة وهو يدخن . كان منظره فظيعًا .. وقلت له : وأنا ألكزه لكزة خفيفة : « لا تأخذ الأمر بكل هذه الجدية .. إنه مجرد موعد مع طبيب » .

ومن الغريب أن اكتئاب (آرثر) وتجهمه كان يثير فىّ دائما الرغبة فى الابتهاج . إنها عادة غريبة ولاشك ، وحينما كنت أعمل بالتمثيل لم يكن هناك شيء يهدئ من روعى على المسرح ليلة الافتتاح مثل منظر أحد الممثلين الخائفين المرتعشين بينما كان منظر الممثل الهادئ الواثق من نفسه يخذلنى أنا تمامًا . إن ذلك الشيء غريب حقًا وأعتقد أنها مسألة نفسية بحتة . فإذا كان الشخص الذى أمامى هادئًا سلسًا أكون أنا فى غاية العصبية ، وإذا كان هو عصبيا أكون أنا هادئة بل ومرحة أيضًا . ولذلك حينما كنت أتقدم زوجى إلى حجرة استقبال الدكتور (سنجرمان) كان باديًا علىّ المرح والشجاعة بنفس الطريقة التمثيلية التى اعتدت عليها وتقمصت الدور تمامًا .

وقلت وأنا أتأمل اللون الأخضر الداكن فى حجرة الاستقبال : « ياله من لون جذاب » إن هذا هو اللون الذى أفضله لستائرنا بدلاً من ذلك اللون الأحمر الفظيع » .

ولم يعلق (آرثر) على كلامي . وأظن أنني كنت أعلم سبب اكتئابه . إن لديه دائما رد فعل سيئ لأى مرض من أى نوع . وأعتقد أن ذلك بسبب أمه التى أقعدها المرض وظلت ملازمة لسريرها نصف حياتها ومعظم حياته حتى ماتت .وكان أبوه قد هجر الأسرة وترك (آرثر) وأخاه صغيرين ولأن (آرثر) كان الأكبر سنًا فقد كان من واجبه أن يرعى أمه التى كانت تعانى من الآلام طول الوقت . وكما اعترف لى هو فى أحد المرات أن ليالى طفولته كان يقطعها دائمًا أنين أمه وتأوهاتها ، بحيث أصبحت أية بادرة لاعتلال الصحة حتى ولو كان مجرد غثيان بسيط بالمعدة بعد تناول الكثير من الأكل الصينى مثلاً – يجعله شديد القلق والتوتر .

وكان من عادة (آرثر) أن يتمتم أو يبرطم وحينما أكون مريضة يبرطم أكثر . ولم يكن أبدًا لطيفًا فى مثل تلك الأوقات . وكان يثور ويتبرم حينما كنت أشكو تعبًا أو مرضًا . وقد قال لى الطبيب النفسانى حينما استشرته فى ذلك : إن « آرثر » كان ينفث تجاهى بعضًا من غضبه المختزن الذى كان يشعر به تجاه أمه ولكن لم يكن ليجرؤ أن يفصح عنه أو يسمح له بالخروج . ورغم هذا التفسير من جانب الطبيب إلا أن تصرفه هذا ظل يثيرنى للغاية .

وهو لم يكن غاضبًا الآن ولم يظهر غضبًا بعد ذلك – أو على الأقل لم يظهره لى ولكنه كان قلقًا جدًا . قلقًا علىّ وعلى نفسه . وربما كان يقول لنفسه هاأنذا قد تزوجت من فتاة كانت تفخر دائمًا بصحتها الجيدة وبنيتها الصحيحة وتعلن ذلك فى كل مناسبة وهاهى قد تحولت إلى إنسانة ضعيفة مريضة مثل أمى .

ولكن عليه اللعنة .. لم أكن مريضة بل كنت أشعر أننى فى تمام العافية . إن كل هذا القلق مبعثه خوف مزيف لا أساس له .

وكان على الباب تحت الجرس مباشرة علامة « دق وادخل » وفعلنا ذلك ثم أعطيت اسمى لموظفة الاستقبال ، وجلسنا على مقعدين رديئين لعله نفس مهندس الديكور الذى أعد عيادة الدكتور (إلبى) هو نفسه الذى أعد عيادة الدكتور (سنجرمان) أيضا . ومددت يدى ألتقط إحدى المجلات .. ولكنه هنا يختلف عن الدكتور (إلبى) فلديه على الأقل نسخة من مجلة (النيوزويك) لهذا العام . وخلافا للزحام عند دكتور (إلبى) كانت هنا سيدة واحدة فقط فى حجرة الانتظار وكانت تبدو كالميتة . وأخذت أراقبها من حين لآخر ولمدة عشر دقائق أو نحو ذلك وفيما عدا حركة جفونها لم يتحرك فيها شىء بالمرة . وبعد حوالى خمس عشرة دقيقة دعتنا الممرضة للدخول .

إن للدكتور (سنجرمان) شعرًا أبيض ونظارات سميكة ورباطَ عنق حريرى . وكان مكتبه صغيرًا مظلمًا ويبدو كل شىء فيه مصنوعًا من الجلد . وجلس خلف مكتبه وجلست على أحد الكراسى الجلدية الموجودة على جانبى المكتب فى مواجهته وتركت كرسيًّا خلفى ليجلس عليه (آرثر) .ودون أن انتظر كى يسألنى بدأت أنا أتكلم . وسردت عليه كل الحكاية حكاية الورم منذ البداية ومتى اكتشفته لأول مرة وماذا قال عنه الأطباء ؟ وكل شىء تذكرته عن هذا الموضوع قلته له . كان (سنجرمان) يدون ملاحظاته بينما أنا أتكلم . ثم سألنى بعض الأسئلة عن تاريخى الطبى ، وعن عمرى ، وهل أنجبت أو حملت قبل ذلك وأيضًا سألنى إن كان هناك أى سرطان فى العائلة . وكانت إجابتى على هذا السؤال « بالقطع لا » وبصوت واضح ومرتفع . وحينما انتهى من أسئلته شعرت أننى أجدت دورى تمامًا وأعطيت نفسى فى هذا الامتحان تقدير (ممتاز) .

وبعد ذلك وبشىء من التكاسل سحب الطبيب بعض صور الأشعة من أحد الظروف وكان واضحًا أنها تخصنى ، ودار بكرسيه تجاه

الحائط ووضع صورة الأشعة السوداء ملاصقة لجهاز رؤية صور الأشعة وأدار مفتاح النور فى الجهاز ، ثم تمتم قائلاً :

« هذه الصورة لا توضح الكثير » ثم أطفا المصباح واستدار ليواجهنى وقال : « حسن .. دعينا نلقى نظرة » قال ذلك وهو ينهض واقفًا .وتبعته إلى حجرة أخرى للفحص متصلة بالحجرة الأولى . وشعرت بأننى أرتفع وكان ذلك عند صعودى إلى منضدة الكشف . إننى دائمًا أشعر بنفس الدوار السخيف فى مرات عديدة سابقة ، قبل هبوط الطائرة أو حينما أكون وحدى فى الشقة ويحيل إلى أحيانا أننى أسمع صوت صرير ما ودائمًا لا يكون هناك شىء من هذا . حينئذ أشعر كم أنا غبية وعصبية .

كنت راقدة على ظهرى وكان دكتور (سنجرمان) يقوم بفحص الثدى الأيسر وأثناء ذلك كان يطلب منى أن أرفع ذراعى للخلف ثم يتحسس الثدى من جديد . ثم انتقل إلى فحص الثدى الآخر . وكان الفحص عميقًا جدًا أعمق بكثير من أى فحص مررت به من قبل سواء مع دكتور (سميث) أو مع دكتور (إلبى) . وطلب منى (سنجرمان) أن أجلس ثم أعاد الفحص مرة أخرى وأنا جالسة . وكان يحرك ذراعى فى هذا الاتجاه وذاك الاتجاه ثم يدفع بأصابعه بقوة تحت إبطى . ثم يحذرنى قائلاً « سأضغط على حلمة الثدى الآن » ثم يفعل ذلك . وكنت أعلم أنه فى حالة وجود سرطان بالثدى فإن الحلمة تفرز سائلاً عند الضغط عليها . ولم يحدث ذلك فى حالتى عندما ضغط الدكتور (سنجرمان) عليها . بل إنها حتى لم تؤلمنى . وأخيرًا قال « يمكنك ارتداء ملابسك الآن » دون أن يشوب صوته أى شىء واستنتجت أننى قد اجتزت الاختبار العملى بنجاح أيضًا مثلما اجتزت الاختبار الشفهى من قبل .

وعدت إلى مقعدى من جديد فى حجرة مكتبه وكان (آرثر) لايزال جالسًا هناك فى مكانه وهو يدخن .

ولا أذكر كيف قالها الدكتور (سنجرمان) لأننى بمجرد أن فهمت خلاصة ما يقول شعرت على الفور بسخونة فى رأسى وعينى .

— « بالتأكيد هناك شيء .. هناك بالتأكيد فرصة لوجود ورم خبيث ... وهناك أنواع مختلفة من الجراحات كما تعرفين .. بعض النساء يفضلن إجراء منفصلاً .. الدراسات أظهرت .. ومن خبرتى .. ولكن ، بالطبع المسألة كلها ترجع لك فى النهاية .. » .

وتوقف (سنجرمان) عن الكلام وأدركت أنه جاء دورى لأقول شيئًا .. وبدا لى أن المطلوب منى أن أحدد نوع الجراحة التى أريدها — أى أن أختار إما أن يستئصلوا الثدى فقط أو أن يستئصلوا الثدى وأشياء أخرى معه .

وببطء شديد استدرت فى مقعدى ونظرت إلى (آرثر) كانت عيوننا شبه مغلقة .ولقد قال لى فيما بعد : إنه ظل لفترة طويلة لا يستطيع أن ينسى ذلك التعبير الذى ظهر على وجهى لحظتها .

وحاولت أن أكون هادئة واستدرت إلى (سنجرمان) وسمعت نفسى أتحدث وأقول :

— « هل معنى هذا أنه يحتمل أننى مصابة بالسرطان » . ولم تكن هذه الكلمة تستعمل وعلمت بعد ذلك أن الأطباء أيضًا لا يستعملونها وأضفت قائلة :

— إنك لا تستطيع أن تجزم بذلك ، ولكن هل يمكن أن أعرف الاحتمالات .. أو النسبة المئوية .. كم بالمائة هذا الاحتمال ؟

وابتسم (سنجرمان) واتكأ على مكتبه وقال : « إن كل الناس تريد أرقاما ..إن من الصعب التحديد . ولكن الاحتمال ربما يكون ما بين ٣٠ إلى ٧٠ أو من ٤٠ إلى ٦٠٪ لا أعرف على وجه التحديد » .

وسمعت نفسي أقول مرة أخرى : « هل تقول ، هل تقصد أن هناك احتمال ٦٠٪ أو ٧٠٪ هل تقصد أنه مجرد احتمال ؟ » .

وكانت أسئلتي لا تريحه فقال موضحًا : « انظرى ؟ إن النسب المئوية هى فقط مجرد أرقام الناس تريد أرقاما ونحن نعطيهم ما يطلبون ولكنها فى النهاية مجرد أرقام لا يعتد بها إنك لا تعرفين إلا إذا ... . » وأثناء كلامه شعرت بأن الأرض تميد بى وأننى أفقد توازنى وإن لم أكن قد فقدت وعيى تمامًا . ولم أسقط بعيدًا ولم أصب بسوء عند سقوطى فلقد كان آرثر على بعد بوصات قليلة منى واستطاع أن يتلقفنى ولم أصب بسوء وأذكر أنهم أرقدونى على كنبة صغيرة فى الحجرة ، وكانت قصيرة نسبيًا بحيث لم تكن تكفى أن أمد ساقى فعلقهما (آرثر) على ذراع الكنبة مثل الفوط المبتلة . وتمتمت بصوت خافت محاولة أن أطمئن من حولى « سأكون بخير ؟ » .

ولكن لم يكن هذا ليقنع أحدًا من الموجودين بأننى سأكون بخير فعلاً . لأننى بمجرد أن نطقت بهذه الكلمات انفجرت فى بكاء مفاجئ بصوت مرتفع وكنت أريد أن أمسك شيئًا بقوة فأمسكت بوجهى ، أمسكت به بعنف وبكلتا يدى ، كأنه ليس وجهى بل وجه إنسان آخر ، وشعرت بشىء غريب على خدى تحسسته بيدى فوجدت أنه أحد الرموش الصناعية التى أستعملها ، التقطه بأصابعى ووضعته فى جيبى (وبعد ذلك بثلاثة شهور وجدته فى مكانه متسخًا ومختلطًا بنسالة النسيج فى جيب فستانى) .

كان الدكتور (سنجرمان) قد غادر الحجرة عقب سقوطى ، وسمعت صوته آتيا من إحدى الحجرات الخارجية يقول : « لا يمكن التكهن بمثل هذه الأمور ـ لقد قال طبيبها إنها تستطيع أن تحتمل المواجهة ـ

كل واحد يطلب منك أن تكون أميناً معه .. والنتيجة مثل ما حدث الآن » وأبعدت يدىَّ عن وجهى وسمعت من يقول : « إن نسبة ٦٠٪ هى مجرد رقم » وربما يكون (سنجرمان) هو الذى قال هذه الجملة .. لا أدرى .

واعتدلت فى جلستى ثم نهضت ، كانت هناك علبة مناديل ورقية على مكتب (سنجرمان) وجذبت منديلاً منها ومسحت به وجهى بعناية وأثناء ذلك عاد (آرثر) إلى الحجرة ، فقلت له فيما يشبه الهمس : « أنا بخير » . ووضع ذراعه حولى وخرجنا من الحجرة نجر أقدامنا مثل عجوزين متهالكين .

كانت حجرة الانتظار خالية تماماً الآن من الزبائن ماعدا الممرضة والدكتور (سنجرمان) . وكان (سنجرمان) يبدو عابساً عن ذى قبل وشعرت بشىء من الحرج وقلت له أيضا فيما يشبه الهمس : « أنا آسفة » ، أعتقد أننى أحسن الآن » . وقلت لآرثر ونحن نخرج من عند دكتور (سنجرمان) : « ياإلهى بالله كم مرة فى الأسبوع يواجه مثل هذا الموقف » . وهز (آرثر) رأسه ووقف ليشعل سيجارة أخرى . ولاحظت أن يده التى تمسك بالثقاب ترتعش .

كانت حجرة الانتظار ذات اللون الأخضر اللطيف تبدو لى الآن كئيبة مقفرة ، وكان اللون الأخضر الذى أعجبنى عند دخولى يبدو لى الآن قاتماً وكئيباً .

وفى الخارج كان الجو دافئاً ورقيقاً وكانت هناك نسمة خفيفة . كان كل شىء يبدو عادياً وبدأت أبكى من جديد . وتظاهر حارس المبنى بأنه لا يرانى وأوقف تاكسيا لنا ودخلناه بسرعة . وقال (آرثر) لسائق التاكسى عنواننا . وأسندت أنا رأسى على ظهر المقعد وأغمضت عينى .

وساد الصمت بيننا لفترة ثم قلت بصوت متحشرج : « ربما لا يحدث ذلك » وأجاب (آرثر) : « هذا صحيح » ثم علنا للصمت من جديد .

وحمدت الله أن معى نظارتى الشمسية وبذلك أستطيع أن أدخل دون أن يلاحظ بواب مسكننا شيئًا غير عادى . وبسرعة خرجنا من التاكسى إلى مدخل البيت إلى الأسانسير وعاد الصمت من جديد من حولنا داخل الأسانسير . ولم يقطع ذلك الصمت سوى الضجة التى أحدثها (آرثر) بمفاتيحه وهو يحاول فتح باب شقتنا .. وأخيرًا أصبحنا داخل البيت .

البيت !! ! كم أحببت هذه الشقة كثيرًا تلك الشقة الأنيقة التى من أجلها كدت أتسبب فى جنون اثنين من مهندسى الديكور حتى إن أحدهم صاح غاضبًا ذات مرة من كثرة طلباتى : « إنها ليست قصر فرساى » .

ونظرت إلى نباتاتى الخضراء فى أصصها المصيصية الجميلة على حافة النوافذ وبدأت أبكى من جديد واندفعت نحو حجرة النوم وألقيت بنفسى على الفراش ، وفكرت أن أرفع غطاء السرير الأنيق حتى لا يتسخ بدموعى . وتبعنى (آرثر) ورقد بجوارى وأحاطنى بكلتا ذراعيه .. وبدا لى ذلك غريبًا ! فهو لم يكن يفعل ذلك كثيرًا . كان ذلك واحدًا من الأشياء التى كنت أفتقدها كثيرًا وأشكو دائمًا بسببها . كنت كثيرًا ما أقول له : « إنك لم تقبلنى أبدًا » فيجيبنى : « هذا غير معقول ، إنك لابد مجنونة » فأقول : « لا أقصد تقبيلى فى الفراش ، هذا شيء لا يحتسب ، أقصد أنك لا تقبلنى أبدًا فى المطبخ ، أو فى الشارع ، إنك لم تقبلنى أبدًا فى الشارع » فيقول : بلى لقد فعلت فأقول :

« لا إنك لم تفعل ذلك أبدًا » ، اذكر لى ولو مرة واحدة قبلتنى فيها فى الشارع فيقول : « حسن ، حسن ، سأقبلك فى الشارع من الآن فصاعدًا » ولكنه لم يفعل ذلك أبدًا .

إنه يقبلنى الآن على أية حال ، ورغم أنه يقبلنى فى جبينى وعلى جانب وجهى حيث تدحرجت دموعى وفى شعرى ، ولكن لا بأس .

وتذكرت حديثًا كنت قد قرأته منذ عدة أسابيع لزوجة سيناتور (عضو مجلس الشيوخ) وكانت تتحدث عن علاقتها بزوجها بعد أن أجرت جراحة لاستئصال ورم من الثدى ، وكيف أنه ازداد قربًا منها بعد هذه الجراحة ؟ . ولقد بدا لى ذلك كنوع من الدعاية فى أول الأمر ولكنه كان مقنعًا . وحين ضمنى (آرثر) إليه بقوة قلت فى نفسى « ربما يحدث لنا نفس الشىء » وربما يأتى اليوم الذى يقبلنى فيه (آرثر) فى المطبخ وفى الشارع أيضًا .

الفصل الخامس :

وبدأت الاتصال بمعارفى على الفور . كنت بحاجة شديدة إلى أن أتحدث إلى أمى ولكننى لم أتصل بها . ربما أكون قد أشفقت عليها هى ولُبى ، وأخذت أفكر فى الأمر بشكل منطقى . هناك احتمال ألا يحدث لى مثل هذا الشىء فلماذا أزعجهم بدون داع ؟ ولقد ظللت أردد لنفسى « ربما لا يحدث ما أفكر فيه .. هناك احتمال ألا يكون ذلك الورم سرطانيا ، فقد أعود إلى المنزل بجرح بسيط فقط مثل صديقتى (ميللى) . حسن على أن أواجه الحقيقة إن هذا مجرد احتمال فقط ولا يعنى الاحتمال شيئًا مؤكدًا . فمن المحتمل أن أظل بخير مثلما كنت دائمًا .

واتصلت بأعز أصدقائى وصديقاتى وبكل الناس الذين أحبهم وأرتاح لهم ويبادلوننى نفس المشاعر .

اتصلت أولا بـ (ليو) وهو ممثل ، وكنا قد تقابلنا لأول مرة منذ سبعة عشر عامًا وكنا نقوم بأداء أحد المشاهد التمثيلية معًا ذات صيف . ولقد وجد كل منا الآخر ذلك الصيف .. ولم تكن أبدا قصة حب بالمعنى المعروف ، بل كنت أرى فيه الأخ الذى لم يكن لى أبدًا . وأصبحت أنا بالنسبة له مثل شقيقته . وحينما قررت ذات يوم أن أترك المسكن الذى كنت أقيم فيه مع إحدى الممثلات فى الشارع الواحد والعشرين ، ساعدنى (ليو) بروح أخوية كبيرة واندفع ليحضر لى تاكسيا وساعدنى فى حمل حقائبى والنزول بها خمسة طوابق على السلم كى أخرج قبل عودة رفيقتى فى السكن . كان لطيفًا ومتعاونًا دائمًا ولكنه كان عنيفًا فى بعض الأحيان . وحين كان أحدنا يقيم علاقة مع طرف آخر ، كان لا يخفى ذلك عن الآخر . وكان الطرف الثالث سواء كان صديقى أو صديقته يندهشون لذلك ولكنهم اعتادوا هذا الأمر .

وعندما اتصلت بـ (ليو) وأخبرته بالأمر .. خيل لى أنه قد فقد صوته ويااللعجب لماذا تضيع الأصوات فى مثل هذه المواقف !! وسرعان ماهمس بالكثير من الأسئلة . كان يريد أن يعرف كل التفاصيل .. ما الذى قاله لى الطبيب بالضبط .. وهل أخبرت والدى !! .. الخ وحينما لم يعد هناك شيء يسأل عنه أو شيء يقوله أنهينا المكالمة .

والآن .. وبعد أن جعلت أعز أصدقائى تعيسًا مثلى شعرت بالذنب .. ولكن ليس بالدرجة التى تمنعنى من طلب أشخاص آخرين مثل صديقتى (إريكا) وهى من أكثر أصدقائى تهذيبًا ورقة . وهى أيضًا أستاذة وكاتبة وأم وامرأة جميلة وذكية وغاية فى الرقة والنعومة حتى ليشعر المرء أنها على وشك أن تنكسر من فرط رقتها . وحينما علمت بأخبارى كانت على تلك الحال من الرقة وبدأت تهمس وتهمهم بكلمات غير واضحة وبعد عدة دقائق حاولت أن تقول شيئًا إيجابيا مثل (... ربما ... لا ... لا يحدث ذلك) ولم يفدنى ذلك بشيء .

ثم اتصلت بعد ذلك بثلاثى الجامعة وهم من أعز الأصدقاء : (جوانا سيمون) مغنية الأوبرا والتى كانت زميلتى السابقة فى الحجرة – ولم تكن فى المنزل ، ثم اتصلت بصديقتى (بات فيشر) التى تعيش فى فيلادلفيا . و(بات) مثل (إريكا) – ومثلى أيضا على ما أعتقد – خليط من الثبات والتردد وعندما طلبتها كانت فى حالة الثبات فاستطاعت أن تقول لى : « بامكانك احتمال هذا حتى لوحدث » وكانت على حق .. وفكرت فيما بعد ، أننى أستطيع احتمال حدوث هذا الأمر .. ولكن أوه يا إلهى لا تدع شيئًا مثل هذا يحدث لى وأن يكون علىّ احتماله . إلهى .. أتوسل إليك . ولكن الابتهال إلى الله لم يكن ليفيدنى . لأننى كنت قد ابتعدت عن الله منذ زمن طويل فلماذا يفعل الله شيئًا من أجلى ؟ لماذا يساعدنى الآن إذن ؟

ورقدت فى فراشى مرة ثانية ، إن الاتصال بالناس وبالأصدقاء والتحدث إليهم جعلنى أشعر بتحسن نوعًا . الاتصال هو حديث ، كلام ، والكلام هو تواصل ، والتواصل هو ما كنت أريده بالذات فى تلك اللحظة .. أن أتصل بالآخرين وأن أتحدث إليهم وأتكئ عليهم ألتمس العون .

وكان (آرثر) فى المطبخ يعد طعام العشاء . أعرف أننى أستطيع الاعتماد عليه ولكن ليس بدرجة كبيرة .. ليس بالدرجة التى أحتاج إليها .

إن زوجى (آرثر هيرتزوج الثالث) روائى ومؤلف للعديد من الكتب الغريبة والجديدة وهو أكثر الرجال الذين قابلتهم فى حياتى جاذبية . لقد تقابلنا منذ عامين قبل أن نتزوج وذلك فى إحدى الحفلات . كان يرتدى بذلة غامقة ونظارات كبيرة وكان يبدو واثقًا من نفسه جدًا وكان وسيمًا ومرحا فى نفس الوقت . وإلى جانب ذلك ، كان هناك شيئان غريبان فى مظهره . كانت هناك فرجة (مسافة صغيرة) بين أسنانه الاثنتين الأماميتين ، وكان يتأتئ تأتأة خفيفة أثارت مشاعر الأمومة بداخلى وجعلتنى أحبه على الفور . وخلال معرفتى به وقبل زواجى منه كان أكثر جاذبية ومرحًا . كما أنه كان فنانًا بمعنى الكلمة ، يريد كل شىء على طريقته هو . وكنت قد رأيت أنه يستحق ذلك وقررت أن أتزوج منه ولم يكن هو يريد الزواج ، فلقد مر بتجربة زواج سابقة وكان من رأيه أن الزواج يفسد الحب بل وأكثر من ذلك كان يعتقد أن الارتباط بشخص واحد طول الوقت شىء ممل وسخيف .

ولكنى فعلت مثل كل النساء إذ قلت له : « إما أن تتزوجنى أو تفقدنى » فاختار أن يتزوجنى وخلال رحلتنا معا تشاجرنا كثيرًا ولكننا ضحكنا أكثر . كان (آرثر) يسرف فى الشراب قليلاً فى بعض الأحيان . وكان وقحًا فى أحيان أخرى ، كما أننى اكتشفت بعد فترة أنه يتكلم بوقاحة أكثر مما يتصرف بوقاحة . إن غالبية الناس يتحدثون بطريقة ألطف من الطريقة التى يتصرفون

بها .. ولكن (آرثر) كان عكس ذلك تمامًا .. ويمكن أن أقول : إننى ربما أحببته لهذا السبب أيضًا . كما أننى كنت فخورة به لأن له العديد من العلاقات العامة التى تضفى نوعًا من الكمال فى شخصيته . وعدم تقبيله لى فى الشارع أو فى المطبخ أو شراء زهور لى أو أى شىء من هذا القبيل ، كان جزءًا من طبيعته التي تتصف باللامبالاة مثل بعض الرجال . ولم يكن يعجبنى ذلك .. ولكن (آرثر) ظل كما هو .. لم يكن أبدًا مجاملا أو حلو الحديث بل كان أقل من متعاطف فى معظم الوقت . ولكنه كان أصيلاً ويمكن الوثوق به كما أنه كان يحبنى وكنت أنا أيضًا أحبه وبنينا عشا للزوجية فى الشارع الخمسين . وكنت أشعر بالسعادة أحيانا رغم مشاجراتنا الكثيرة العنيفة فى بعض الأحيان . وتعلمت أن أستيقظ فى الصباح وقد نسيتها تمامًا .. إلى أن تحدث المشاجرة التالية .

وكانت بعض مشاجراتنا حول ما أراه في (آرثر) من كونه سريع الغضب ، حاد الطبع وما يراه هو من أننى مثيرة للأعصاب ، وتتحول المناقشات من اختلاف فى الرأى إلى مشاحنات . وسقطنا في تلك المصيدة – مصيدة المتزوجين – فأصبح شجارنا عادة لم يرغب أحد منا أو ربما لم يعرف كيف يوقفها . فلقد كان (آرثر) مثلا يصيح فى قائلاً :

– إنك لا توافقين أبدًا على أى شىء أقوله .

فأصيح بدورى قائلة له :

– إن الطريقة الوحيدة التى يمكن أن أتحدث بها معك ، هى أن أوافقك على كل ما تقول ! وكان يعتقد أننى كثيرة الانتقاد . وكنت أعتقد أنه طائش .. عديم التفكير ، غير مراع لحقوق الآخرين ومشاعرهم .

وهكذا .. وهكذا .. لم يحدث شىء سواء فيما بيننا أو من حولنا يمكن أن يجعل الأمور تسير بشكل أفضل ، فازدادت سوءًا ، ومع ذلك استمرت حياتنا معًا .. وفى وسط هذا الجو المجنون .. أصبت بسرطان الثدى ! !

الفصل السادس :

– هل رأيت (جلوريا سوانسون) مؤخرًا ؟ إنها تبدو فى أحسن حال .

هكذا بادرنى (أيوجين) سائلاً . و (إيوجين) هذا هو مصفف الشعر الخاص بى وهو شخص يغلب عليه طابع المرح والابتهاج فى معظم الأوقات . وربما كان هذا هو أحد الأسباب التى دعتنى إلى الذهاب إليه فى ذلك الصباح من يوم السبت . وبالطبع كان السبب الآخر هو أن أصفف شعرى .. فلقد قلت لنفسى : إنه إذا كان هناك احتمال حدوث حادث مأساوى فى حياتى فإننى أحب أن أبدو فى أحسن مظهر حين يحدث ذلك .

وبعد موعدى مع (سنجرمان) يوم الجمعة كانت مشكلتى التالية هى كيف أقضى عطلة نهاية الأسبوع .. وكان لابد أن أكون فى المستشفى مساء الأحد . وفكرت فى أفضل طريقة أقضى بها نهار السبت فكانت فكرة الذهاب إلى (إيوجين) مصفف الشعر .

وبعد أن خرجت من عنده مشرقة لامعة تجولت فى بعض المحلات واشتريت زوجًا من الأحذية غالى الثمن واشتريت أيضًا قرطًا من الفضة مرتفع الثمن أيضًا . ثم تجولت فى قسم الماكياج وجربت سائلاً لتلميع الشفاه ثم عدت إلى المنزل متألقة .. وكان (آرثر) هناك يكتب ، إذ كان يعمل فى كتاب عن الزلازل . وحين شعر بوجودى خرج من حجرة المكتب وسألنى : هل أنت بخير ؟ وأجبته : « لا بأس » .

وكنت فى الحقيقة أشعر بألم فى معدتى . ووجدت أقراص (الفاليوم) على المنضدة بجوار السرير فتناولت واحدًا وقلت (لآرثر) :

وأنت ؟ كيف حالك ؟ إنك لا تبدو على ما يرام !

وبالفعل كان منظره فظيعًا ويبدو أسوأ حالاً منى . ولقد اكتشفت بعد ذلك بأيام أن خياله قد ذهب أبعد من خيالى بكثير .. فلقد كان كل خوفى

أن أفقد ثديي .. وهذا أقصى ما وصل إليه خيالى .. ولكن (آرثر) ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك .. لقد كان يفكر فى احتمال أن أفقد حياتى كلها .

وفى تلك الليلة ذهبنا إلى السينما مع (سوزان) و (جو) وهما من أفضل الأشخاص لقضاء وقت طيب معهما . و(سوزان) تعمل مصورة وتتسم بشىء من الطيبة والسذاجة أما (جو) فهو من أصل أيرلندى وهو غاية فى الظرف وخفة الظل وهو أكثر ظرفًا حينما يكون ثملاً . وكان فيلما موسيقيا من تمثيل (بربارة سترايسند) ملائمًا للمشاهدة ، إذ كان من النوع التافه الذى ينسيك متاعبك .

ومن عادتى ألا أسرف فى الشراب ولكن بعد السينما عدنا إلى شقتنا ولعبنا الطاولة وشربت كثيرًا وضحكنا كثيرًا . وبعد أن انصرف (جو) و(سوزان) عدنا وحدنا من جديد . وبمجرد أن أغلقنا الباب خلفهما توقف الضحك والقهقهة ولم أعد أشعر بتأثير الشراب . وأفرغت الأكواب فى الحوض ووضعتهم فى غسالة الأطباق . وأغلق (آرثر) الطاولة وساد الصمت من جديد .. وشعرت فجأة بدوار فذهبت إلى حجرة النوم ورقدت على ظهرى ونظرت إلى السقف وبعد فترة توقف الدوار فنهضت وخلعت ملابسى وذهبت إلى الحمام حيث كان قميص نومى معلقًا على شماعة باب الحمام .. ومددت يدى لألتقطه وتوقفت فجأة .. كانت هناك مرآة معلقة على باب الحمام .. ونظرت إلى نفسى وإلى صدرى وثديىى . كان منظرهما لطيفًا ومنسجمًا .. ولم أكن أبدًا فى حاجة لارتداء سوتيان (صديرية) إلا عند ذهابى إلى العمل . لأنه كان يضايقنى بروز حلمتي الثدى من خلف الملابس حينما أكون بغير سوتيان . ولكن عندما لاحظت أن النساء الأخريات يحدث معهن نفس الشىء لم أعد أبالى .

وأذكر حينما كنت صغيرة فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرى

كان يقلقنى كثيرًا أن أرى صدرى مسطحًا وصغيرًا ، وكنت أغبط الفتيات الأكبر سنا لكبر صدورهن .. إذ كان الأولاد البالغون يهتمون كثيرًا بالفتاة الممتلئة الصدر . وكان يبدو لى أن مقدار شغفهم بالفتاة يقاس بمقاس السوتيان الذى ترتديه .

وربما كان الأمر يبدو لنا – نحن الفتيات ذوات الصدور الصغيرة على هذا النحو .. ولم أكن أدرى أن الفتيات أصحاب الصدور الكبيرة يعانون أيضًا بطريقة مختلفة .. تخيل أن تكون محط الأنظار لمجرد أن لك كتلتين ضخمتين معلقتين أمامك ! . على الأقل فإنه حين يقع فى حبنا نحن الفتيات صغيرات الصدور أحد الشبان فإننا نعرف على الأقل أنه يفعل ذلك من أجلنا وليس من أجل أجهزة الأمومة التى نحملها فوق صدورنا .

وبالطبع كبرت صدورنا قليلاً ونحن فى المدرسة الثانوية .. ثم توقفت عن النمو ولم أكن متأكدة من تقييم طولى أو حجم صدرى إلا فيما بعد . حين اتضح بعد ذلك أنهما فى المستوى المعقول . وصار الأولاد الذين كانوا أقصر منى ، أكثر طولاً وبذلك استطعت أن أقف على قدمى منتصبة دون الحاجة إلى ثنى ركبتى وأنا أراقصهم .

وبالنسبة لثديى ، فرغم أنه لم يكن كبيرًا مثلما كنت أحب أن يكون إلا أنهما كانا متناسقين إلى جانب أننى كنت أستطيع دائما أن أظهرهما أكبر من حجمهما الطبيعى باستعمال نوع خاص من السوتيان يؤدى هذا الغرض .

وحدث شىء طريف حين كنت فى السنة الأولى بالجامعة قضى على كل مخاوفى بالنسبة لحالة صدرى . إذ جاءت مندوبة مجلة « مدموازيل » ومعها مصور للبحث عن فتيات لعرض بعض أزياء طالبات الجامعة . وتم اختيارى لعرض سويتر أحمر . وقمت بارتدائه وعرضته على تلك السيدة

التى كانت ترتدى عشرات الأساور فى يدها . وكانت مهمتها هى ضبط الملابس وتثبيتها بالدبابيس قبل التصوير . وحين رأتنى نظرت إلى صدرى ثم قطبت . ونظرت إلى نفسى ثم إليها ولم أجرؤ أن أسأل ما هو الخطأ ؟ . ولم تقل هى شيئًا وإنما ذهبت إلى منضدة عليها بعض الإيشاربات الحريرية والأكسسوارات وجلبت إيشاربا حريريا لونه بيج وعادت إلى وقالت لى : « ارفعى السويتر » وسالتها « تقصدين أن اخلعه » ؟ وأجابت « لا ، أرفعيه فقط » .

ورفعت السويتر لأعلى وبدأت هى فى تقييد صدرى بالوشاح .. وبعد أن عقدته عدة مرات وأساورها تصطك فى أذنى قررت أن أتكلم وسألتها .. لماذا ؟ فأجابت باقتضاب « الموضة هذا العام هو عدم بروز الصدر » . وذهلت .. تصور أن أكون أنا بارزة الصدر بالنسبة لمجلة (مدموازيل) . ولكن .. عندئذ فقط عرفت أننى بخير .

والآن .. ودون أن أرفع عينى عن صدرى فى المرآة .. وضعت يدى على الثدى الأيسر الذى به الورم .. وفردته (سطحته) بقدر ما أستطيع محاولة أن أتخيل كيف يبدو لو أنه استئصل . وتساءلت .. هل سيستأصلونه من الجذور مثل كرة البطيخ ! . وهل سيتركون فجوة مكانه ! .. ورفعت يدى ونظرت إلى الثدى كما هو .. نظرت إليه كما لو كان شخصًا عزيزًا أراه لآخر مرة .. وأحسست بمرارة فى حلقى .. وامتلأت عيناى بالدموع . وجلبت قميص نومى من على الشماعة وارتديته بسرعة .. ثم ابتلعت قرصًا مهدئًا وذهبت إلى السرير .

ثم جاء يوم الأحد !! !!

الفصل السابع :

هناك الكثير يجب عمله حين تذهب إلى المستشفى لإجراء فحوص طبية ذلك النوع من العمل الذى يجعلك مشغولاً طول الوقت . ولا بأس من ذلك . فهناك استمارات عليك أن تملأها ، واختبارات دم وأشعة إكس ورسم قلب .. إلخ .

وكانت مهمة الرجل الذى قام بعمل رسم القلب لى مميزة ، فلقد سألته :

– هل أنت من هايتى ؟ أليس كذلك ؟ فنظر إلى وابتسم ابتسامة واسعة أظهرت أسنانه البيضاء ، ابتسامة جعلتنى أشعر بتحسن كبير ثم قال :

– كيف عرفت ذلك ؟ فأجبته :

– زرتها ذات مرة . فابتسم ابتسامة أخرى جميلة ثم سألنى :

– ولماذا أنت هنا ؟ فأجبته :

– سرطان الثدى .

عندئذ شعرت بالأسف فلقد ضاعت ابتسامته فى الحال ثم قال :

– أوه ! أنت لست متأكدة بعد ، أليس كذلك ؟ ستكونين بخير .

فأجبته هامسة :

– هذا صحيح ، ربما أكون بخير .

واصطحبتنى إحدى الممرضات إلى حجرتى ، وكان (آرثر) معى .

إن التأمين المدفوع يغطى فقط تكاليف حجرة شبه خاصة ولكننى أخذت حجرة خاصة على أية حال . فلقد فكرت .. ربما لو تحققت مخاوفى ، ففى هذه الحالة لن أريد أحدًا يشاركنى الغرفة . وكانت الغرفة نظيفة وشبه خالية وبها نافذة واحدة تطل على موقع لوقوف السيارات . وفتحت حقيبتى وأخرجت كل ما بها وأنا أعرف بعناية أين سأضع كل شىء وفى أى مكان

بالضبط . كان فى الغرفة كرسى واحد فقط جلس عليه (آرثر) وهو يقرأ مجلة « صنداى نيويورك تايمز » . ونظرت إلى السرير .. المفروض أن أرقد هنا . وترددت قليلاً ثم خلعت ملابسى وارتديت قميص النوم . وقلت (لآرثر) :

– كم أشعر بالسخف .. لماذا أرقد فى السرير .. إننى لست مريضة .

ونظر إلى (آرثر) وبدا كأنه سيقول شيئًا ولكنه تراجع وعاد إلى قراءة صحيفته من جديد .

وقلت لنفسى .. بلى إننى مريضة .. إننى مريضة وظللت أكرر هذه العبارة عدة مرات كما لو كنت طفلة فى الثامنة من عمرها عليها أن تكتب هذه العبارة على السبورة عدة مرات كعقاب على خطأ ارتكبته .

وحل المساء بسرعة وجاء الأصدقاء .. جاء (آلان بكباوم) صديقنا المهندس المعمارى الذى يتميز بلحية ذات شعر أحمر ويرتدى دائمًا صندلاً مضحكا حتى فى الشتاء . وقد أحضر معه لعبة (السكرابل) الشهيرة .

ثم جاءت (إريكا) تدخن كثيرًا وتضحك كثيرًا . ولم يكن هناك كراسى كافية فجلس الأصدقاء على الأرض . وبفضل (إريكا) و (آرثر) امتلأت الغرفة بالدخان وكأنها بار وليست حجرة فى مستشفى .

وكنا قد أغلقنا باب الحجرة لأن من المفروض أن التدخين ممنوع . ولكنى هنا تعلمت درس المستشفى الأول : فإذا كنت فى حجرة خاصة فليس عليك إطاعة كل أوامر المستشفى .. عليك فقط أن تغلق الباب أثناء عدم إطاعتك لهذه الأوامر .. !!

ولعبنا (السكرابل) .. ورغم أننى أحب هذه اللعبة إلا أننى مللتها بعد عشر دقائق فقط من بداية اللعب . وقلت (لآلان) الذى كان يحاول أن يكوّن كلمة من سبع حروف :

– إننى آسفة ، أشعر بتعب .

ولقد كنت أشعر بتعب حقًّا وكان هذا غريبًا إذ أننى كنت قد نمت تسع ساعات كاملة فى الليلة السابقة بعد أن أخذت ثلاث حبات من (الفاليوم) .

كان الظلام سائدًا خارج نافذة الحجرة وكانت هناك بضعة سيارات لا تزال فى مكانها فى موقف السيارات .. وكانت ساعات الزيارة قد انتهت .. وذهبت (إريكا) و (آلان) وهما لا يعرفان ماذا يقولان لى .. لذا .. فلم يقولا شيئًا ذا بال . وانصرفا وأغلقا الباب خلفهما وظل (آرثر) معى . ولكننا لم نكن قادرين على الحديث .. ربما كانت غلطتى فلقد كنت مشتتة الذهن للغاية .. فما إن يبدأ الحديث حتى يشرد ذهنى بعيدًا .. وكنت أفكر فى نفس الأشياء مرات ومرات .. ماذا يحدث لو أننى كنت مريضة فعلاً ! ولكننى لا أكاد أشعر بأى مرض .. كيف يحدث هذا ! ؟ وهل يمكن أن يحدث حقًّا ؟ ! وهكذا وهكذا .

وفجأة دخل الدكتور (سنجرمان) وكان يقوم بجولته المسائية . وسألنى بانشراح :

– كيف حالك ؟ أجبته بانشراح مثل انشراحه تمامًا :

– عظيم .

وجلس على حافة سريرى وبدأ الحديث عن الأنواع المختلفة لجراحات الثدى بنفس الطريقة التى كان يتكلم بها فى مكتبه . ولكنى فى هذه المرة حاولت أن أتماسك . وكان يتكلم بطريقة ميكانيكية مثل مضيفة فى أحد خطوط الطيران وهى تشرح للركاب كيفية استخدام الأجهزة المستعملة فى حالة الطوارئ .

وكنت مضطرة إلى أن أقاطعه من حين لآخر لأطلب منه إعادة بعض

الأشياء . وشعرت بأننى غبية خصوصًا وأننى أعرف الكثير مما قاله من التقارير التى كنت أقدمها للتليفزيون لبرنامجى التليفزيونى . ولكن الفرق هنا هو أننى كنت أبيع فى ذلك الوقت ولكننى الآن أشترى !! واستمر يشرح ويقول إنهم فى الخمسينيات كانوا يستعملون أسلوب الجراحة الجذرية لاستئصال ورم خبيث من الثدى . ومعنى ذلك إزالة الثدى كله إلى جانب الغدد الليمفاوية تحت الإبط وعضلات « الفريصة » .

وسألته : أليست هذه هى عضلة الصدر ؟ وأجاب بنعم وهو غير راغب فى المقاطعة . واستمر يقول : « .. وهناك جراحة بسيطة لاستئصال الثدى أحيانًا تسمى « الكليّة » وهى عبارة عن إزالة الثدى بالكامل فقط ولا شىء أكثر من ذلك . كما أن هناك جراحة استئصال الورم وفيها يزال الورم فقط وبعض الأنسجة المحيطة به . فإذا كان الورم خبيثًا ففى هذا النوع من الجراحة مخاطرة كبيرة لأننا فى هذه الحالة لا ندرى إذا كان الورم قد انتشر فى أجزاء أخرى من الصدر دون أن يتم استئصاله .

وعلى أية حال فإن الجراحة الجذرية (radical) لن تكون ضرورية فلقد أظهرت الدراسات أن معدلات النجاة بين النساء اللائى أجريت لهن الجراحة الجذرية والنساء اللائى أجرى لهن الجراحة (الجذرية المعدلة) تكاد تكون متماثلة تقريبًا .

واستمر الدكتور (سنجرمان) يتكلم دون توقف عن الجراحة الجذرية المعدلة وهى فيما يبدو الجراحة التى ينوى إجراءها لى .

« .. فى هذه الجراحة يستأصل الثدى ومعه بعض الغدد الليمفاوية — وهى الغدد القريبة من الثدى — على افتراض أنه إذا كان المرض قد وصل إلى الغدد فإنه سيصل إلى الغدد القريبة أولا . ولكن عضلة الصدر Pectoval muscles ستترك مكانها » .

وكانت ترجمة هذا الكلام عندى هى أنهم سيستأصلون ثديى ولكن دون أن يترك ذلك تجويفًا فى الصدر .

ثم أضاف الدكتور (سنجرمان) :

– وإذا شئت فإنه يمكننا أن نأخذ عينة أولاً لتحليلها وإذا ثبت وجود ورم خبيث ففى هذه الحالة نقوم بإجراء الجراحة .

وعلى قدر علمى أو علم أى شخص آخر فى مكانى عند هذه النقطة أنه إذا كان هناك سرطان فى الثدى فلابد من استئصاله ، أما اختيار نوع الجراحة فقد بدا لى اقتراح (سنجرمان) معقولا ! على كل حال .. ما الذى أعرفه أنا فى هذا الشأن ؟ . لقد سألت عن الدكتور (سنجرمان) وعن سمعته وعلمت أنه يتمتع بسمعة طيبة وعلى أن أثق به .

وحين توقف الدكتور (سنجرمان) عن الكلام شعرت بالتعب الشديد من جديد ونظرت نحوه وقررت أن أقول له ما أفكر فيه فقلت له :

– إننى أثق بك فافعل ما تراه الأفضل بالنسبة لى . ولكن أريدك أن تعرف أننى لا أريد أن أموت !!

وثانيا : أنا إنسانة ذات كبرياء ولا أريد أن أكون بشعة المنظر إذا كان ذلك بالإمكان .. !!

عندئذ ارتعشت شفتى السفلى فعضضت عليها وسمعته يقول شيئًا لا أتذكره الآن ..

أخذ (آرثر) يدى فقلت له :

– من الأفضل أن تذهب الآن .

لم يكن باستطاعته الكلام ، فانحنى قليلاً ثم قبلنى قبلة سريعة جافة ومرتعشة

ثم ذهب وبقيت وحدى . وبعد قليل دخلت إحدى الممرضات ومعها عربة عليها بعض الأدوية وناولتنى فنجانًا من الورق وبه بعض الأقراص وسألتها :

– ما هذه الأقراص ؟ فأجابت :

– إنها بعض الأدوية التى ستساعدك على النوم .

وكانت تبدو منشرحة وخرجت وهى تدفع عربتها أمامها .. ثم جاءت ممرضة أخرى لقياس ضغط الدم ثم انصرفت بعد أداء مهمتها .

ثم جاءت إحدى التمورجيات وكانت امرأة بدينة سمراء البشرة وحركتها أبطأ بكثير من الممرضات الصغيرات وحيتنى بإبتسامة كبيرة وكان بين يديها حوض وفى يدها شفرة وسألتها وأنا فزعة : ما هذا الذى فى يدك ؟ فأجابت وهى تبتسم :

– سأحلق لك ذراعك . قالتها بلهجة (جاميكية) ناعمة ثم جلست بجوار السرير . فقلت :

– تقصدين تحت ذراعى (إبطى) . فأجابت وهى ترفع الذراع الأيسر برفق :

– نعم ، والذراع أيضا .

وصحت بفزع : أوه ، لا ، إنهم لن يقطعوا ذراعى لماذا تحلقين ذراعى إذن !! ؟

وحاولت ألا أبكى .. ولكن غلبنى البكاء . فقالت المرأة وهى تضع الصابون فوق ذراعى .

– لا تقلقى يا عزيزتى .. وقلت لها وأنا أنظر لما تفعله :

– ولكن .. ألن يتسبب هذا فى ظهور الشعر خشنًا مرة أخرى ؟ فأجابت :

– لا يا سيدتى ، إن الطريقة التى أؤدى بها عملى تجعل الشعر يبدو

رائعًا فيما بعد ، أما ما يفعله بعض الناس ، فهذا يتسبب فى نموه خشنًا ، ولكننى أعرف ماذا أفعل !!

يا إلهى إن المرأة تفخر بعملها هذا . وسكت وأنا أنظر إليها وأبتسم .

ولقد كانت هذه آخر ابتساماتى ولفترة طويلة بعد ذلك ..

ومن آخر الأشياء التى علقت بذاكرتى فى الفترة السابقة على إجراء الجراحة مباشرة هو منظر سيدة أخرى كانت موجودة فى إحدى حجرات المستشفى ، ربما كانت حجرة انتظار العمليات . وكانت السيدة تبتسم وسألتها عن العملية التى ستجرى لها فأجابت وهى تبتسم أيضا إنها جراحة تجميل ، ولما سألتها أين أجابت « فى الثدى » . ثم سألتنى بدورها عن الجراحة التى ستجرى لى فأجابتها نفس الإجابة « الثدى » .

كنت قد سألت الدكتور (سنجرمان) فى المساء السابق على الجراحة عن الوقت الذى ستستغرقه هذه العملية . فقال : إنه من المفروض أن تُجرى الجراحة فى التاسعة صباحًا ، وإذا كان الورم حميدًا فإننى سأكون فى حجرة الإفاقة (الانعاش) فى حوالى الحادية عشرة . وإذا لم يكن حميدًا فستستغرق العملية وقتا أطول من ذلك . ولم يشأ أن يحدد ولكنه قال بشىء من التردد — من المحتمل أن تستمر إلى ما بعد الظهر .

وحين أفقت فى حجرة الإنعاش لمحت أول ما لمحت إحدى الممرضات . لم أكن واعية تمامًا بالطبع ، ولكن عقلى كان يعمل جيدًا بقدر كاف لأن يدرك أن الممرضة ربما لن تذكر لى شيئًا عن الجراحة التى أجريتها ولكنها بالتأكيد لن ترفض الإجابة على سؤال بسيط وبرىء مثل : كم الساعة الآن من فضلك ؟

أيتها الثعلبة الماكرة .. هكذا قلت لنفسى وأنا أسأل الممرضة عن الوقت وأجابتنى هى بدون تردد : الثالثة والربع .

وعدت إلى النوم من جديد ...

الفصل الثامن :

ونظرت إلى نفسى فوجدت ضمادة كبيرة بيضاء نظيفة تلتف حول صدرى . وكان ذراعى الأيسر مرفوعًا على وسادة بيضاء ، وكانت الملاءات نظيفة بيضاء ومكوية . كذلك كان رداء المستشفى الذى أرتديه أبيض اللون نظيفًا وناصع البياض أيضًا . كما أن البيريه الذى تضعه الممرضة فوق رأسها أبيض منشيًا وكذلك كان رداؤها .

كان كل شىء حولى يبدو ناصع البياض ، عدا أمى وأبى وآرثر . هذا كل ما أتذكره عن اليوم الأول للعملية .

وفى اليوم التالى كنت لا أزال تحت تأثير المخدر (البنج) ولكن بصورة أخف ولم أشعر بتلك السخونة التى شعرت بها فى اليوم الأول . ولقد تقيأت قليلاً ولم أستطع تناول أى طعام . وكنت أشعر بالحاجة إلى الحمام بصورة مستمرة . ولأنه لم يكن باستطاعتى الذهاب إلى الحمام بالطبع فكانت هذه المهمة تتم بمساعدة الممرضة . إذ كانت تقوم برفعى قليلاً ثم تدس وعاءً من البلاستيك أسفلى وبعد قليل تأخذها بعيدًا إلى أن أطلبها مرة ثانية ويكون ذلك فى الأغلب بعد عشرين دقيقة فقط من المرة الأولى .

ما أقذرها من مهمة ... ولكن يبدو أنها لا تعبأ بذلك .

وفى نفس اليوم أيضًا حلمت حلمًا اعتدت أن أراه فى طفولتى وأعتقد أن كثيرًا من الأطفال يحلمون مثل هذا الحلم . وهو باختصار أن تحلم بأنك ميت وترى كل الناس مجتمعة وهم فى غاية الحزن من أجلك .. ويوجد من هذا الحلم نسختان .. نسخة من النوع الطويل ذات تفاصيل كثيرة ، ونسخة قصيرة مختصرة . وكان حلمى من النوع الطويل حيث كانت هناك جنازة كبيرة وكل شخص يأتى ويبكى ، والكل يشعر بالأسف والحزن الشديد لكل الأشياء السيئة التى قدموها لك فى حياتك وخصوصًا

والديك ... حتى ولو كانوا لم يسيئوا إليك فإنهم يشعرون بالندم ، ويتكلمون مع بعضهم البعض عن خصالك الرائعة ، ويتحدثون بالتفصيل عن كل ناحية من نواحى شخصيتك مما يأخذ وقتًا طويلاً بالطبع . وهناك أيضًا وجوه كثيرة وأنت لا تعرفها ولكنهم جميعًا متواجدون على أية حال وكلهم فى حالة سيئة من أجلك ... .. !

وكان على ظهر كفى جروح من أثر الإبر والخراطيم التى أدخلت فى عروقى . ولعل هذا ما يخيفنى ويجعلنى أشعر بالرغبة فى التبول بكثرة ..

وكان هناك أيضا شيء متصل بى ، عبارة عن كيس من البلاستيك مثبت إلى جانبى لم ألحظه فى بادئ الأمر إلى أن علقت الممرضة قائلة :

– إن الكيس يمتلئ بشكل منتظم يا عزيزتى ؟

لم أكن أفهم عن أى شيء تتكلم حتى نظرت إلى أسفل ورأيت ذلك الكيس وبداخله سائل أصفر وعرفت أنه لسحب أية إفرازات من الجرح . وقررت بينى وبين نفسى ألا أنظر ناحيته مرة ثانية ...

وفيما عدا هذه الأشياء فقد أحببت المستشفى وأحببت وجودى فيها .. وعلى مدى ستة أيام وأنا أرقد هناك وأنا أتلقى ... وأتلقى ... . وأتلقى ... أتلقى زهورًا وهدايا وبطاقات جميلة ... باقات من الزهور الرائعة .. وأنواعا عديدة من النباتات الخضراء والبطاقات الجميلة الملونة ... .. وأيضا أتلقى رعاية مستمرة (مدفوعة الأجر) من الممرضات ... ورعاية مستمرة (غير مدفوعة الأجر) من كل الأشخاص المحيطين بى .. أتلقى العديد من المكالمات التليفونية .. والزيارات والهدايا . وكنت كلما أتلقى أكثر كلما ازددت رغبة فى أخذ المزيد ... . وأحببت كل شيء حصلت عليه ... أحببت البطاقات اللامعة ذات الورود المطبوعة عليها التى

وصلتنى من زملائى فى إن . بى . سى (N.B.C) والتى تقول كلماتها المكتوبة بعناية وأناقة :

نفكر فيك

ونأمل ... .

أن تكونى فى أحسن صحة ... .

وتحت هذه الكلمات أربعة عشر توقيعا من الزملاء والزميلات .

كما أحببت أيضًا البطاقة التى وصلتنى من صديقتى (إيريكا) إنها تشبهها تمامًا كانت تقول كلماتها :

« بيتى يا عزيزتى ، لم يكن ذلك سهلاً يوما .. ولكنك ستكونين بخير وسيكون كل شيء على ما يرام لقد عشنا أنا و (بات) معك هذا الأمر لحظة بلحظة .. فإن كان هذا يريحك قليلاً فاعلمى أننا لازلنا كذلك .. نعيش معك بمشاعرنا .. ونشعر أيضًا أنك ستجتازين تلك الأزمة وستكونين بخير تمامًا تذكرى هذا دائمًا ... .

سأتصل بك يوم الثلاثاء حينما تكونين أحسن حالا .. وتذكرى فى مثل هذا الوقت غدا ستشعرين بأنك ولدت من جديد وستمتلئين صحة وحيوية .. لقد قالت لى ذلك إحدى الممرضات ذات مرة عقب أن أجريت لى إحدى الجراحات الدقيقة وأذكر أن كلماتها هذه قد ساعدتنى كثيرًا ..

كلنا نحبك ونفكر فيك دائمًا يا عزيزتى »

مع حبى ... (إيريكا)

وأيضا بطاقة (مارتى لنسكى) وهو صديق من بوسطن كتب يقول :

... ... إن ذلك وقت هام لتدركى أنك لست فقط لحمًا

وعظمًا .. وهذا ما يجعلك مختلفة ... يجعلك ما أنت عليه بالفعل .. ما تشعرين به نحو نفسك وما يشعر به الآخرون تجاهك ... ...

ياله من كلام جميل ... أحببت كل هذا .. كما أحببت الزيارات وخصوصا ... الزيارات المفاجئة . وأيضا زيارات (ديڤيد) .

وهو صديق من فيلادلفيا يعمل فى أحد البنوك . وكنت على وشك الزواج منه منذ ثلاث سنوات تقريبًا ولكن لم يتم ذلك .. وديڤيد هو رجل مثل الدب طويل له شعر أسود كثيف ومظهره شرس إلى حد ما .. وهو فى الحادى والأربعين من عمره ، يصغر (آرثر) بسبع سنوات . وحين جاء ليرانى حاولت أن أبدو مرحة فقاطعنى قائلاً بصوت رقيق :

– ليس مطلوبًا منك أن تسلينى .. أنا الذى يجب أن أفعل ذلك .. لقد جئت هنا لأكون بجوارك بعض الوقت ، ليس عليك أن تقولى أى شىء !

وكان قد أحضر لى معه عروسة ذات أذنين كبيرتين وضعها إلى جوارى على الوسادة . وجلس بجوارى وقتا طويلاً (وكان لهذه الزيارة شأن هام فيما بعد ...) .

ثم جاء أناس آخرون قريبين منى أو كانوا قريبين منى فى وقت من الأوقات مثل (ديڤيد) وأحضروا هدايا معهم .. وأحببت مجيئهم وأحببت هداياهم . ومن بين من حضروا كانت (مولى هاسكل) وهى صديقة قديمة وزميلة حجرتى ، وقد أحضرت معها دفترًا جميلاً للعناوين عليه رسوم هندية بديعة . وحضرت أيضا (سوزان وود) وأحضرت لى معها دفترًا أنيقًا من الجلد رائحته جميلة .

وأيضًا لم ينقطع وصول الزهور .. كانت تصلنى زهور على الأقل مرتين فى اليوم الواحد حتى بدا الأمر كأنه عيد ميلاد مستمر أو ربما جنازة مستمرة ... ...

وكنت لا أمل من سرد حكايتى مع الممرضة التى خدعتها حينما سألتها عن الساعة فى حجرة العناية المركزة . وكنت أعيد سرد هذه الحكاية مرات ومرات .. كما كنت أسرد حكايات أخرى وأشياء أخرى ... كنت لا أتوقف عن الكلام إلا حين أنام .. كنت أتكلم طول الوقت ، وأتكلم مع كل شخص يأتى لحجرتى .. الممرضات ومساعدات الممرضات حتى الذين لا يتحدثون الإنجليزية منهم . ومن بين هؤلاء جميعًا تحدثت أكثر ما تحدثت مع أمى ... ...

كنت قد قلت « لآرثر » ألا يخبر أمى وأبى إلا بعد إجراء العملية .. وفى يوم دخولى المستشفى ، اتصلت بهما تليفونيا وقلت لهما : إن لدى موعد عمل خارج المدينة - فى بوسطن (وظننت أن اختيار بوسطن يبدو معقولاً) وكنت أفكر فى أنه إذا لم يكن الأمر خطيرًا فلا داعى لأن يعرفا شيئًا عن هذا كله . وكنت أنوى ألا أخبرهما بشىء حتى لو كان الأمر خطيرًا وظهر أننى مصابة بالمرض . ولكن (آرثر) قال لى وقتها « إذا حدث ما نخشاه فستحتاجين أمك بكل تأكيد » .

فى أول الأمر لم أستطع أن أتصور كيف سأحتاج أمى ، وحينما فكرت فى الأمر مرة ثانية استطعت أن أتصور ذلك .. إلى جانب أنها ولابد ستلاحظ التغيير . فنحن نخرج معا للتسوق .. ماذا يحدث لو خرجت معها يومًا إلى احدى المحلات وأردت قياس أحد السويترات .. ليست بالقطع حجرة القياس هى المكان المناسب لتكتشف أم أن ابنتها الوحيدة قد فقدت إحدى ثدييها .

ولذلك قررنا ، إذا حدث ما نخشاه فسيخبر (آرثر) والدى على الفور . ولقد كان (آرثر) نفسه هو الذى عرف الخبر مباشرة من الدكتور (سنجرمان) ، وذلك عقب الجراحة مباشرة ، فقد صعد (سنجرمان) إلى

الاستراحة حيث كان ينتظر (آرثر) وأخبره . عندئذ ، اتصل (آرثر) بأمى أولا وقال لها : إن هناك شيئًا هامًّا بخصوصى يريد أن يحدثها بشأنه . ولكنه شرح لها أنه يريد أن يخبرهما معا . وطلب رقم تليفون أبى فى مكتبه ليتصل به ويطلب منه أن يلحق بأمى فى المنزل . وأعطته أمى الرقم وسألته فى جزع « إن كنت أنا قد مت » وأجابها (آرثر) بالنفى ثم طلب أبى بعد ذلك .

وحينما وصل أبى إلى المنزل طلبهما (آرثر) بالتليفون وكانت أمى على السماعة الفرعية الموجودة فى حجرة النوم .. وألقى (آرثر) عليهما بالخبر ... وحين بدأت أمى فى البكاء على التليفون أخبرهما (آرثر) أن عليهما أن يتحاملا على أنفسهما ويحضرا إلى المستشفى فى الحال لأننى بحاجة إليهما .

وحين أفقت ووجدت نفسى على سريرى فى حجرتى بالمستشفى كان أبى وأمى هناك . وابتسمت أمى فى وجهى وقبلتنى .. ولم تبك .. ولم ألمحها تبكى بقية الأسبوع الذى قضيته بالمستشفى ولم أرها أبدًا تبكى بعد ذلك على ما حدث لى .

ولقد أخبرتنى فيما بعد بأن أبى بكى كثيرًا فى المنزل . ولم أتذكره جيدًا فى اليومين الأوليين كل ما أذكره أنه كان يجلس إلى جوار الحائط معظم الوقت .. أعتقد أنه كان لا يدرى ماذا يفعل .

أما أمى فبالرغم من إحساساتها القوية إلا أنها ليست من النوع الذى يبكى ليس أمامى على الأقل . وكانت المرة الأولى التى رأيتها تبكى حين كنت على علاقة (بآرثر) قبل الزواج ، وحضرت أمى إحدى مناقشاتنا حول الزواج وسمعت (آرثر) يبدى رأيه ضد فكرة الزواج . عندئذ

انفجرت أمي باكية ونظرت إلى قائلة « لو كنت أمًا لفهمت شعورى » . وكانت عبارات من هذا النوع المثير تتسبب فى سوء تفاهم بينى وبين أمي وظللنا لفترة طويلة لا نتكلم فى أشياء ذات أهمية بسبب أنها كانت دائمة القلق علىّ وعلى مستقبلى . وكنت كثيرًا ما أثور لأسلوب ومضمون الكلام الذى توجهه لى وتثور هى لثورتى وينتهى الأمر بأن تصاب كلا منا بالصداع أو ألم فى المعدة أو كليهما معا .

إن جزءًا من المشكلة يكمن فى رغبة أمي أن تعطينى كل شىء ، ولم تفكر أبدا فى أن إعطائى كل شىء سيجعلنى أولاً مختلفة عنها ، وثانيا مدينة لها بما أخذته والشعور بالاختلاف وبالذنب ليسا بالطبع أساسًا سليمًا تبنى عليه الزمالة أو الصداقة .

ولكن الأمور تحسنت بيننا فيما بعد عندما كبرت وساعد على ذلك تقدمى فى السن كما ساعد زواجى أيضًا على تحسين العلاقة بيننا . والآن ... على نحو ما أشعر بأن هذه الأزمة قد ساهمت أيضًا فى تحسين العلاقة بيننا إلى حد كبير . ولقد كان (آرثر) محقا حين قال : إننى سأكون بحاجة إلى أمي ... وهأنذا أحتاج إليها فعلاً .. وهى تدرك ذلك وأنا الآن أدرك ذلك ... وأمي تكون رائعة حين يحتاجها أحد .

فى المستشفى كانت تقوم بكل ما أحتاجه تمامًا .. لم تكن فقط محبة ومتعاونة .. فهذا شىء بديهى .. بل إن أكثر ما أثر فى نفسى وحرك مشاعرى نحوها هى تلك الروح العالية التى بدت بها ، والإيجابية التى كانت عليها ، وانشراحها ولمعان عينيها كذلك الروح العالية التى كانت ترد بها على المكالمات التليفونية .

فى اليوم الأول قالت لى « يجب أن نشعر بالامتنان لأننى لازلت أحيا » .

وفى اليوم الثانى – حين اتضح أن غددى الليمفاوية ثبت بالتحليل أنها خالية من أية إصابات سرطانية – قالت : « يجب أن نحمد الله ونكون فى غاية الامتنان لهذه النتيجة » . إذ كان معنى ذلك أن فرصتى فى الحياة صارت أكبر الآن .

وهى أيضا كانت تتحدث مع كل شخص يدخل الحجرة . قالت مرة لإحدى الممرضات الفلبينيات التى تتحدث الإنجليزية بصعوبة : « إن ابنتى محاربة » . وحين ابتسمت الممرضة وأومات رأسها بأدب قالت لها مرة أخرى : « إن ابنتى بطلة محاربة » !

كان من عادة أمى أن تردد معظم الأشياء مرتين بهذه الطريقة .. لا بأس من هذا ولا اعتراض بل إننى فى الواقع أحب طريقتها هذه .. فالتكرار كان يؤكد حيويتها . لقد قامت بمجهود كبير خلال تلك الأيام التى قضيتها بالمستشفى .. وقامت بدورها جيدًا . كانت تناولنى الأشياء التى أريدها حينما لا أجد الممرضة .. وكانت ترد على التليفون وتقوم نيابة عنى بالرد على المكالمات التى لا أرغب فيها وبطريقة لبقة كأحسن سكرتيرة اجتماعية ذات خبرة . كما كانت تعنى بالزهور التى فى الحجرة وتشذبها إذا ذبلت إحداها أو اصفرت إحدى الأوراق الخضراء فسرعان ما تنزعها .

وكانت تستمع إلى بالساعات وأستمع إليها وتحدثنا عن أشياء كثيرة .. تحدثنا عن الماضى وعن طفولتى .. وفى إحدى الأمسيات كنت أنظر إليها وهى تنسق الزهور لرابع مرة فى ذلك اليوم وكانت منهمكة فى عملها ، ففكرت أن أناديها وأقول لها : إننى أحبها ، وقررت أن أفعل ذلك على الفور فناديتها وقلت :

– هاى يا أمى كم أحبك ، وإننى حقًا سعيدة بوجودك معى هنا وأرى أنك أم رائعة !

وقالت برشاقة وهى تنزع بعض الأوراق الذابلة :

– لا تكونى سخيفة فلِماذا خُلقت الأمهات إذن ؟

وتلقيت العديد من التهانى والكلمات التى تشيد بشجاعتى ومعنوياتى المرتفعة . أحببت ذلك كثيرًا وساعدنى على أن أكون أكثر شجاعة وانشراحًا وتفاؤلاً . فكلما أحبنى المعارف والأصدقاء لشجاعتى ، كلما حرصت على أن أكون عند حسن ظنهم .

وكان يسعدنى إلى حد ما أن أسمع حكايات عن أشخاص آخرين مرُّوا بنفس تجربتى ولم يكونوا فى مثل شجاعتى وبطولتى . ومن الحكايات التى كانت تحكيها لى إحدى الممرضات عن إحدى السيدات التى أجريت لها نفس الجراحة ، وظلت لمدة يومين كاملين بعد الجراحة وعينيها مغمضتين تمامًا ترفض أن تفتحهما ... ...

وأخرى زوجة لأحد الأطباء حين عادت لمنزلها بعد إجراء الجراحة مكثت به ولمدة ستة أشهر متواصلة ترفض أن تخرج أو تقابل أحدًا ... ... وكنت أتظاهر بالحزن على هؤلاء السيدات وكنت فى الواقع أشعر بالأسف لهن ولكن لمدة ثوان معدودة بعدها يغلبنى الشعور بالاعتزاز بالنفس لأننى لست كهؤلاء ويكون رد فعلى الرئيسى حين أسمع عدم استطاعتهن التكيف هو شعور نارجسى بحت ... شعور بالتفوق والتميز .

وفى المستشفى حصلت أيضا على شىء آخر غير كل هذه الأشياء .. وهو (الشفقة) بلى .. الشفقة .. ولو أننى لم أحصل على قدر كاف منها مثلما حصلت على قدر كبير من التشجيع والثناء .. ولا حتى على القدر الذى أنا فى حاجة إليه .. فالناس تعتقد أن الذين تحدث لهم أشياء فظيعة لا يحبون الشفقة ،بالتالى لا تفيدهم مشاعر الشفقة من الآخرين .. إنهم

مخطئون .. فالشفقة لها طعم لذيذ . لمن هم فى حاجة إليها .. ولقد أحببت كثيرًا ذلك القدر القليل من الشفقة الذى حصلت عليه .. وكانت شفقة من نوع نادر أيضا . نوع إيجابى يساعدك على استعادة توازنك وليس ذلك النوع المضحك من الشفقة الهزيلة .

كان أحب أنواع الشفقة ذلك النوع الذى تلقيته عبر مكالمة تليفونية جاءتنى من إحدى الصديقات التى بادرتنى قائلة :

« بتى ، يا عزيزتى .. لقد سمعت بالخبر حالاً ولا يمكن أن تتصورى مدى أسفى لذلك ولكننى أعلم أنك قوية وستتغلبين على هذه الأزمة بسرعة .. بل أنا متأكدة من ذلك تمامًا » . مثل هذا الكلام يثير فىّ الشجاعة بالفعل ، والرغبة في الظهور بمظهر الإنسانة القوية المختلفة فأقول : « إننى بخير تمامًا » وأشعر فعلاً بأننى بخير .

كنت خلال فترة وجودى بالمستشفى مشغولة تمامًا حتى عن التفكير فى حقيقة أننى الآن بدون ثدى .. وكنت حين أفكر أو أتكلم عن هذه الحقيقة ، تتقمصنى روح الفتاة المرحة الشجاعة المتفائلة وأجدنى أستطرد قائلة :

« إننى سعيدة لأننى فقدت ثديًا واحدًا بدلا من الاثنين .. كان من الممكن أن أفقد الاثنين ! علاوة على أن صدرى من البداية لم يكن من الحجم الكبير ، ولن يكون هناك فرق كبير خصوصا مع ارتداء الملابس الواسعة . فلو أننى فقدت مثلاً إحدى ذراعى أو قدمى أو حتى أنفى فسيكون ذلك واضحًا جدًّا .. ورغم كل شيء فأنا جد سعيدة إننى لازلت أحيا .. كان من الممكن أن أموت .. وعلى كل حال .. من الذى يحتاج إلى ثدى ! أى فائدة لهذا الثدى ! إن المرء لا يستطيع أن

يكتب على الآلة الكاتبة بواسطته !! أو يمشى به !! وعلاوة على ذلك فإن للمرء اثنين من هذا الثدى ، فإن كان له أية فائدة تذكر ، فيكفى واحد منه فقط للقيام بهذا الدور .. !!

إلى هذا الحد كنت أفكر وأتكلم عن هذا الأمر أثناء وجودى بالمستشفى . ولم تكن تقلقنى هذه الحقيقة على الإطلاق ..

وأذكر أيضا أنه دار بينى وبين (آرثر) محادثة واحدة حول هذا الموضوع حين سألته : ألا زلت تحبنى الآن وأنا ذات ثدى واحد ! ؟

ولقد سألته هذا السؤال بالطبع عندما خرج الجميع وكنا وحدنا تمامًا . فأجابنى :

– بالطبع يا طفلتى !! ثم قبلنى قبلة رقيقة .. وصدقته حينذاك لأنه كان يبدو صادقًا ومقنعًا .. ولأن ما قاله كان شيئًا لطيفًا أحتاج إليه .. ولقد كنت أريد أن أصدق وأن أسمع كل ما هو لطيف .. وإن لم يكن الحديث لطيفًا لا أصدقه .. بل لا أسمعه ولا أفكر فيه .. على الأقل كنت كذلك فى ذلك الوقت ..

إن الكلام عن الحب والجنس ومثل هذه الأمور وسط تأثير المخدر والعقاقير والزهور التى تحيط بى من كل جانب .. والممرضات اللاتى يشملننى برعايتهن .. هو شيء مختلف تمامًا .. شيء غريب ومثير كان يحدث فى نفس الوقت .. إذ كان (ديفيد) دائم الحضور لزيارتى ، وكان يمكث فترات طويلة معى .. كان ينتظر خروج (آرثر) ليأتى ويمكث معى أطول مدة ممكنة قبل أن يعود (آرثر) من جديد .

وفى اليوم الثالث ، لاحظ (آرثر) ذلك وعلق على ذلك قائلا :

« لا أحب أن يحوم هذا الشاب هنا .. بالله ماذا يفعل هنا ؟ .. » وكنت أجيبه :

« لا أعرف » ولكنني في الحقيقة كنت أعرف لأنه قال لى إنه يحبنى .
ولم يكن فى ذلك أية مفاجأة لى . فلقد قال لى ذلك منذ ثلاث سنوات قبل أن أتزوج (آرثر) وقالها أيضا بعد أن تزوجت من (آرثر) ولكن ليس بعد الزواج مباشرة .. ولأننى كنت أعرف شعوره نحوى فلقد كنت أتجنبه خلال فترة زواجى . ولكن فى الشهور الأخيرة حينما ساءت الأمور مع (آرثر) وأصبحت أكثر صعوبة وارتباكًا .. كنت أتجنبه بصورة أقل .

والآن هو معى فى المستشفى ولا أتجنبه بالمرة .. فى الماضى لم أكن أدرى ماذا أفعل بديڤيد وبمشاعره نحوى .. فهو لم يتزوج أبدا ، ولم يرتبط بعلاقة من أى نوع مع أحد سوى مرة واحدة ولفترة قصيرة . وكما قال لى أيضا : إنه لم يقع فى حب أحد سواى ! – كلام فارغ – هكذا كنت أعلق على حديثه هذا وكنت أقول له :

« إنك تقول لى هذا الكلام لأننى لست ملكك ، ولأننى مرتبطة بغيرك . ولكنه كان يهز رأسه بالنفى مؤكدًا أن هذا ليس صحيحًا ثم يقول لى : « فقط جربينى ! » .

ولم أكن أفكر فى أن أجربه وإن كنت فى إحدى المشاجرات مع (آرثر) ضبطت نفسى متلبسة بالتفكير فى (ديڤيد) وفى كلامه .. ولكننى منعت نفسى من الاستمرار . منعنى الشعور بالذنب من الاسترسال فى التفكير فيه .. ولكن شكوكى تجاه حقيقة مشاعر (ديڤيد) نحوى تناقصت بازدياد حاجتى لهذه المشاعر . أما الآن .. وأنا راقدة فى المستشفى لا يبدو أن لدى أية شكوك تجاهه على الإطلاق . ولم أكن أشعر بالذنب على الإطلاق أيضًا . إذ كيف أشعر بالذنب تجاه أى شىء أفعله بعد كل ما جرى لى ؟!

وفيما بعد ، ولأننى كنت أريد أن أوضح هذا لنفسى أو أقنع نفسى به تحدثت إلى صديقتى (إيريكا) فى الموضوع وقلت لها :

– ضعى نفسك مكانى ، إذا كان ما حدث لى قد حدث لك وأتيحت لك الفرصة الوحيدة وجاء حصان أبيض إلى داخل المستشفى يمتطيه أمير ، فهل تلقين به من النافذة ، لمجرد أنك متزوجة من غيره ! ؟ وأجابتنى (إيريكا) قائلة :

– أعتقد أننى لن أفعل ذلك ولن ألقى بأحد من النافذة ، خصوصًا إذا كان رجلاً يقول لى : إنه يحبنى وفى مثل هذه الظروف !!

وكنت أريد أن أبدو جميلة دائمًا وأنا فى المستشفى ، ليس فقط من أجل الآخرين ولكن من أجل نفسى أيضًا .. وكنت أقضى وقتًا طويلاً أنظر إلى وجهى فى المرآة وأضع عليه بعض المساحيق .. كنت أضع بعضًا من أحمر الخدود أو أرسم خطًا جديدًا عند حواجبى . وفى المساء أضع رولات للشعر من اللون الوردى (الروز) . وحين كانت أمى تبالغ كعادتها وتحضر لى أربعة من قمصان النوم مرة واحدة بدلا من اثنين فقط أكون قد طلبتهما ، لم أكن أغضب كما كنت أفعل من قبل ، بل طلبت منها أيضًا أشياء أخرى مثل جاكيت للسرير .

كان لونى المفضل دائمًا فى قمصان النوم هو اللون السادة البسيط ولكنى الآن أحب القمصان الجميلة المنقوشة والمشغولة ذات الألوان الزاهية التى أحضرتها أمى .. وذلك لأننى كنت أريد أن أبدو جميلة ورقيقة بشكل مختلف ..

وعلى الرغم من أننى كنت أرقد فى سريرى بملابسى الناعمة مثل (أوفيليا) الرقيقة إلا أن الحديث الذى كان يخرج من فمى كان يبدو مناقضًا تمامًا لمظهرى !!

كان حديثى ساخرًا دائمًا وجافًا أحيانًا ولم يكن ذلك فقط جزءًا من دفاعى عن نفسى بل كان أيضا نوعًا من التسلية للآخرين .. كنت أشعر بهم يقولون : « يا لها من فتاة مدهشة ، إن لديها من روح الدعابة الكثير » .

ولقد هنأنى الدكتور (سنجرمان) نفسه على شجاعتى وعلى نظافة الجرح الذى كان يسير على ما يرام – وأعتقد أنه كان يهنئ نفسه – وكان على أن أصدق أن الجرح يسير على ما يرام .. فلم أكن قد نظرت إليه .ولا مرة واحدة .. بل إننى لم أحاول إلقاء أية نظرة عليه أثناء قيامه بالتغيير عليه .. كنت أجلس دائمًا على حافة سريرى وهو يفك الأربطة وكنت أركز نظرى على أى شىء آخر داخل الحجرة .. على بقعة متسخة مثلاً على حافة النافذة . وكلما فك المزيد من الأربطة واقترب من الجرح ، أثبت نظرى أكثر وأكثر على تلك البقعة على النافذة .

وكنت أعرف لماذا أفعل ذلك ... كنت أدرك تمامًا أن نظرة واحدة قد تصعقنى تمامًا .. وتدمر كل تلك الشجاعة الزائفة .. ولم أكن أريد ذلك .

الفصل التاسع :

كانت الممرضات بالمستشفى نوعين ، نوعًا يتكلم كثيرًا ونوعًا لا يتكلم على الإطلاق وكانت الممرضات الفلبينيات من النوع الذى يتكلم قليلاً . وكان لدى اثنتان منهما وكلتاهما كانت جميلة وصغيرة . وكنت أتصور فى البداية أنهما لا يتكلمان بسبب صعوبة التحدث باللغة الإنجليزية ، ولكن اتضح بعد ذلك أنهما يفهمان الإنجليزية جيدا ويتكلمان فقط حين تكون هناك ضرورة .. لقد اختارا ببساطة ألا يتكلما طالما ليس هناك داع لذلك . لقد توصلت إلى تلك النتيجة وأنا أراقبهما وأرى الطريقة التى يؤديان بها أعمالهما – منتهى المهارة والرشاقة ، وأيضا الطريقة التى يبتسمان بها تدل على أن صمتهما ليس نوعًا من العدوانية أو عدم الود بل إن مصدر هذا الصمت تواضع حلو .. إذ يبدو أنهما يتصوران أن ليس من حقهما الكلام إذا لم يكن ذلك واجبًا ! إلى هذه الدرجة !!

وفى الليل كانت معظم الممرضات سوداوات وأكبر سنا ، ولم يكن يتحدثن كثيرًا ولم يكن عدوانيات أيضا بل ودودات فى الأغلب . وكان يبدو أن الصمت طابعهن مثل الفلبينيات على أية حال فليس الحديث ليلاً بالشىء المستحب ..

أما ممرضات النهار البيضاوات فكان حديثهن لا ينقطع ، وكانت أكثرهن كلامًا ممرضة إيطالية تدعى (سلتيمبوكا) وهو اسم أحد الأطباق الشهيرة . لقد قالت لى كل شىء عن نفسها وقالت لى : إنها تعيش بمفردها وإنها تعشق مشاهدة برامج التليفزيون ولقد كانت تلك هى الممرضة التى حكت لى قصة السيدة التى رفضت أن تفتح عينيها عقب إجراء جراحة مماثلة . وكان لديها أيضا الكثير من الحكايات التى كانت تحب أن تحكيها وأحب أنا أن أسمعها .

ولقد كانت (سلتيمبوكا) هى أول ممرضة يقع عليها بصرى بعد الجراحة .. ورغم أننى كنت تحت تأثير البنج إلا أننى شعرت بوجودها بسرعة .. لقد كانت حنونة دافئة مثل أمى وكانت تعرف بعض الأساليب الصحية البسيطة التى تجعل الذين تُجرى لهم جراحات يشعرون بشيء من التحسن . وكانت فخورة بما تعرفه .. فمثلاً بعد الجراحة – أى جراحة – يشعر المرء عادة بجفاف فى الفم مؤلم ، وليس مسموحًا بتناول الماء بعد حتى لا يتقيأه .. لذلك يرقد المرضى بشفاه متشققة ولسان جاف كأنما لعقوا كل السجاجيد الموجودة فى إيران . وهم فى أشد الحاجة لقطرة ماء ولا يحصلون عليها .. ولم تعطنى (سلتيمبوكا) ماء أو أى شيء ولكن بما لديها من خبرات كانت تبلل فمى بواسطة قطعة قطن مغموسة فى الجلسرين وكانت النتيجة رائعة .. وهى فى البداية لم تكن تتكلم كثيرًا أو ربما كنت أنا تحت تأثير البنج فلم ألحظ ذلك جيدًا ولكنها بعد يوم أو يومين أصبحت كثيرة الثرثرة .. وتحولت الغرفة فيما بيننا أنا وهى وأمى إلى قفص عصافير فى إحدى حدائق الحيوان ..

وكانت هناك أيضا ممرضة بيضاء أخرى تتكلم كثيرًا مثل (سالتيمبوكا) .

ولكنها ليست لطيفة مثلها . بل إنها كانت أشبه ما يكون بموسولينى .. فكانت تأتى إلى وتقول بصوتها الذى يشبه الرعد وهى تقترب بوجهها من وجهى :

« اليوم أريدك أن تأكلى .. أو تقول مثلاً : « اليوم أريدك أن تتمشى .. » .

وكنت أشعر بحاجة دائمة لأن أتكلم مع أحد ولم تكن أمى بجوارى طول الوقت وكانت (سالتيمبوكا) مشغولة بمهام أخرى .. « وآرثر » يأتى فى المساء فقط .. كما أنه كان لا يزال فى حالة لا تسمح له بأن يتكلم كثيرًا ولا أن يستمع كثيرًا .. وهو على أية حال لم يكن فى يوم من الأيام مستمعًا جيدًا ..

فى أول الأمر لم أتحدث إلى أحد بالتليفون ، لأننى لم أكن أدرى لمن أتحدث وماذا أقول !! ولما لم يعد هناك مستمعون دائمون فى حجرتى ، لم يكن هناك غير طريقة واحدة وهى أن أطلب المستمعين على التليفون ..

كان التليفون على المنضدة بجوار سريرى وفى متناول يدى . وحوالى ست أو سبع مرات فى اليوم كنت أجلس وأدير أحد الأرقام ثم أضطجع للوراء وأقول :

« هاى .. أتدرى أين أنا الآن ؟ .. وماذا حدث لى ؟ .. إلخ . . وبسرعة بدأ الأصدقاء يطلبوننى على التليفون هم أيضًا لدرجة ان المكالمات التليفونية أرهقتنى ولكنى مع ذلك كنت أحب أن أتلقى هذه المكالمات كثيرًا .. فقد كنت فى أشد الحاجة إليها .. فلقد أصبح الكلام بالنسبة لى هو نوع من الدواء .. كانت الأدوية الأخرى تمنع عنى الشعور بالألم الجسمانى .. وكان الكلام يمنع عنى الشعور بنوع آخر من الألم .. فطالما أن فمى يتحرك فلا ضرورة لأن أفكر أو أشعر ..

وكانت بعض المكالمات التى أتلقاها تكون مفاجأة تامة بالنسبة لى كتلك المكالمة التى جاءتنى فى وقت متأخر من ليلة السبت وكان (آرثر) قد غادر لتوه ، وكنت وحدى أحملق فى سقف الحجرة محاولة أن أستجمع قواى لأنهض إلى الحمام كى أغسل أسنانى . عندئذ دق جرس التليفون ، وجاءنى صوت خشن لرجل يقول :

— « كيف بحق الجحيم يمكن أن نعثر عليك إذا كنت قد سجلت اسمك بالمستشفى تحت اسمك الزوجى !! ؟

وسألت : « من المتحدث ؟ » .

فأجاب بخشونة : « أنا (وَالدْ) Wald

وسألت : والدْ من ؟ فرد قائلاً : « ريتشاردز والدْ » .

و« ريتشاردز والدْ » هذا هو رئيس محطة التليفزيون الأمريكية إن . بى . سى . التى أعمل بها . وقلت له :

– كيف أمكنك الاتصال بى ؟ فأجاب :

– أنا أحدثك من المنزل الآن ، ولقد فكرت فيك لتوى فقررت أن أتصل بك .

– هذا شيء لطيف منك حقيقة .

ولقد كنت أعنى ما أقول . ورغم أن المحادثة التليفونية دارت بشكل رسمى إلا أننى تأثرت بها جدًّا . إن (والدْ) هذا من النوع الرسمى جدًّا ، وأذكر حينما جئت إلى إن . بى . سى . لأول مرة أن قال لى : « قد لا تستطيعين القيام بهذا العمل » . ورغم ذلك فخلال العامين التاليين فعل كل ما يستطيع ليساعدنى على أن أخيب ظنه .

ولقد قال لى مرة وأنا في مكتبه بعد أن أصبحت مراسلة معتمدة : « هل تذكرين حينما أتيت هنا لأول مرة وكنت صبية صغيرة تتكلم من أنفها » . أجبت :

« نعم ، ولكننى لازلت أتكلم من أنفى أحيانا » . وأجابنى بابتسامة كبيرة لم تكن أبدا رسمية ..

إن ما هزنى فى مكالمته التليفونية كما قلت له بعد ذلك بشهر .. أنه لم يكن مضطرًّا لإجراء هذه المكالمة .. كان يمكن أن يفعل مثل أى رئيس عمل فى مكانه أن يرسل زهورًا عليها بطاقة بها كلمات لطيفة . لم يكن ملزمًا أبدًا أن يتصل بى ولقد قلت له أيضا فيما بعد « ألم تفكر فى مخاطر هذه المكالمة التليفونية – افرض مثلاً أننى كنت فى حالة سيئة حين اتصلت بى .. افرض أننى كنت أبكى مثلاً .. !! » .

فقال : « كنت سأطلب منك أن تتوقفى عن البكاء » .

إذن فقد عرف قصتى – هذا يعنى أن الآخرين فى إن . بى . سى . قد عرفوا أيضًا .. لا يهمنى .. فكلما عرف عدد أكبر من الناس كلما كان هناك اهتمام أكثر . ولكن فى نفس الوقت يعنى أننى قد سببت لعدد أكبر من الناس شعورًا بالكآبة والحزن .. مثل صديقتى (إيريكا) وهذا ما يقلقنى .. لقد حدثتنى (إيريكا) فيما بعد لماذا شعرت بكل هذا الاكتئاب فقالت لى : « لقد تصورت أنه مادام هذا قد حدث لك .. فإنه قد يحدث لى أيضًا » . وقالت لى : إنها لم تتوقف عن تحسس جسدها طوال فترة وجودى بالمستشفى .

ولعل هذا أيضا هو رد فعل الكثيرات من النساء .. الخوف .. الخوف أن يحدث لهن نفس الشيء . وكنت ألمح هذا الخوف على وجوههن وأشعر به فى أصواتهن المشروخة .. لم أكن أبدا ألومهن .. بل كنت أشجعهن على أن ينتبهن وكنت أقول : « إننى لا أريد أن أخيفكن ، ولكن يجب التأكد من عمل رسم للثدى على الأقل مرة فى العام وأن تفحصن أنفسكن مرة فى الشهر عقب انتهاء الدورة الشهرية » . ثم فجأة أجد نفسى وقد توقفت عن الكلام حين ألمح وجوههن وقد اصفرت من شدة الخوف .

وهناك رد فعل آخر غير الخوف كنت أتلقاه أحيانًا من بعض النساء كأن يقول لسان حال إحداهن مثلاً : « إننى آسفة لأجلك ولكن حمدًا لله أن هذا لم يحدث لى . بالطبع لم يكن يقلن لى ذلك ولكنى كنت أقرأ على وجوههن هذه العبارة . وفى أول الأمر كنت أغضب ولكن فيما بعد بدأ غضبى يخف حينما كنت أتذكر أننى كنت أشعر نفس هذا الشعور بالضبط ، وأفكر بمثل هذه الطريقة تجاه سوء الحظ الذى كان يصادف الأخريات .. والآن جاء دورى لأعيش نفس هذه الظروف .

لقد جربت من قبل كيف تكون المرأة محسودة من النساء الأخريات .. ولذا فقد كان غريبًا في بادئ الأمر أن أصادف نساءً يشعرن بالراحة لأنهن لسن في مكاني ..

وفي المستشفى أيضًا لم أكن أشعر بشيء باستثناء بعض الآلام في أول الأمر . وشيء من عدم الراحة .. وغير ذلك .. لا شيء .. كنت أعرف بالطبع ما جرى لي كنت أدرى بما حدث .. نظريًّا .. ولكنني لم أكن أشعر به وجدانيًا .. بل أكثر من ذلك أنني لم أكن أعرف أنني لا أعرف . كنت أعتقد مثلما كان يعتقد كل شخص آخر أن السبب في أنني أبدو في حالة طيبة وغير حزينة لما حدث لي ، هو شجاعتي التي تَغَنى بها الجميع .. ولم يكن هناك داع لأن أشك في هذا التفسير . إلى جانب أنه يعجبني أن أرى نفسي بهذه الصورة الرائعة التي يراها الآخرون .

لقد كان تفكيري غريبًا بكل تأكيد .. فرغم أنني كنت كثيرة التفكير فيما جرى لي ولكن يبدو أنني لم أستطع أبدًا أن أركز ذهني مباشرة في حقيقة ما حدث .. فلم يكن يعلق بذهني شيء .. حتى حينما كانت تأتيني الأخبار الطيبة .. كنت أسمعها وكأني لا أستوعب ما أسمع . مثال ذلك حينما جاءتني أخبار طيبة بعد الجراحة بثمان وأربعين ساعة تقول : إن الغدد الليمفاوية جميعها سليمة وخالية من المرض .. مما يعني أن السرطان لم ينتشر في جسدي وأن فرصتي في الحياة أكبر . لم يكن لهذه الأخبار الهامة أي رد فعل حقيقي أتذكره .. ولابد أن لهذا علاقة بالأدوية المسكنة التي كنت أتناولها .. ولكن سواء كان ذلك بسبب الأدوية أو بغيرها فإن هذه الحالة من عدم الشعور بحقيقة ما جرى هو ما كنت أريده بالضبط .. إن ما جرى قد جرى .. ولقد انتهى الآن كل شيء .. لم يكن هناك شيء أستطيع عمله حتى قبل أن يحدث ما حدث .. وإن كنت قد شعرت بالخوف في وقت ما .. فلأنه كان لديّ بعض الأمل .. فمعنى أن تخاف ، أنك لم

تيأس بعد .. أما الآن فلست خائفة من شيء .. لأن الوحش الذى كنت أخشاه قد ابتلعنى وانتهى الأمر .. وهأنذا أرقد فى جوف الوحش على سرير صغير دافئ يغلبنى النعاس ولا أشعر بالخوف .. فلأستقر فى جوفه وأنعم بالراحة والسكون وأترك القلق لغيرى ..

كما أننى لم أشعر أبدا بذلك الشعور « لماذا أنا بالذات .. !! » ولا حتى فى عز الأيام السيئة التى كنت أشعر فيها بالأسف والرثاء لنفسى .

قد يبدو هذا غريبًا حقًا بالنسبة لى حتى أننى قد ظننت أن لهذا علاقة بالحرب الفيتنامية التى تصادف أنها كانت على وشك الانتهاء حينما كنت فى المستشفى .. ومثل كل الناس فقد شاهدتها على التليفزيون .. وشاهدت تلك المناظر البشعة لهذه الحرب على مدى أسابيع وشهور وسنين قبل أن تنتهى أخيرًا .. وكنت مثل أى شخص أفكر .. لماذا هم ؟ لماذا هؤلاء الناس بالذات يعانون هذا القدر من التعاسة ولهذا المدى الطويل !! ؟ وكنت أعجب لسوء الحظ هذا الذى يجعل المرء يولد فيتناميا فى القرن العشرين ..

كنت قد جربت من قبل شعورًا « لماذا هم !! ؟ ؟ » فى كل مرة كنت أرى أو أسمع أو أقرأ عن أحد يعانى .. لمجرد أنهم تواجدوا فى المكان الخطأ فى الزمن الخطأ . وكنت أردد فى نفسى « لماذا هم !! ؟ ؟ ولكنى لم أعش أبدًا تجربة تجعلنى أقول « لماذا أنا !! ؟ ؟ » فإذا كان المرء أمريكيًا محظوظًا عنده الكثير من الامتيازات ، وفى يوم من الأيام أصابته إحدى العثرات أو الضربات القدرية .. فإنه يتألم ويئن ويبكى وقد يفكر « لماذا يحدث هذا الآن !! ؟ ؟ ولكن أن يفكر المرء بطريقة « لماذا أنا ؟ ؟ » أو « لماذا يحدث لى هذا من دون الناس جميعًا » فهذا شيء ليس صحيحًا ولا سليمًا بالمرة ..

صحيح أن فقدان ثدى هو شيء مؤلم للغاية .. ولكنى لم أشعر أبدًا أن فقدانه شيء غير عادل ..

الفصل العاشر :

الرابع عشر من أبريل . الجو ربيعي دافئ . وارتديت ملابسى ، نفس الجاكت الذى كنت أرتديه حينما جئت إلى المستشفى منذ أسبوع مضى .. « يا إلهى هل كل هذا أسبوع واحد فقط » .. كنت أشعر بتثاقل ، وبأن حذائى ثقيل أيضًا وضيق وكل ملابسى كانت تبدو لى مضحكة .

وكان أبى ينتظر داخل سيارته وقد وقف صفًا ثانيا فى مكان ممنوع أمام المستشفى .. وكان يبدو قلقًا وهو يطل برأسه من نافذة السيارة .. ولم أكن أدرى هل هو قلق على أم لأنه ركن سيارته فى الممنوع .

وساعدتنى أمى ومعها (آرثر) فى الدخول إلى السيارة وأجلسونى فى المقعد الخلفى للسيارة ، وشعرت بأننى امرأة عجوز ، وجلست أمى فى المقعد الأمامى وبدأ أبى يدير محرك السيارة فى اتجاه الشارع الثالث . ولم يتكلم أحد وأخذت أنظر من نافذة السيارة مثلما اعتدت أن أفعل وأنا عائدة من المطار فى تاكسى .. كنت أتابع الناس وهم يمشون مسرعين .. ثم شعرت بالتعب لمجرد مراقبتهم فأسندت ظهرى للخلف وحين مررنا فوق مطب شعرت بألم فاعتدلت فى جلستى وظللت هكذا طول الطريق .

كانت الشقة متربة ومهجورة كما لو كنا تركناها منذ زمن طويل .. ودفعت إحدى النوافذ محاولة أن أفتحها فجاءنى صوت أبى قائلا : « لا تفعلى ذلك » . وجرت أمى نحوى هى « وآرثر » كى يمنعانى ، تمامًا كما لو كنت سألقى بنفسى من النافذة وليس مجرد أننى أحاول أن أفتحها فقلت لهم : « ليس هناك عيب فى ذراعى الأيمن » وبدا صوتى منزعجًا أكثر مما قصدت أن يكون . ثم شغلت نفسى بالزهور وكنا قد أحضرنا معنا كل النباتات وبعض باقات الزهور التى جاءتنى على المستشفى . وكانت بعض الزهور ذابلة فأخذت أستبعدها ثم أضم معا الزهرات الناضرة الباقية .. وقال (آرثر) :

– هل لابد أن تفعلى هذا الآن !! ! فأجبته :

– نعم . وقالت أمى :

– ما رأيك فى طبق من الشوربة الساخنة ؟ فقلت :

– الساعة الآن الحادية عشرة صباحًا ، وهذا وقت مبكر بالنسبة لطبق من الشوربة . ولاحظ (آرثر) أننى أقطف إحدى الزهرات الناضرات خطأً فقال لى :

– لماذا لا تذهبين إلى السرير الآن وتستريحين قليلاً . فقلت :

– لأننى قد غادرت سرير المستشفى لتوى . ولكنى فجأة شعرت بالتعب فقلت :

– أظن أننى سأذهب إلى السرير فعلاً ! فقالت أمى بحماس :

– حسن جدًا .

كان السرير واسعًا وناعمًا .. لكم أحببت هذا السرير دائمًا .. وأحببته أكثر لأننى اشتريته عن طريق التليفون وتلك قصة .. فلقد كنت أنا « وآرثر » سنذهب إلى أوروبا ونتزوج هناك على أن ننتقل إلى نفس هذه الشقة عند عودتنا . وقبل أن نسافر إلى أوروبا تذكرت أننا لا نملك سريرًا .. عندئذ قال لى (آرثر) اذهبى واشترى سريرًا . ولم يكن هناك وقت .. ثم تذكرت محل (ميسيز) الشهير وكانت أمى تتحدث عن قسم الموبيليات فى محلات (ميسيز) ، فاتصلت بهم وأجابنى أحدهم فقلت له : « إننى فى حيرة إذ أننى سأتزوج وليس لدى سرير وليس لدى وقت للذهاب بنفسى وانتقاء السرير الملائم . فسألنى « أى نوع من الأسرة تريدين » ؟ فقلت « الأكبر والأجود » فقال « اتركى هذا الأمر لى » .

وحينما عدنا من أوروبا كان السرير جاهزًا ولقد كان بالفعل أحسن

وأكبر سرير رأيته وكنت أشاكس (آرثر) أحيانًا وأقول له : « إذا انفصلنا فهل يمكنني الاحتفاظ بالسرير ؟ فكان يقول مشاكسا : « بالطبع لا » .

واستغرقت في نوم عميق .. وحين استيقظت كان أبي وأمي قد ذهبا .. وجاء (آرثر) وجلس على حافة السرير ونظر إلى .. وشعرت بالغربة وأستطيع أن أقول : إنه أيضًا شعر بذلك .. ومكثنا فترة لا نجد ما نقوله .

وحضرت صديقتي (إيريكا) للعشاء وحينما خرجت تشاجرت أنا « وآرثر » وإن كنت لا أذكر الآن سبب المشاجرة . ولكننا تبادلنا الحب في تلك الليلة على أية حال .. ولم أكن متأكدة من إمكانية حدوث ذلك وأنا في تلك الحالة التي لا تخلو من بعض الألم في موضع الجرح وتحت الذراع .. ولكنه حدث على أية حال .. فلقد كان هو في حاجة إلى ذلك .. وأنا تحملته . ولكن كان هناك شيء لم أحتمله على الإطلاق .. لم أحتمل أن يلمس ثديي الوحيد .. مسكين (آرثر) .. ليست غلطته .. ربما حاول أن يلمسني ليكون لطيفًا .. أعرف ذلك .. أو ربما هو أراد ذلك .. ولكنه حين فعل وجدتني أصرخ فيه .. ولم أحتمل .. فحين شعرت بيده تلمس هذا الثدي تذكرت على الفور توأمه الآخر الذي مات .. وبكيت .. وعقب ذلك سحبت نفسي إلى الحمام وابتلعت أحد أقراص الفاليوم كي أنام تلك الليلة .

وفي اليوم التالي ، كنت في حالة متدنية للغاية .. ياله من تغيير سريع فبعد أن أعددت لنفسي فنجانًا من القهوة .. وسلقت بيضة أكلتها وشربت القهوة .. لا أدري ما الذي انتابني .. شعرت أنني لست على ما يرام .. هل هو صوت الآلة الكاتبة الرتيب في الحجرة المجاورة ! هل هو الإفطار الذي تناولته ! أو ربما هي الوحدة .. وجودي وحدي دون ممرضات يتحركن حولي ، ولا ضوضاء المستشفى المعتادة ، ولا تهاني ولا تحيات لشجاعتك ..

إننى فى البيت الآن وحدى .. أغسل فنجان قهوتى بعد أن شربتها كان المفروض أن أكون على ما يرام ، ولكننى لست كذلك .. ومشيت إلى حجرة المعيشة وجلست فى وسط الكنبة الطويلة وبدأت أفكر .. أفكر فى كل شىء مر بى منذ البداية . زياراتى الأولى للدكتور (سميث) .. والماموجرام .. وزياراتى الأولى لدكتور « سنجرمان » وحاولت أن أتذكر ما قاله لى وقتها .. وفكرت فى التقرير الذى ورد عن حالة غددى الليمفاوية .. واستعدت هذا كله مرة ثانية .. وحاولت أن أحدد فى البداية لماذا حدث ما حدث !! ولمّا لم أستطع ، حاولت أن أحدد ماذا يمكن أن يحدث ! وكلما فكرت أكثر كلما أدركت أكثر أننى لا أعرف .. كنت أعرف أننى قد عدت لحياتى ولكننى مع ذلك لم أكن أعرف ماذا ينتظرنى فى المستقبل !!

عدت إلى حجرة النوم وجلست على حافة السرير وأدرت رقم تليفون (سنجرمان) ورد على التليفون بنفسه . وأردت أن أكون محددة فالأطباء أناس مشغولون وقلت له :

– أريد أن أسألك سؤالاً ربما تكون قد أجبتنى عليه من قبل ولكننى مع ذلك لم أعرف الإجابة عليه حتى الآن وأود أن أعرف ..

– ما هو السؤال

– أظن أننى أريد أن أعرف – إذا كنت أنا بخير الآن ، وأن غددى الليمفاوية وجُدَت خالية من المرض بما يعنى أن فرص الشفاء جيدة فيهمنى أن أعرف إلى أى مدى هى جيدة ؟ أقصد أن أقول ما هى فرصتى المتاحة فى الحياة ؟ ورد « سنجرمان » قائلاً :

– حسن .. فرصتك فى الحياة جيدة جداً !!

– كيف ؟ ! وأدرك ما أريد فأجاب :

– فرصتك فى الحياة ما بين ٨٠ إلى ٩٠ بالمائة .

– شكراً لك يادكتور (سنجرمان) .

ووضعت السماعة وكنت لا أزال جالسة على حافة السرير .

وطرحت ٨٠ من ١٠٠ وكان الناتج ٢٠ فإذا كانت فرصة الحياة ٨٠ بالمائة إذن فإن فرصة الموت هى ٢٠ بالمائة .

قد يكون من المفروض أن أكون راضية وسعيدة لأن فرصتى فى الحياة أكبر من ٨٠ وحتى ٩٠ بالمائة .. ولكنى لم أشعر بالرضا ولا الامتنان .. ويبدو أننى قد أخطأتَ فهم كل شىء فلقد ظننت أن خلو الخلايا الليمفاوية من المرض يعنى أننى فى مأمن كبقية الناس . لقد ظننت أن فرصتى فى الحياة هى ٩٦ بالمائة مثل أى شخص عادى .. فهناك دائمًا احتمال الموت فى حادث سيارة مثلاً أو فى كارثة طبيعية .. فإذا كان الشخص صغير السن وصحيح البنية فلديه فرصة أن يعيش بنسبة ٩٦ بالمائة تاركًا ٤ بالمائة للحوادث والكوارث الطبيعية .. ولكننى لم أعُد واحدة من هؤلاء الناس .. فأنا لم أعد صحيحة البنية . لقد زادت فرص الموت بالنسبة لى من ٤ بالمائة المتاحة للأشخاص العاديين إلى ٢٠ بالمائة .. أى خمس مرات أكثر من الشخص العادى .. وشعرت بيداى باردتين فوضعتهما على رقبتى التى كانت دافئة .

ثم رفعت سماعة التليفون من جديد وطلبت دكتور (سميث) ورد على التليفون على الفور .. وكدت أن أقول له آسفة للازعاج ثم قررت ألا أعتذر عن شىء وقلت :

– هل لديك دقيقة ؟

– نعم

– حسن ، لقد تحدثت من فورى مع الدكتور (سنجرمان) ولقد قال شيئًا أزعجنى إلى حد ما .. إذ قال : إن هناك احتمالاً بنسبة ٢٠ بالمائة أن أموت . وأنا أعرف أن هذه ليست أخبارًا جديدة .. وإننى يجب أن أكون شاكرة لهذه النتيجة ولكن ما حدث هو أننى لم أدرك هذه الحقيقة من قبل ..

وأعرف أن هذا الكلام متأخر ولا يهم الآن .. ولكنى أود أن أعرف منك على وجه اليقين هل كانت فرصتى فى الحياة ستكون أفضل من ذلك لو أنك استأصلت ذلك الشيء (الورم) حينما اكتشفته لأول مرة ؟ ؟ ؟ أقصد أن أقول لماذا لم تستأصل هذا الورم منذ عام مضى ؟ ؟ ؟

وحاولت بصعوبة أن أتحكم فى أعصابى حتى لا يرتفع صوتى أكثر من ذلك . واستطردت قائلة .

– لقد كان الورم سرطانيا حينئذ .. أليس كذلك !! ؟ ؟ كيف يمكن أن تتركنى أتجول هنا وهناك لمدة عام وفى صدرى هذا السرطان .

وسمعت صوت ممرضة فى الخط تقول له « دكتور (فرانك) يطلبك » فأجابها « قولى له سأتصل به فيما بعد » ثم وجه كلامه لى قائلا :

– اسمعى ياعزيزتى .. ربما كان المرض موجودًا منذ عام أو عامين .. وحين اكتشفنا وجوده لم نكن نعرف أن هذا ورم سرطانى .. ثم إن هذا الورم .... .. »

وتوقفت تمامًا عن الإصغاء له وشعرت بذلك الشعور الذى أحسست به فى مكتب (سنجرمان) حينما أخبرنى . بالحقيقة . ووضعت السماعة وفى رأسى تدور جملتان تكبران وتكبران مثل البالون الكبير . كانت إحداهما : إذا كان الورم سرطانيًّا عند اكتشافه منذ عام مضى فكان لابد من استئصاله حينئذ .

والأخرى : إذا لم يكن الورم سرطانيًّا عند اكتشافه منذ عام مضى فكان لابد من استئصاله حينئذ أيضًا ..

كانت يداى باردتين ولكن وجهى كان ساخنًا .. وكنت لازلت أسمع صوت الآلة الكاتبة فى الحجرة المجاورة .

ثم .. لأول مرة منذ إجراء العملية انخرطت فى بكاء شديد .

الفصل الحادى عشر :

كانت هناك قاعدة فى بيتنا تقول : « لا تزعج دادى أثناء عمله » وقررت أن أكسر هذه القاعدة .. ودخلت إلى الحجرة التى يعمل فيها (آرثر) وكان منكبًّا على الآلة الكاتبة ، ونظر إلى مستغربًا ثم توقف عن الكتابة فساد المنزل سكون مفاجئ .. وانتظر (آرثر) أن أقول شيئًا ولكنى لم أستطع الكلام مباشرة . ثم أخيرًا وبصوت منخفض قلت :

– لقد شعرت فجأة بالقلق الشديد والخوف من الموت .. أعرف أن هذا شيء سخيف ولكنى أرغب فى السير قليلاً خارج المنزل .. فهل يمكنك أن تأتى معى .. ؟

ونهض (آرثر) ووضع ذراعه حولى وقال :

– نعم .. بالتأكيد !

وذهبت إلى حجرة نومى لأرتدى ملابسى وجذبت جوربًا وسويتر ، ولكن عندما حاولت ارتداء السويتر لم يكن الأمر سهلاً .. فلقد كانت الضمادات لا تزال فوق صدرى ولم أكن حتى ذلك الحين بقادرة أن أرفع ذراعى .. ولم يكن الأمر يبدو مزعجًا تمامًا بالنسبة لى ، ولكن حينما حاولت أن أرتدى السويتر ولم أستطع أن أفعل ذلك ، حزنت كثيرًا لدرجة البكاء .. وزاد البكاء الأمر صعوبة فأصبح متعذرًا على أن أرتديه .

وبعد محاولات استمرت لأكثر من دقيقة دون جدوى ، ألقيت بالسويتر بعيدًا وارتديت قميصًا ولكننى شعرت بالبرد .. وهكذا دائمًا كنت أشعر بالبرد فقد كنت أعانى من أنيميا بسبب الدم الذى فقدته أثناء العملية .. ولم تعد المستشفيات تنقل دمًا لمرضى العمليات كما كانت تفعل فى الماضى .. لأن كثيرًا من الناس تنتقل إليهم عدوى التهاب الكبد الوبائى والصفراء نتيجة لنقل الدم . وبدلاً من ذلك يعطون المريض أقراص حديد صغيرة

خضراء اللون صحيح أنها تفيد ، ولكنها تأخذ وقتًا طويلاً حتى تحدث التأثير المطلوب .. إذ يلزم شهرين على الأقل - كما قيل لى - قبل أن تعود عدد كريات الدم الحمراء إلى ما كانت عليه .. ولهذا السبب أشعر كثيرًا بالضعف وبالبرد .

وأخيرًا وجدت جاكتا واسعا يخفى الصدر وارتديته ثم نظارات شمسية غامقة كى أبكى خلفها بحرية ، ولقد كان هذا هو ما حدث بالضبط بمجرد خروجى إلى الشارع . كانت الحركة فى الشارع طبيعية وعادية .. ولقد أحزننى ذلك كثيرًا .. بعد كل ما جرى لى يظل كل شىء بالخارج كما هو بالضبط .. نفس الصف من المحلات فى نهاية المبنى نفس النباتات التى يفرشها محل النباتات على جانبى الطريق .. سوق الفاكهة فى مكانه حركة الناس فى الشارع كما هى .. شمس وسط النهار الجميلة مازالت تشرق .. لم يتغير شىء إلا أنا !!

كان فمى جافًا وشفتاى مشققة .. كنت أشعر أننى ميتة .. وأننى شبح خرج لتوه من القبر .. ومن خلال دموعى واللون الأزرق الغامق لنظارتى الشمسية لمحت كلبًا صغيرًا منزويًا .. من ذلك النوع الذى تخشى أن تطأه بقدمك دون أن تشعر .. فأخذت أحملق فيه ونحن ننتظر الضوء الأخضر لنعبر الطريق إلى الجانب الآخر .

ويبدو أننى أخذت أحملق فى ذلك الكلب لأننى شعرت بطريقة ما أننى ضعيفة مثله وهشة مثله .. وأن أحدًا قد يدوسنى بقدمه من شدة ضعفى ... ..

وحينما عبرنا الطريق إلى الجانب الآخر حيث تقاطع الشارع الثانى مع الشارع رقم ٤٩ قرب شقتى القديمة التى عشت فيها بمفردى فترة من الزمن ثم مع (آرثر) بعد ذلك .. عندئذ بكيت من جديد ...

مسكين (آرثر) .. إننى لم أكتف بأن آخذه من عمله ، ولكنى أيضًا أجبره على أن يمشى فى الطريق مع شبح باكى ... ونحن فى طريقنا إلى النهر الشرقى نظرت إليه .. كان وجهه مربدا وكانت تبدو عليه الشيخوخة ... .

ومرة أخرى ، لم أستطع أن أمنع نفسى من البكاء .. كما لم أستطع أيضًا أن أمنع نفسى من التفكير خصوصًا فى الأرقام .. رقم ٨٠ و ٩٠ بالمائة .. ثم بدأت أفكر فى دكتور (سميث) ودكتور (ألبى) .. وكنا نسير بخطى أسرع الآن .. وقلت (لآرثر) .. والحقيقة أننى كنت أكلم نفسى :

— « قد أستطيع أن أتقبل ما حدث لى .. ولكننى أبدًا لا أستطيع أن أقبل فكرة أنهم قد ارتكبوا خطأ معى . لا أستطيع أن أتصور ، أننى أعيش فى نيويورك وأننى كصحفية قد عملت موضوعًا شاملاً عن سرطان الثدى .. وأننى محاطة بأحسن الأطباء ، قمة الطب .. ورغم كل هذا أظل أتجول هنا وهناك وفى صدرى ورم سرطانى ... . هذا ما لا أستطيع أن أتصوره أو أقبله » ..

وأومأ (آرثر) برأسه وهم أن يقول شيئًا ولكنه أعاد التفكير فيه فيما يبدو .. معه حق فأنا لم أكن أريد أن أسمع .. كنت أريد فقط أن أتكلم .. أن أغضب .. أن أتقيأ الكلمات وهذا ما ظللت أفعله طوال الطريق .. وأمام مبنى الأمم المتحدة قال آرثر برفق :

— « ربما من الأفضل أن نعود الآن إلى البيت » .. فأجبته « بنعم » وأنا أدرك إلى أى مدى يريدنى أن أكف عن هذا الكلام .. ولم نقل شيئًا طوال طريق العودة ... .. وتساءلت بينى وبين نفسى « ترى ! كم سيتحمل (آرثر) مثل هذا الحديث !! »

إننى لا أريد أن أفعل به هذا ! ولكن يجب أن أفعل هذا لشخص ما

وليس هناك غيره .. مسكين (آرثر) ... مسكينة (بتى) كيف تحولت إلى شبح !! ؟

وحينما عدنا إلى الشقة خلعت ملابسى وألقيت بها على السرير ، ثم ارتديت روبا وعدت إلى التليفون . وسألنى (آرثر) : « ماذا تفعلين ؟ » فقلت له : « أشعر أننى يجب أن أحادث شخصا يفهم فى هذه الأمور .. سأطلب (لارى) . ولارى هذا هو « لورانس كون » .. وهو طبيب وصديق وشاب لطيف للغاية .. وكان قد أشعرنا فى وقت سابق أنه على استعداد للمساعدة وأننى سأجده دائمًا رهن إشارتى .. وهأنذا قد أشرت إليه وها هو يحضر فى مساء ذلك اليوم .. وعندما حضر كنت قد انتهيت من البكاء . ولكن معدتى كانت مضطربة .

وسأل (آرثر) لارى إن كان يريد شرابًا .. وطلب مشروب الكوكا .. وجلس على الكنبة وجلست بجواره وقلت وأنا أحاول أن أبدو طبيعية ومتماسكة :

– « لارى .. أريد أن أتكلم معك عن الأرقام .. وحكيت له قصة الـ ٨٠٪ . وبدأ يتكلم وكان صوته خفيضًا هادئًا عطوفًا .. نفس الصوت الذى يستخدمه الأطباء حين يتحدثون إلى المجانين من المرضى وقال :

– أعتقد أنه فى حالة الاكتشاف المبكر فإن النسبة تكون ٨٥٪ .

وصحت فجأة دون أن أنتبه :

– « لارى – لقد كان عندى الورم لمدة عام كامل .. إذن لم يكن حالة اكتشاف مبكر .. لقد . وقاطعنى دون أن يرفع صوته :

– علميًا .. فإن حالتك هى حالة اكتشاف مبكر .. لأن المرض الخبيث – ولم يقل السرطان – لم ينتشر فى الخلايا الليمفاوية . الاكتشاف

المبكر يعنى اكتشافه قبل أن ينتشر حتى وإن لم يكن قد اكتشف مبكرًا بالفعل . وأضاف قائلاً :

« هناك أيضا احتمال أن الورم لم يكن خبيثًا فى البداية .. فمن الأرجح أن حالتك هى حالة اكتشاف مبكر بأكثر مما تظنين » وقلت وأنا أحاول أن أستجمع المعلومات :

— « ولكن يا لارى ، إذا لم يكن الورم خبيثًا فإن استئصاله يعنى أنه كان هناك احتمال لأن يصير خبيثًا ، أليس كذلك ؟ » وارتفع صوتى من جديد « وإذا كان الورم خبيثًا لمدة عام مضى فقد كان من الأفضل لو أنهم استئصلوه فورًا .. قد أكون محظوظة فى أن المرض لم ينتشر ولكن كان هناك احتمال أن ينتشر خلال ذلك العام ويقتلنى .. أليس كذلك ؟ أليس كذلك !

كان (لارى) منكسًا رأسه وباسطًا يديه ثم قال بصوت أكثر انخفاضا عن ذى قبل :

— بالطبع ، كان من الأفضل لو أنهم استأصلوا هذا الورم منذ عام مضى .. لقد ارتكبوا خطأ بالفعل . وتساءلت بغباء :

— لماذا ... . لماذا أخطأوا ؟

ونظر إلى وقال :

— لأن الأطباء بشر يرتكبون أخطاء فى بعض الأحيان .

وكانت هذه هى الإجابة الصحيحة .. بل الإجابة الوحيدة .. ولكنها لم تكن أبدًا الإجابة التى أردت سماعها .. ونكست رأسى وأمسكت بمعدتى إذ شعرت بألم حاد فيها عندئذ .

لم أكن أريد أن أعرف أن الأطباء يرتكبون أخطاء أيضًا .. إن الأطباء

مثل الآباء .. كنت دائمًا أثق بهم .. وكنت على وجه الخصوص لا أريد أن أعرف أنهم ارتكبوا خطأً تجاهى . لا أحتمل معرفة ذلك رغم أنى أعرف أن هذا يحدث أحيانًا ، وأعرف أن هناك أخطاء أسوأ من ذلك تحدث وأسمع عن الكثير من القضايا التى يطالب أصحابها بتعويضات باهظة عن أخطاء ارتكبها الأطباء فى حقهم .. ولكنى لا أحتمل أن يحدث ذلك لى شخصيًّا .

وقلت للارى رغم أن صوتى كان قد ضاع منى تقريبًا ولكننى لم أتوقف عن الكلام ، قلت له :

— قل لى المزيد عن نسبة الـ ٨٥٪ هذه .. من أين جاء هذا الرقم ؟ أعرف أنها مجرد أرقام ولكن لها دلالات ..

وشعرت بيداى باردتين مرة ثانية وقبضتهما ثم بسطهما ووضعتهما على وجهى .. ثم قبضتهما مرة ثانية وتابعت حديثى :

— ... . أعرف أناسا مرضى باللوكيميا ولديهم أرقام أسوأ من ذلك بكثير . أعرف أيضًا أنه إذا كانت النسبة أكثر من ٥٠٪ فهى شىء لا بأس به ولكن ...

وفجأة صاح (آرثر) قائلاً : « كفى ، لم أعد أحتمل أكثر من ذلك » . لقد كان جالسًا هناك طول الوقت على الكرسى المقابل لنا يدخن فى صمت ثم نهض واقفًا وقال : « لدى عمل لابد أن أنجزه » وبدأ يتجه إلى حجرة المكتب .

وصحت أناديه « آرثر » فاستدار فقلت « من فضلك لا تذهب ، امكث معنا .. أعدك أن أتوقف عن هذا الكلام .. » فقال :

— « حقيقة لم أعد أحتمل هذا » ثم مشى متجهًا إلى حجرة المكتب . ونظرت إلى (لارى) وقلت : « لا حيلة لى فى ذلك » . فقال : « أعرف ، لا بأس » .

ثم أخذ يشرح لى معنى هذه النسبة قائلاً :

- « إنها تعنى أن هناك فرصة طيبة جدا قدرها ٨٥٪ ألا يحدث لك هذا مرة ثانية .. وبعد عامين أو ثلاثة .. إذا لم يظهر المرض من جديد فإن الفرصة تكون أفضل بكثير بمعنى أنك تكونين فى أمان » .

- هل تقصد أن تقول إنه إذا كانت هناك فرصة لظهور المرض من جديد فإن ذلك يحدث بسرعة ؟

- عمومًا نعم ، خلال عامين أو نحو ذلك .

- أوه لارى .. شكرًا لك .

- لا بأس . ونهض واقفا ثم خرج .

وشعرت بألم شديد مكان الجرح وكذلك ألم فى ذراعى . ومع أن الألم الذى أشعر به الآن أقل بكثير من ذلك الألم الذى كان بالمستشفى .. ولكن عجبًا فلم يكن الألم يزعجنى هناك أبدًا .. بل لم يكن ليزعجنى شىء هناك على الإطلاق .. لقد كنت هناك كالنائمة ... ولم أعد نائمة بعد .. بل أننى الآن فى منتهى اليقظة .

ولم ينته يوم الموت هذا ... فبعد أن خرج (لارى) حاولت أن أقرأ فلم أستطع وحاولت أن أنام ولم أستطع أيضًا .. حتى جاء موعد العشاء واستطعت أن أقوم به ... رغم أننى طباخة سيئة .. ولا أهوى الطبخ إطلاقا وأثناء إعداد الصلصة أخذت أبكى من جديد .. وكان صوت الآلة الكاتبة يرن فى حجرة (آرثر) ولم أجرؤ أن أدخل .. وحتى إذا جرؤت فماذا أقول .. ! لقد قلت كل شىء .. والآن على أن أحتمل .. ولكن تلك كانت المشكلة . فماذا تفعل إذا أنت لم تستطع أن تحتمل !! بعض الأشخاص وبعض النساء سألونى فيما بعد .. كيف استطعت احتمال ذلك . فكانت إجابتى يجب أن أحتمل .. وإلا فما عساى أن أفعل ؟ ما هو البديل ؟ ألا أحتمل !! معنى

هذا ! أن أتمزق .. أو أقتل نفسى .. ومن هو المجنون الذى يفعل ذلك ... !! ؟ ؟

لقد أدركت هذا فقط وأنا أعد الصلصة .. ولكننى أدركت أيضًا أننى لست على ما يرام . ولابد أن يكون هناك أسلوب للاحتمال لا أعلمه .. وعلمت أننى لا أستطيع العودة إلى سابق عهدى وأننى لا يمكن أن أستمر فى مضايقة الآخرين بمشكلتى حتى وإن أبدوا تعاطفًا معى وكذلك (آرثر) .

لقد كنت غاضبة من (آرثر) أعلم أننى لا يجب أن أغضب منه ولكننى لم أستطع أن أكون غير ذلك .. أعرف أن ما حدث كان فظيعًا بالنسبة له . كانت لدى فكرة أن أقرباء المرضى أو الذين يتهدد حياتهم الموت لهم جحيمهم الخاص ... وأنها قد تكون أشد قسوة ووحشة من جحيم الشخص المريض نفسه أو المعرض للموت ...

لقد كنت على وعى تام بأن (آرثر) يتعذب وأنه يشارك فى مخاوف مرضى كلها دون أن يشارك فى المزايا التى حصلت عليها بسبب مرضى .. لقد كان يعانى .. وكان خائفًا .. ولكن أحدًا لم يشفق عليه أو يتعاطف معه أو يزوره أو يبعث له بالهدايا .. أو حتى يثنى على شجاعته وقوة احتماله .. أو أن يجعلوا منه نجمًا مثلما فعلوا معى .. إن النجومية فى سرير المستشفى كانت تعويضًا بسيطًا لإصابتى بسرطان الثدى .. لأنها كانت أفضل من لا شىء فعلى الأقل أعطتنى الحق فى أن أكون مزاجية إلى حد ما .. ولكن (آرثر) لم يأخذ حتى ذلك . على العكس كان المطلوب منه أن يكون كاملاً ... حتى أنا توقعت منه أن يكون كاملاً وكنت ثائرة جدًا حينما لم أجده كذلك .. وثرت على نفسى لأننى ثرت عليه .. وكان هذا كله ضد إرادتى ... كانت تتملكنى مشاعر مختلفة من الغضب والشفقة على النفس والخوف وضعف الإرادة .. وكرهت نفسى من أجل تلك المشاعر التى تتملكنى .. لقد كنت

راضية عن نفسى أكثر حينما كنت بالمستشفى .. لقد أحببت تلك الإنسانة التى كانوا يتحدثون عن شجاعتها وروحها العالية .. وذلك الجمال النائم الذى أحبه الجميع .. تُرى من يستطيع أن يحبها الآن ! حتى زوجها قد انقلب ضدها .. وإلى أين تذهب « بتى الطيبة » . وقفت أمام الحوض وأنا أفكر فيها .. كما فكرت أيضًا فى « بتى » الأخرى – أعنى « بتى فورد » زوجة الرئيس الأمريكى وهى تلوح بذراعها المصابة من شرفة البيت الأبيض .. كما فكرت أيضًا فى تلك السيدات الشهيرات الطيبات من ذوات الشجاعة أمثال « هابى روكفللر » وهى تقول لأحد الصحفيين وهو يسألها عن شعورها عقب الجراحة التى أجريت لها .. وهى تجيبه بسعادة غامرة « أشعر أننى فى أحسن حال » ..

كل هؤلاء السيدات الشهيرات المبتسمات دائمًا يقررن جميعًا أنهن فى أحسن حال وتقول إحداهن « إنها أسعد حالاً من أى وقت مضى » . إذن ما خطبى أنا ! ؟

إننى على أية حال واحدة من المحظوظات . فليس هناك أثر للمرض فى خلاياى الليمفاوية وفرصتى فى النجاة من الموت لا بأس بها .. إذن لماذا أبدو بهذا السوء مرة واحدة ؟

لكم تمنيت أن أقتل (سميث) و (ألبى) أيضا أقتلهما معًا .. وتذكرت ما قاله (سميث) عن الطب البدائى .. ماذا لو كنت أنا زوجتك ؟ هل كنت ستترك زوجتك تتجول لمدة عام وفى صدرها ورم سرطانى ؟ هل كنت تفعل ذلك ؟ وصرخت فيه بأعلى صوتى ولكن للأسف كان رأسى هو المكان الوحيد الذى صرخت فيه بأعلى صوتى فى وجه (سميث) لأننى لم أره ثانية أبدًا كما لم أر (ألبى) أيضًا .

وبعد ذلك بعدة شهور كنت أتحدث مع صديقة لى زوجة لطبيب عن فكرة أن يعالج الطبيب مريضته تمامًا مثلما يعالج زوجته فكان ردها :

— إن هذا تمامًا ما يفعله زوجى مع كل مرضاه .

وتعجبت .. حتى مع حسن النية هل يستطيع الطبيب أو أى شخص آخر أن يفعل ذلك ! وهل من العدل أن نتوقع ذلك ! هل يملك أى شخص أن يعطى هذا القدر من العناية والاهتمام لشخص لا يعرفه . بل هل .. نوع المعالجة التى يمنحها الطبيب لزوجته تكون بالضرورة أحسن أنواع العلاج ؟ ! ربما يكون الطبيب متحفظًا جدًا فى علاج زوجته أو طفله وهل ينبع التشخيص الطبى السليم من الحب ؟ ألا يرسل الأطباء أحيانا زوجاتهم وأولادهم إلى أطباء آخرين للعلاج ! ؟

آه .. أطباء آخرين .. تلك هى المسألة .. إننى لا أستطيع أن ألوم (سميث) أو (ألبى) لعدم نصحهم لى باستئصال الورم . حين اكتشافه ، إذ كان فى صميم تقديرهم أن الورم لم يكن سرطانيا . لقد قال لى (سميث) على التليفون : « لا نستطيع أن نزيل كل ورم نكتشفه » . إذن قد لا أستطيع أن ألومهما ، ولكننى أدرك الآن ما كان يمكن أن يفعلاه أو حتى يقترحاه بل وحتى قد يصران عليه لو أننى كنت الزوجة أو الابنة . فطالما أن هناك شكًا أيًا كان فى نوع الورم ، إذن كان عليهما أن يرسلانى إلى طبيب آخر لأخذ رأيه . وهذه الفكرة ليست جديدة ولا هى بدعة بل إن أمى نفسها كانت تقول لى دائمًا « خذى رأيًا آخر » .. ومرة أخرى أجدك عَلى حق يا أمى ... ... !

كانت الآلة الطابعة فى الحجرة المجاورة تعمل بأقصى سرعة .. ونهضت إلى الحمام وابتلعت قرصًا آخر من الفاليوم وقلت لنفسى : إننى محظوظة على أية حال .. حتى وإن كان المرض يرقد فى جسدى منذ عام .. فإنه ظل فى مكان واحد على الأقل ولم ينتشر كان من الممكن أن ينتشر وأن يقتلنى ... ولماذا كلمة (كان) هذه ، إن الاحتمال لا يزال واردًا على أية حال ... ..

الفصل الثانى عشر :

وهكذا كان خروجى من المستشفى فى يوم الأحد ، وكان يوم الاثنين هو يوم الموت والكآبة بالنسبة لى – وكان الثلاثاء أقل يأسا ولكن أكثر غضبًا . وفى يوم الأربعاء قررت الذهاب إلى حفل كوكتيل ...

كان الحفل فى منزل (جوانا سيمون) . وكنت قد طلبتها تليفونيا ذات مرة قبل الجراحة ولم تكن فى المنزل إذ كانت بالمستشفى تعالج من كسر فى الحوض .. وهى لم تتم شفاءها بعد ، ومع ذلك أرادت أن تقيم ذلك الحفل تعويضًا للأيام المملة التى قضتها بالمستشفى . وكنت أشعر برغبة قوية فى الذهاب إلى الحفل .. فبعد ثلاثة أيام من الشعور التام بالعفن وبعد النقص الهائل فى عدد الزائرين وعدد باقات الزهور التى كنت أتلقاها .. ومع زوج فقد صبره تمامًا ، كنت فى غاية الشوق إلى الأيام الخوالى – أيامى بالمستشفى ولأننى لم أكن بالطبع أستطيع استعادة هذا الجو من جديد فقد شعرت أن حضورى الحفل قد يساعدنى على الأقل فى استعادة حالتى الطيبة التى كنت أبدو بها فى المستشفى ولو لساعات معدودة ... .

وبالفعل ... استقبلتنى صيحات الدهشة وعبارات الإعجاب ... واو ... أوه ! لقد تركت المستشفى من ثلاثة أيام فقط وهاهى تحضر حفل كوكتيل .. ما أشجعها يالها من امرأة ... إن هذا بالضبط ما كنت أريد أن أسمعه بل كنت فى أشد الحاجة لسماعه . هناك أيضا شىء آخر .. لقد أردت أن أعرف بالضبط هل سأستطيع إخفاء آثار التدمير الذى حدث .. وأن أبدو حسنة المظهر من جديد .. !! !! !!

لقد استغرقت حوالى ساعة ونصف كى أستعد للحفل .. وضاع ثلث هذا الوقت فى البحث عن البلوزة المناسبة وأخيرًا وجدتها .. بلوزة واسعة بترجة كافية ، ولم يكن هناك فى الواقع عدد كبير أنتقى من بينه ، إذ أن

معظم بلوزاتى ضيقة أيام كان صدرى جميلاً وكنت أحب أن أبرزه – لا شىء من هذا سيحدث بعد الآن – آه – لا داعى للنظر إلى الخلف على أية حال ولا داعى للنظر للأمام أيضًا ! ها – ها – ها – يالها من نكتة !!

وكنت قد أعددت لهذه المناسبة صدرًا صناعيًّا .. يالى من فتاة ذكية .. وسأصف لكن كيف فعلت ذلك : ارتديت أوسع سوتيان عندى وشبكته على أقصى اتساع ممكن حتى يمكن أن يحيط بالأربطة كلها ، ثم حشوته أولا بزوج من جوارب التنس الخاصة « بآرثر » ، فبدأ صدرى ضخمًا جدًّا فاستبدلتهما بزوج من الشرابات النسائية ، فبدا صغيرا جدًّا فأضفت اثنين آخرين من نفس هذه الشرابات ، فكانت النتيجة مدهشة عندئذ ذهبت إلى الحفل .

كنت أبدو مثيرة ... لا بأس ، لا بأس ، وكنت أيضا أشعر بضعف فكنت أبدو مترنحة بعض الشىء لذلك ظن الحاضرون أننى قادمة لتوى من حفل كوكتيل آخر ، وأننى ربما أكون قد أسرفت فى الشراب ... ولكننى مع ذلك كنت أتكلم كثيرًا وأضحك كثيرًا ببلاهة فى بعض الأحيان .. وكنت أردد الكثير من كلمات الترحيب لكل من قابلنى .. ورددت الكثير من الكلمات أمثال : « أنا فى خير حال » إجابة لكل من كان يسألنى عن حالى ، ولكننى بينى وبين نفسى كنت أتساءل من منهم يعرف ، بل كم منهم يعرف حقيقة الأمر ويتظاهر بأنه لا يدرى .

ولكن ... من المؤكد أن الذين سألونى أين كنت ، وأنهم لم يرونى طوال الفترة الأخيرة .. هؤلاء بالتأكيد لا يعلمون قصتى لأنهم لو كانوا يعلمون ما كانوا سألونى هكذا بكل بساطة . وكانت إجابتى لهم أننى كنت مشغولة فى عمل التحقيق التلفزيونى الخاص بمدمنى الخمور من شباب المراهقين ..

وبينما أنا أتحدث وأستمع لنفسى تنبهت فجأة إلى أن التى تتحدث هى أنا ، إنها الأنا القديمة ، « بتى » القديمة ذاتها هى التى تتكلم وليست فقط « بتى » مريضة المستشفى الشجاعة ، إنها أنا الأصلية ... هل هذا بسبب أن الذين تحدثوا إلى لم يعرفوا حكايتى ولم يروا شيئًا . أهذا كل ما هنالك ؟! وهل لأنهم يعتقدون أننى هى هى نفس الفتاة القديمة ، دون تغيير هل هذا يجعلنى أعتقد مثلهم أيضًا .. وتعبت من التفكير .. فتناولت شرابًا .

وعلقت إحدى النساء قائلة لى : لقد صرت رشيقة .. وكانت تجاملنى بالطبع إذ كانت تود أن تقول إننى صرت نحيلة . وكدت أن أقول لها : عزيزتى ، لقد اكتشفت وصفة للتخسيس تنافس وصفة ريجيم الماء وتمرينات النحافة معًا ! السرطان ! إنه وصفة مضمونة !! !! ! ولكننى لم أقل ذلك بالطبع بل كانت كلمة « شكرا » هى الكلمة الوحيدة التى نطقت بها .

وكنت قد تناولت الكثير من الشراب ، ولكن هذا لم يمنعنى من أن أدرك أننى قد اجتزت الامتحان .. هذا غير معقول .. لم يعرف أحد ، ولم يلاحظ أحد شيئًا من التغيير . كلهم كانوا يروننى رائعة ، رشيقة بل وجميلة أيضًا .. هكذا قال لى أحدهم .. وفى كل مرة أسمع فيها كلمة إعجاب ، كنت أهرع إلى الحمام وعلى أطراف أصابعى أحاول أن أتأمل نفسى فى مرآته ، من الأمام ومن الجانبين ، ثم أضع بعض البودرة على وجهى ثم أعود إلى الحفل استعدادا لجولة أخرى .

وعجبت من نفسى .. أليس هذا حديث امرأة ... ألست أنا امرأة يتوقف تقليرها لذاتها على شخصيتها أولا أكثر من جاذبيتها أو مظهرها الخارجى !! !! إذن ما هذا الاهتمام بمظهرى كأنثى ، وما هذا الخوف الغريب من أن أكون قد فقدت جاذبيتى كأنثى !! ألم أكن أنا دائمًا فوق

هذه الأمور !! وتأتينى الإجابة .. لا ، لست كذلك الآن ... وربما لا أكون كذلك فى المستقبل أيضًا .. وكذلك الحال مع معظم النساء . قد تتظاهر بعض النساء بأنهن لا يبدين اهتمامًا كبيرًا بالمظهر ، وربما دربوا أنفسهن على ذلك ، ولكن هذا يحدث لبعض الوقت فقط .

وأذكر أن إحدى زميلاتى قد كتبت مرة موضوعًا شيقًا فى هذا المجال ، وذكرت فيه كم من الوقت والمال يضيع من أجل المحافظة على المظهر الخارجى .. ربما أكثر مما ينفق على سيارة أو حتى شقة .

ولم يكن هذا بالطبع ينطبق على كل النساء ولكنه كان ينطبق على كثير من النساء اللاتى نعرفهن – المتزوجات منهن وغير المتزوجات – فى مدينة نيويورك . وكنت أعتقد أن اهتمام بعض النساء بمظهرهن ينقطع بعد الزواج ولكن هذا لا يحدث فى أغلب الأحيان .. فالتفاهة والغرور مستمرين أبدًا .

وأذكر حينما كنت فى الصف السادس الدراسى أن أجروا مسابقة فى نهاية العام لاختيار أذكى فتاة وأجمل فتاة . وانتخبت أنا كأذكى فتاة .. واختيرت زميلة لى اسمها « لورين » كأجمل فتاة . ورغم ذلك جاء ترتيبى الثانية واحتلت هى المرتبة الأولى وبكيت . وإذا نحن استعرضنا جميع النساء على اختلافهن ، فسنجد دائمًا بداخل كل منهن امرأة تريد أن تكون جذابة . الفرق هو أن ليس هذا هو كل ما تريده .

وإذا أنا عدت من جديد إلى الصف السادس فسأكون أسعد حالاً لكونى أذكى فتاة مما كنت فى ذلك الوقت .. وسأكون بالطبع أقل شقاء لأننى لست الأجمل .

معظم النساء اللاتى أعرفهن وصلن إلى نتيجة فى هذا المجال وهى أن المرأة تريد أن تكون جذابة لأن هذا شىء بشرى إنسانى . ولم تعد المرأة

وحدها التى ترغب فى المظهر الجذابَ بل هناك الكثير من الرجال أيضا يرحبون بهذا الاتجاه فى وقتنا الحاضر . الفرق هو أن الرجال والنساء اليوم يريدون أن يكونوا أذكى وأجمل فى نفس الوقت ..

أما بالنسبة لى فإننى لازلت أشعر بأننى أعلى مقامًا حين أكون الأذكى ، أما بالنسبة للجزء الآخر – الجمال – فأنا الآن غير مؤهلة لهذه الصفة . رغم أن كل من بالحفل كانوا يرون أننى لازلت جميلة ، ولا بأس ، فقد نجحت وحصلت على جائزة حسن المنظر ... . لا بأس أن تخدع الجميع ولكن لن تستطيع أبدًا أن تخدع نفسك .. فأنا وحدى التى تعرف مالذى تخفيه الملابس ... .

الفصل الثالث عشر :

كان الدكتور « سنجرمان » قد نبهنى إلى أننى سأظل أعانى عجزًا فى مقاومة العدوى بسبب استئصال الغدد الليمفاوية المقاومة للعدوى من الآن وطوال حياتى .. فكان لزامًا على أن أتحاشى التعرض لأية عدوى أو إصابة ذراعى الأيسر أو يدى اليسرى بأية جرح أو التهاب .. معنى ذلك أنه لم يعد بمقدورى أن أقص الجلد المحيط بأظافرى مثلما كنت أفعل .. وحين قلت للدكتور (سنجرمان) إن من عادتى أن أقضم أظافرى قال لى : « افعلى ذلك مع يدك اليمنى ! » .

كذلك أعطانى الدكتور « سنجرمان » اثنين من التمارين لأؤديهما مرتين فى اليوم ، فى التمرين الأول كان على أن أواجه الحائط ، وأن أبعد عنها بمسافة ذراع ثم أمد ذراعى المجروح وأسير بأصابعى فوق الحائط حتى أتعب أو أصل إلى النقطة التى أشعر عندها بالألم . وعلىّ عندئذ أن أضع علامة على الحائط . وفى كل يوم ، علىّ أن أحاول أن أسجل علامة أعلى من سابقتها فى كل مرة .. وفى البداية لم أستطع أن أرفع ذراعى لمسافة أكثر من أنفى ، ومع ذلك بعد أسبوعين فقط أمكننى أن أقف بمواجهة الحائط ، وذراعى على الحائط إلى أعلى تماما . وفى التمرين الثانى ، كان علىّ أن أفعل نفس الشيء ولكن بالجنب . أن أقف وجانبى الذى به الجراحة فى مواجهة الحائط ثم أرفع ذراعى على الحائط إلى أعلى مسافة ممكنة ولكننى كرهت هذا التمرين ، لأننى فى كل مرة كنت أؤديه أشعر بأن صدرى يكاد ينشق إلى نصفين .. وكان هذا شعورًا سخيفًا ومؤلمًا معًا . وكنت أخشى هذا التمرين كثيرًا .

ولم يكن هذا هو الشيء الوحيد الذى كنت أخشى منه .. فلقد كنت أيضا أخشى الذهاب إلى السرير .. فلم أكن أستطيع أن أشعر بالراحة فى

السرير ، بمعنى أننى لم أكن أستطيع النوم . حتى لو أخذت قرصًا من الفاليوم . ولم يكن ذلك بسبب شدة الألم ولكن بسبب التهاب يمنعنى من النوم على وجهى ، أو على جانبى الأيسر وهما الوضعان الوحيدان اللذان اعتدت النوم عليهما . فالنوم على الجانب الأيمن لم يكن يريحنى أيضا . لأن معنى ذلك أن ذراعى الأيسر ستستريح على جانبى الأيسر . ولكى أحتمل هذا الوضع كان لابد من وجود مخدة صغيرة تحت ذراعى ، ولكنها كانت مزعجة وغير مريحة أيضا . ولذلك كنت أفضل النوم على ظهرى مما جعلنى أشعر بأننى جثة . والعجيب أن كل هذه الأمور الثانوية لم تكن لتزعجنى أثناء وجودى بالمستشفى !! ولكن ، فى المستشفى لم يكن يزعجنى أى شىء على الإطلاق .

ولقد كان هناك سبب آخر لخوفى من الذهاب إلى السرير ، وهو أننى كنت أخشى الجنس وكنت أقول « لآرثر » متعللة : ليس ذلك بسبب عيب فيك ، إنما العيب فى أنا . فكان يجيب « لا بأس ، كما تشائين » أو يقول : « أوكى ، كما ترغبين » ... ولكنى أؤكد أنه لم يكن « أوكى » أبدًا .وكنت أتابع حديثى له قائلة وأنا أعطيه ظهرى « هذا الحال لن يستمر طويلاً كما تعلم ! » ولكنى كنت أعرف أنه كان يعتقد أن هذا الوضع قد يستمر فعلاً ... والحق أننى نفسى لم أكن متأكدة أن هذا سيكون وضعًا مؤقتًا . لقد كان من الجائز ألا يرغبنى (آرثر) بعد ذلك ، ولكننى لم أواجه هذا النوع من المشاكل الجنسية التى قد ينشأ فى مثل هذه الحالات والتى قرأت وسمعت عنها كثيرًا ... فأنا لست قلقة لأن زوجى لم يعد يجدنى جذابة بقدر كاف .. بل إنه يجدنى كذلك فعلاً ويرغبنى أيضًا .. الشىء العجيب هو أننى أنا التى لا ترغب فيه .

هو لا يزال يرانى جذابة ، لا بأس ، ولكننى لا أرى نفسى كذلك ، أنا الآن بضاعة تالفة وأنا أعلم ذلك جيدًا . لقد تجلت لى هذه الحقيقة

كما تجلت لى أشياء أخرى مثل حقيقة أن هناك تحت هذه الأربطة الشاشية الناصعة البياض يوجد شيء قبيح للغاية . شيء مشوه وأنا صرت إنسانة مشوهة .. ويكفى أن يكون المرء مشوهًا ليكف عن الرغبة فى الجنس ويزهد فيه . ولقد كنت أعتقد دائمًا أن الشعور بالجنس له علاقة كبيرة بالشعور بالجمال أو على الأقل الكمال . لقد انتهت الآن كل هذه المشاعر النرجسية ..لقد انفجر (الفيوز) ومعه انطفأت الرغبة فى الجنس بالنسبة لى ..فأنا الآن فى حالة ظلام وجفاف . لم أعد أشعر بأننى جميلة أو جذابة وببساطة شديدة لم أعد أستطيع أن أحب .

سبب ثالث لمخاوفى من السرير هو .. الأحلام .. أحلام سيئة مثل تلك الأحلام الثلاثة التى رأيتها على مدى ثلاث ليال متعاقبة .

الحلم الأول : طبيب صغير السن وسيم ، كان يفحصنى ويتحسس صدرى ثم يحرك يده إلى الجانب الآخر ثم يترك يده فى المسافة ما بين الثديين ، وينظر إلى ولا يقول شيئًا .. ولكن نظرته كانت رقيقة حانية وينسى يده فى ذلك المكان ويظل ينظر إلى بهذه الطريقة .. ولكننى لا أستطيع الاستمرار على هذا الوضع ، فأنهض كى أنصرف وأنا أعلم أننى لن أراه ثانية ..

الحلم الثانى : أرى نفسى وأنا طفلة صغيرة وقد فقدت ذراعى ، وكان على أن أضع بدلاً منه شيئًا كالذراع مصنوع من البلاستيك الوردى مثل ذراع الدمية ولكن ذراع الدمية لها أصابع ولم يكن لهذا الذراع أية أصابع ..فكان على أن أضع خطافًا مخيفًا .. أفزعنى منظره فأخذت أبكى .. وأنتحب ... وأيقظنى بكائى المرتفع .

الحلم الثالث : أنا فى قطار ، وهناك عربة نادى فوق القطار ممتلئة برجال يرتدون بدلاً كاملة وهناك باتيو حوله ستارة ولكن يمكن للمرء أن يرى

من خلال المسافات بين أجزاء الستارة . وكنت أريد أن آخذ حمامًا ، وكنت أعرف أن الرجال الموجودين قد يمكنهم رؤيتي في هذا البانيو ولكنني صممت على أن آخذ حمامًا ، رغم كل شيء ، ويبدو أنني كنت أرغب في أن يرونني .. كنت أريدهم أن يروا أجمل جزء في جسمي وهو الجزء الذي يظهر من البانيو أثناء الاستحمام ... ولكن كانت هناك ترتيبات .. كان يجب أن أقول للحارس أولاً .. وكنت أريد بعض الأشياء مثل لوفة للاستحمام وكاب للرأس .. وكانت هناك أيضا عقبات غامضة لا أذكر ما هي ... ثم فجأة بدا كل شيء واضحًا .. ووجدت اللوفة وكل شيء في مكانه تمامًا ولكني ترددت بعد ذلك ولم آخذ حمامًا ولم أستحم . كان هناك شيء يمنعني من أن أستحم لم أكن أستطيع تحديده ثم فجأة تذكرت ما حدث لي .. وتذكرت أنه ليس هناك شيء يستحق المشاهدة فنبذت فكرة الاستحمام .

وعدت من جديد إلى طبيبي النفساني السابق دكتور (رومفيلد) الذي ساعدني على الشعور بالتحسن من ناحية الجنس وشرح لي الأمر بهذه الطريقة :

– إنك في حالة حداد .. لقد حدثت حالة وفاة في جسدك ..

يا إلهي !! ما أروع هذا التعبير ...وفاة في الجسد .. إن « نرومفيلد » ألطف طريقة لوصف أبشع الأشياء .. إن هذا الرجل يعطي بعدًا وعمقًا لمشاكل المرء الدنيوية .

وكان غريبا وجودي عنده .. فلقد شعرت أنني تلميذ سابق يعود إلى أستاذه القديم .. وبسبب حالتي الجديدة فلقد سمح لي بأن أجلس على كرسي مثله وفي مواجهته .. وأتحدث إليه وأنا أنظر في عينيه بدلاً من التحدث إلى السقف أو إلى إحدى الصور المعلقة – كما هي العادة – وحين كنت أشعر برهبة التحديق في عينيه ، كنت أهرب بعيني إلى السماء من خلال

النافذة وأنظر إلى قمم الأشجارالمخضرة بينما أنا مستمرة فى الحديث .. وكان حديثى نصفه للأشجار ونصفه له ...تحدثنا عن أشياء كثيرة : عن زواجى .. عن أمى .. عن ماضى .. عن عذاباتى القديمة .. والحديثة .

وكنت قد نسيت نعمة أن يلقى الإنسان بكل ما فى جوفه دون أن يخشى عاقبة ذلك . أو يهتم بدناءة هذا الفعل حين يتلقاه شخص آخر بالكثير من رباطة الجأش واللباقة . إن التحليل النفسى لم يعد نمطيًا كما كان .. وأيضًا لم يعد بإمكان أى شخص أن يجد المال اللازم له ..بل إننى أشعر تجاه التحليل النفسى كما يشعر الناس تجاه الأشياء الترفيهية الأخرى فى الأيام الخوالى ..ولقد كنت حقًا أشعر بالسعادة والرضا لأن باستطاعتى أن أحصل على هذا النوع من الرفاهية حين أريده .

إن التحليل النفسى يجعلنى أكثر سعادة بل أكثر ذكاء وإدراكًا .. كما أن الصراحة والأمانة تجعل الأمور أكثر سهولة وبساطة . فإذا أتى التحليل النفسى بنتيجة طيبة فإنك ستدركين أن الأشياء الفظيعة التى تشعرين بها تجاه نفسك ، ليست بهذه الدرجة من الفظاعة .. على الأقل ستكتشفين أنك لست الوحيدة فى هذا المضمار .. وأن هناك كثيرين فى هذا العالم مثلك .. عندئذ ستحسن فكرتك عن نفسك بعض الشىء بل من الممكن أن تحبى نفسك أيضًا مما سيأتى فى المقابل بنتيجة طيبة ، فستصبحين أقل سوءًا وأقل كذبًا .. لأنه كلما أحببت نفسك أكثر ، كلما أصبحت أكثر صراحة معها ، وأقل إخفاء لحقيقة نفسك ..

وغير التحليل النفسى ، هناك نوع آخر من العون يقدم للنساء اللاتى أجريت لهن جراحة استئصال الثدى بسبب السرطان . إذ تمول (الجمعية الأمريكية للسرطان) برنامجًا يسمى (احصلى على الشفاء) . وقد بدأته امرأة تدعى (تيريز لاس) وهى نفسها قد أجريت لها مثل هذه الجراحة فى

عام ١٩٥٢ . وقد انتشلت نفسها من حالة اكتئاب حادة وقررت أن تساعد النساء الأخريات ممن مررن بنفس ظروفها - ويوجد الآن أكثر من ألفى متطوعة فى هذه الجمعية معظمهن مررن بنفس التجربة الأليمة - وهن يبذلن أقصى الجهد لمساعدة المستجدات فى هذا المجال . فهن يزرن النساء فى المستشفى عقب إجراء الجراحة مباشرة ويقدمن لهن العون اللازم ابتداء من بث الثقة فى أنفسهن وتوضيح أنهن قد مررن بنفس التجربة وأنهن الآن كما يرين على ما يرام ، وانتهاء بالمساعدة العملية وإعطائهن المعلومات الخاصة بالتمرينات اللازمة لهن وأيضا عن الملابس التى تصلح لهن .

لا شك أنها تبدو فكرة رائعة .. ، ومع ذلك فقد قررت أنا شخصيا ألا أقابل أية واحدة منهن .. لقد أخذت الفكرة شكل المنتدى بالنسبة لى .. ولم أكن أبدًا عضوة فى أى ناد ولم أكن لأبدأ أبدًا بعضوية نادى السرطان ... فى الواقع .. لم تكن لدى أية رغبة فى رؤية شخص آخر مثلى ... إلى جانب أننى لست فى حاجة إليهن .. فلدى الدكتور (رومفيلد) ولدى أيضا التليفون .

وخلال هذا الأسبوع الذى قضيته بالمنزل ، كانت حالتى النفسية تتأرجح ما بين الارتفاع والانخفاض وإن كان التأرجح فى معظم الأحيان إلى أسفل .. ولم أكن أعرف طريقة أتعامل بها مع الحالات السفلية سوى أن أتكلم وأتكلم وأحيانا ، أكتب .. وكان هناك المزيد من الأشخاص الذين علموا بقصتى .. أى أن هناك المزيد من الآذان لتسمعنى . وحين تحسنت حالتى إلى حد ما وشعرت ببعض القوة نوعًا بادرت بدعوة عدد من الأصدقاء إلى الغداء . وكان أى شخص يأتى للغداء يدفع مقابل ذلك ثمنًا غاليًا . ففى مقابل سندوتش واحد من سمك التونة ، كان عليه أن يستمع لقصة (بتى وثديها) ولمدة ساعة كاملة . وكنت أحيانًا أجدنى وقد عدت إلى طبيعتى الشجاعة وأنطق بكلمة السرطان بكل بساطة بل وأرددها كثيرًا . كما لو كنت أبصق

بها خارج نفسي .. ولقد كان ذلك صعبًا على بعض الناس ، وكنت أدرك ذلك ، فليس الأطباء وحدهم هم الذين يفضلون استعمال كلمة (خبيث) أو غيرها بدلاً من تلك الكلمة الكريهة . وكنت أستعمل أيضًا كلمة استئصال الثدى أثناء حديثى ، واكتشفت أن الناس أيضًا يكرهونها مثلما يكرهون كلمة السرطان ، ربما لأنها موحية جدًا وتصف ما حدث بالضبط .. ومن ذا الذى يريد أن يستمع لمثل هذه الكلمات خصوصًا وهو يتناول سندوتشا من التونة . ولكنى لم أكن أدرى لماذا ظللت أردد هذه الكلمات مرات ومرات وكأنما أتقيؤها .. ربما كنت أظن أنه بمواصلة ترديد هذه الكلمات الكريهة فإننى أتخلص منها وبالتالى أشعر بالتحسن . ولكن فى الواقع كانت حالتى تسوء ولا تتحسن .

مع الكلمات ، كنت كبيرة وشجاعة .. ولم أكن أريد أن أفعل شيئًا مع الواقع الموجود فى هذا الجزء من جسمى .. فلقد كنت أشبه ما يكون بواحد من هؤلاء الحكوميين من أنصار الرعاية الاجتماعية الذى لا يطيق رؤية منظر أحد الفقراء .

فى الأيام الأولى ، لم تكن أربطتى هى مجرد شاشة تحجب المنطقة المنكوبة ، بل كانت أيضا وإلى حد ما بمثابة ثدى صناعى .فلقد كان الرباط كأنه بطانة أو حشو وكانت بارزة للخارج إلى حد ما فبذلك قللت من الفرق فى البروز بين الناحيتين . الجانب الذى به ثدى صغير والجانب الذى ليس به شىء بالمرة . وكنت أتحاشى النظر إلى نفسى كثيرًا . فلقد كنت أرتدى ملابسى وأخلعها بسرعة وعيناى مثبتتين للأمام . ووجهى بعيد عن المرآة . ولكن مع الاستحمام فالأمر يختلف لأن معناه أن أتعرى تمامًا على الأقل لمدة خمس دقائق . ولكنى لم أكن أخفى نفسى داخل المياه ، لأننى كنت أستطيع أن أستحم فقط من عند الوسط حتى أسفل الجسم حتى لا تبتل الأربطة . ولكن كانت هناك لحظات كان لابد فيها

أن أنظر لأسفل كى أغسل حول الأربطة . ولكننى أيضا توصلت إلى طريقة للقيام بهذا العمل . فلقد أوحيت لنفسى أننى ممرضة وأن الجسد الذى أنظفه ليس جسدى بل هو جسد شخص آخر .. وبهذا استطعت أن أقوم بهذا العمل بكفاءة وكأننى أؤدى عملاً .

وكان هناك سبب لتطلعى إلى موعد دكتور « سنجرمان » والمواعيد التالية له وذلك بعد أربعة أيام فقط من خروجى من المستشفى . كان السبب أن لديه ممرضة حقيقية هناك ، وأننى سأرقد على سرير الفحص وأعود مريضة من جديد . ولقد كان (آرثر) وأمى يقومان بالتناوب بتمريضى فى المنزل فى الأيام القليلة الأولى . ولكن الأمر ليس كذلك ، ليس نفس الشىء ... لقد كنت أريد عناية خاصة من أيدى مدربة محترفة .. كنت أريد أن يتعامل معى أناس يشعروننى بأننى مجرد حالة روتينية .. حالة عادية .. أناس اعتادوا على رؤية حالات مثل حالتى وأجساد مثل جسدى .

ولم تكن الممرضة هى التى ترعانى فقط خلال زياراتى الأولى لعيادة دكتور « سنجرمان » بل كان هو نفسه يتناوب معها رعايتى .وفجأة انتابتنى مشاعر جديدة تجاه دكتور « سنجرمان » – تُعد مشاعرى تجاه « ديڤيد » وأنا فى المستشفى إذا قيست بالنسبة لها ، أفلاطونية تماما – واعتقدت أننى لم ألحظ تلك المشاعر تجاهه من قبل لأننى كنت مكتئبة .. وتذكرت عمره ... فهو فى الثالثة والستين (فقد بحثت عنه فى الدليل الطبى) ، وتأملت ظهره المنحنى ، كم هو أنيق ، وغامض .. بل أنه لغز . كنت أرى أنه رجل يشعر بأكثر مما يُظهر .. ومن ضمن ما يخفيه من مشاعر عاطفته نحوى .. ليست فقط مشاعر بل أننى تماديت فى خيالى وتصورت أنه أيضًا يرغبنى .. ولكن لم أتخيل أن ما يريده هو أو أريده أنا هو الجنس فقط .. فأنا فتاة فى الخمسينيات وخيالاتى الجنسية فى أدناها .. فى القاع .

وسرحت فى خيالى ولكننى لم أتجاهل زوجته بالطبع ، بل كنت أتخيلها

عجوزًا شمطاء ترتدى ملابس تقليدية ، جافة المشاعر بدرجة لا تجعلها تهتم إذا أخذت منها زوجها ... أما أولاده فلابد أنهم كبار مستقلون ولا يهتمون أيضا . وربما كان هذا تبريرًا لأى ذنب قد يرتكبه فى حقهم مستقبلاً ...

لماذا كل هذه المشاعر والخيالات تجاه جرّاحى العجوز دكتور « سنجرمان » !! ؟ ؟ ربما لأنه خلال تلك الأسابيع كان هو الرجل الوحيد الذى كنت أشعر معه بأنى جميلة .. فلقد اعتاد منظر صدرى . إنه هو الذى صنع هذا التشويه بنفسه . وفى ضيعته الكبيرة من النساء ذوات الثدى الواحد اللاتى أعتقد أنهن أكبر سنًا منى ، وأقل حسنًا ، كنت أشعر بنفسى إلهة للجمال بالنسبة لهن . ولقد كنت أتصور نفسى أجملهن فعلاً .. « فرويد » يسمى هذا الشعور بالنرجسية .. ومهما تكن التسمية فإن هذا الشعور كان يتملكنى بالفعل ..

كان من الواضح أننى أريد أن أشعر بأننى لازلت جميلة وجذابة ، والرجل الوحيد الذى جعلنى أشعر بذلك هو ذلك العجوز (سنجرمان) ليس بسبب أنه أتى بأى تصرف يشعرنى بذلك وإنما بسبب جنونى وخيالى المريض .

وأيضًا كنت أريد أن أشعر بأننى لازلت جميلة وجذابة من أجل زوجى المسكين فلقد كنت معه جافة كقرعة مجوفة مجففة ...

الفصل الرابع عشر :

وفى ليلة سبت أخرى ، انتزعت نفسى لكى ألبى مناسبة اجتماعية أخرى وارتديت نفس (السوتيان) الذى ارتديته فى الحفل السابق ، ووضعت بداخله نفس زوج الشرابات ، وارتديت نفس البلوزة الفضفاضة وذهبت مع (آرثر) إلى حفل عشاء فى إحدى ضواحى المدينة .

لقد كان شيئًا فظيعًا حين فتحت لنا مضيفتنا (مارى كليفدج) الباب ووقعت عيناى أول ما وقعت على صدرها الممتلئ الضخم ، وانقلبت الأمسية إلى مرارة على الفور .

لقد كان العشاء جيدًا وقد قضيت وقتًا ممتعًا أتحدث مع بعض الضيوف ، ولكن عيناى كانتا تعودان للنظر إلى صدر « مارى » مهما كان الشخص الذى أتحدث معه . والشىء المضحك هو أن « مارى » كانت قصيرة نوعًا بالنسبة لضخامة صدرها وحتى عندما كنت فى الثالثة عشر من عمرى لم أكن أتمنى أبدًا أن يكون لى ثديان بهذا الحجم .. ولكننى أريدهما الآن .. وكنت كلما أمعنت النظر إلى صدر « مارى » كلما شعرت بالمرارة ولكننى لم أستطع أن أتوقف عن النظر .

لم يكن هناك شخص واحد فى هذه المجموعة يعلم بما حدث لى .. تمامًا مثل حفلة « جوانا » . ولقد أعجبنى ذلك كثيرًا حينما كنت فى حفلة (جوانا) ولكن هذه المرة شعرت بأننى وحدى مع سر رهيب . وللحظة فكرت أن أفشى السر لأحد ، لأى أحد ولكن لم يكن المجال مناسبًا . فلقد كانت السهرة لثمانية أفراد فقط من النوع الذى تغلب عليه الدردشة العامة ، ولم تكن هناك أية فرصة للحديث عن أشياء مثل استئصال الثدى أو حتى ذكر الثدى ... ولذا صرفت النظر عن إفشاء السر واستسلمت للشعور بالمرارة بداخلى والتهمت كمية كبيرة من الدجاج وشربت الكثير من النبيذ الأبيض .

ثم .. بعد أمسيتين أخرتين حضر (لارى) و (جوديث) وهما من ضمن الأصدقاء الذين عرفوا قصتى – وقضيا معنا وقتًا رائعًا .

وحينما حان موعدى التالى مع الدكتور (سنجرمان) فى الخميس التالى ، كنت فى حالة معنوية لا بأس بها .. وزاد ترقبى للموعد حالتى المعنوية تحسنًا .. وكانت أمى فى انتظارى فى عيادة الدكتور « سنجرمان » ، وكنت قد اتفقت معها على اللقاء هناك .. وجلسنا معًا فى حجرة الانتظار ، وبينما نحن نتحدث لاحظت وجود امرأتين جالستين هناك إحداهما فى الخمسين ولها نظرة لطيفة وأنف كبير .. أما المرأة الأخرى فكانت فى حوالى الخامسة والعشرين ولها نفس الأنف المعقوف ، وكان واضحًا أنها ابنة المرأة الأولى .. وكانتا تجلسان فى هدوء وصمت .. إلا من بعض التنهدات التى تصدر من الأم من وقت لآخر .. ولم تصدر منها أية حركة أو صوت آخر . وكان واضحًا أنهما مشغولتان تفكرانِ بأمر خطير .

وبعد دقائق قليلة ، نهضت لأسأل موظفة الاستقبال عن موعد دخولى للطبيب ، فأجابتنى بأن دورى هو التالى مباشرة موضحة لى بأن السيدة الصغيرة الأخرى تأتى لأول مرة ومعنى هذا أنها ستستغرق وقتًا طويلاً مع الطبيب ، ولذلك رأى الطبيب أن يرانى أولاً بدلاً من أن أنتظر فترة طويلة حتى ينتهى من فحصها إذا ما دخلت هى أولا . فشكرتها ، وجلست فى مكانى ونظرت من جديد إلى الفتاة وأمها ، ولاحظت كم هى نحيفة . وكان يبدو أنها تفقد وزنها من فزع واقع عليها .

ولقد قلت لأمى فيما بعد ونحن نتناول الشاى فى أحد المحلات بعد خروجنا من عند « سنجرمان » إننا لو قارنا حالى أنا وأمى بحال هاتين السيدتين اللتين لا تعرفان ماذا هناك بالضبط بل يشكان فى وجود هذا الشىء الفظيع وجاءتا للتأكد من وجوده أو عدمه سنجد أننا كنا الأكثر مرحًا والأكثر حديثًا رغم علمنا بوجود هذا الشىء الفظيع بالفعل .

واستمعت إلىّ أمى جيدًا ثم قالت بحكمتها المعهودة :

– إنه الخوف يا عزيزتى ، وهو أسوأ ما فى الأمر !

ثم نادتنى الممرضة إلى حجرة الفحص فنهضت وعدلت من ثيابى ، واتجهت إلى حجرة الفحص لقد كانت هذه الزيارة مثل الزيارة السابقة – تغيير الأربطة – وشرح لدرس جديد فى التمرينات الرياضية ثم حدث شىء آخر جديد يتعلق بخوفى من حلاقة الشعر الموجود تحت ذراعى الأيسر . لقد كنت أخشى التلوث والالتهابات رغم أن (سنجرمان) كان قد قال لى إنه يمكننى إزالة الشعر ولكن مع الحرص . ولكننى لم أستطع أن أفعل ذلك ، رغم أننى قد قمت بحلاقة الإبط الأيمن وحين بدأت فى حلاقة الإبط الأيسر شعرت بقشعريرة شديدة ولم أستطع القيام بهذا العمل .. فإن رؤية حد الشفرة على بشرة ذراعى من الناحية المصابة ومع عدم شعورى بأى إحساس فى تلك المنطقة أصابنى بالخوف الشديد .

وفى هذه المرة ، حين لاحظ « سنجرمان » أن الشعر لا يزال فى مكانه سألنى :

– ما هذا ؟ وأجبته :

– كما ترى ، شعر تحت الإبط ، ماذا تظنه . !

ثم تداركت بسرعة وبلهجة لطيفة شرحت له السبب الذى منعنى من ازالته . عند ذلك تنهد وقال للممرضة :

– هل يوجد شفرة هنا ؟ فأجابت بلا مبالاة :

– سأبحث عن واحدة . فقلت :

– يإلهى ! ليس معقولاً أن تقوم بهذا العمل نيابة عنى .

فأجاب وهو يبتسم نصف ابتسامة :

– إننى لم أؤد أفضل أعمالى اليوم بعد .

وناولته الممرضة شفرة عتيقة وهى غير مقتنعة بما ينوى أن يفعله . وبرقة شديدة رفع « سنجرمان » ذراعى لأعلى ونثر الصابون ثم بخفة وتركيز شديدين أخذ يحلق لى . وأغمضت عينىّ ولم أنطق بكلمة بينما هو مسترسل فى عمله بكل دقة وثقة وعناية .

* * *

إن زوج الشرابات لم يعد يعمل جيدًا ، فالشرابات ليس لها ثقل أو وزن بينما الثدى له وزن ، لذلك فقد كنت دائما فى قلق من ناحيتها . فإذا رفعت ذراعى مثلاً – وهو ما أستطيع أن أفعله الآن – فإن هذه الأشياء التى لا وزن لها ترتفع لأعلى ويبدو منظر الثدى مضحكًا ولهذا قررت الذهاب لإلقاء نظرة على محل أشار على به « سنجرمان » حيث يبيعون مثل هذه الأشياء الصناعية (ثدى صناعى) وهم يطلقون عليه اسما لطيفا من مقطعين هو « بروثيسيز » .

واتضح أن هذا المحل يقع فى مبنى إدارى للمكاتب ولقد بدأته امرأة كانت تعانى من نفس المشكلة . وأحسست بمعدتى تتقلص وأنا أصعد الأسانسير . فلقد خيل لى فجأة أننى ذاهبة لرؤية أحد مشاهد الرعب . وبمجرد أن دخلت رأيت امرأة فى مثل سنى تجرب لباسًا للبحر وتقف على أطراف أصابعها وهى تريه لرجل – زوجها على ما أظن – ولم يكن يبدو أنه لباس للبحر (مايوه) ذلك لأنه يرتفع حتى يصل إلى الرقبة وله أكمام أيضًا . يا إلهى ! هل يجب على أن أرتدى مثل هذا الشيء إذا أردت النزول إلى المياه !! ! لا أعتقد ، لأننى لازلت أمتلك صدرًا – أقصد عضلات صدر – فليس هناك داعى لأن أغطى كل هذا الجزء من جسمى وإنما فقط الجزء الذى كان به الثدى .

ونظرت إلى المرأة التى تجرب المايوه ، كانت تبتسم وتستدير هنا وهناك

تطلب رأى زوجها وموافقته . وكان هو يجلس على أحد الكراسى وهو يضع حقيبة يدها فى حجره .. قد يبدو هذا المنظر طبيعيًا خارج إحدى حجرات الملابس فى المحلات العادية .. وفى الحقيقة كان المحل يبدو عاديًا مثل تلك المحلات الصغيرة التى تديرها النساء عادة فى الشوارع الرئيسية بالمدن الصغيرة . كان هناك العديد من الملابس وقمصان النوم والمايوهات ، ولكن كان معظم المايوهات غريبًا وشاذًا وكان أعلاها مغطى دائمًا . وكان هناك العديد من الأرفف الممتلئة بعلب بيضاء ، من النوع الذى يحتوى على الملابس الداخلية أو الكورسيهات (المشدات الخاصة بالسيدات) ولم يكن واضحًا بالمرة ما تحويه هذه العلب . وكانت هناك بائعتان مشغولتان فى الطرف الآخر من المحل ، فانتهزت الفرصة واختلست النظر داخل إحدى هذه العلب . فلمحت كتلة مستديرة وردية اللون حوالى ست بوصات عرض وأربع بوصات ارتفاع و ٣ بوصات عمق لقد كان ثديًا . وأغلقت الصندوق بسرعة .

وأخيرًا جاءتنى إحدى البائعات وأخبرتنى أن هذا وقت مبكر جدًا بعد العملية لاقتناء أحد هذه الأشياء التى بداخل الصندوق . ولم أطلب أن أراه ثانية !! !

وأعطتنى البائعة شيئًا آخر مؤقتًا بأربعة دولارات . مصنوع من الداكرون ويبدو مثل القطن بغطاء من النايلون من نفس لون الجسم . وأخذته وخرجت من هناك بسرعة .

تلك كانت أولى جولاتى فى أرض العجائب ... ومضى شهر كامل قبل أن تواتينى الجرأة للذهاب هناك مرة ثانية .

الفصل الخامس عشر :

وفى يوم الاثنين الثانى والعشرين من أبريل وكانت قد مرت ثمانية أيام على خروجى من المستشفى ، وقد عدت إلى العمل .. أو من الواجب أن أقول : إننى قد عدت إلى المكتب . ولم يكلفنى أحد بأى عمل أو يطلب منى الذهاب لتغطية أية أخبار أو أحداث أو حتى الذهاب إلى أية مؤتمرات صحفية . كانوا جميعا يعتقدون بل ويقولون : إننى مجنونة بالفعل أن أعود إلى المكتب بهذه السرعة .. ولقد كنت كذلك بالفعل ... فصدرى كان لا يزال يؤلمنى وذراعى أيضًا وكنت لأزال فى الأربطة ولم أكن بالطبع خفيفة الحركة . وجلست على مكتبى كالتائهة محنية الظهر ، والناس تسير حولى ومن فوقى وهم يقولون عنى : دعوها تجلس هناك ، فإنها لن تزعج أحدًا ...

لقد فكرت فى الأمر بشكل آخر ، تصورت أننى إذا عدت إلى حياتى العادية فإننى ولاشك سأشعر بأننى إنسانة عادية وطبيعية . ولقد حاولت أن أفعل شيئًا .. مثل العبث بأحد الأقلام أو إلقاء نظرة على موضوع مدمنى الكحول من المراهقين .. وكان حوالى أربعة مخرجين قد تناوبوا العمل بهذا الفيلم أثناء غيابى ..أى أنه لابد قد عُمِل له المونتاج بأربعة طرق مختلفة .. وكان رئيس التحرير قد أصابه الملل من هذا الفيلم ، فقد كان فى حالة فوضى تامة ولقد سمعت أنه أذيع فى الصيف ولكننى لم أشاهده أبدًا .

إن العودة إلى العمل لم تفدنى كثيرًا . أولا ، لأننى لم أشعر بأننى قد عدت إلى طبيعتى الأولى كما كنت أتصور .. لقد شعرت بأننى غريبة كما شعرت بالإرهاق .. ولقد ضايقنى كثيرًا ذلك الشعور السريع بالتعب ، كما أصابنى الشعور بالغربة والكآبة ..

وفى مكان مثل وكالة أنباء إن . بى . سى . حيث يطير الناس بصفة مستمرة إلى أنحاء العالم وراء الأخبار ، ولفترات غير محدودة ، فإن غياب أسبوعين عن المكان شىء من الصعب ملاحظته ولذلك لم يفتقدنى أحد ، بل إن معظمهم لم يكن يعرف قصتى ! لا بأس ! ولكنى لم أكن أعرف بالتحديد من منهم يعرف ومن الذى لا يعرف ..وقد سبب لى هذا شعورًا بعدم الارتياح . أما الزملاء الذين يعملون معى فى نفس المكتب وهم رئيس المكتب وثلاثة مراسلين آخرين وثلاثة مخرجين ومدير أخبار وسكرتيرة – وهم من ضمن الذين أرسلوا لى زهورًا وبطاقات ، لذلك كنت أعرف أنهم يعلمون كل شىء .. وفى أول أيام عودتى استقبلونى بحرارة وبقبلات ودودة ، وضغطات حلوة على اليد . وكلها أشياء سرتنى وهزتنى كثيرًا .. ولكن كان رد الفعل عندى هو الشعور بالحزن والكآبة . فعلى الرغم من أننى كنت أرتاح للشفقة التى كان يظهرها الآخرون نحوى ، إلا أن مشهد الشفقة الجماعية التى أظهروها نحوى أصابنى بتلك الكآبة .. جزء من هذه الكآبة ، كان بسبب التناقض الذى وجدت نفسى فيه وأنا أقارن حالتى الراهنة بحالى فى السابق . فلم أكن فى حياتى موضع شفقة من أحد ، ذلك أنه حتى قبل العملية مباشرة كان مستقبلى مزدهرًا وخطواتى واثقة ، فلم يكن باستطاعة أحد أن يرسلنى إلى أى مكان لتغطية أى خبر .. أو يرسلنى مثلاً إلى واشنطن لتغطية أخبار البيت الأبيض .. ولم أكن أحب أن أذهب لتغطية مثل هذا النوع من الأخبار . فلقد كنت دائمًا أحب أن أفعل ما أريد .وخلافا للأحداث الإخبارية الجارية كنت أفضل أن أقدم موضوعات طويلة عن اتجاهات جديدة .. وكانت كلها موضوعات جيدة فى الغالب .

وإلى جانب اجتهادى فى عملى ، كانت هناك صورتى الحسنة فى أعين الآخرين .. فعلى الرغم أننى لم أكن سعيدة تمامًا إلا أننى كنت دائمًا متفائلة

ومبتهجة .. وكان هذا واضحًا للجميع . بالطبع كان هناك الكثير من الأسباب التى تجعلنى متفائلة ومقبلة على الحياة . وكان الآخرون أيضا يعرفون ذلك .. فكانوا كثيرًا ما يشيرون إلى حسن طالعى ... وفجأة يتحدثون الآن عن سوء طالعى .. لقد كان شيئًا غريبًا بالنسبة لى وغير مقبول أيضا .

ومع الذين يعرفون الأمر ، كنت أحاول أن آخذ الجانب المضحك منه وأحكى لهم مثلاً رحلتى العجيبة فى دنيا الصدور الصناعية .. وتلك الأشياء التى وجدتها بداخل تلك العلب !!

وكانوا يضحكون ولكنه الضحك الممتزج بالأسى .. وكان ذلك يشعرنى بالأسى أيضًا . وغير ذلك ، كان كل شخص آخر يبدو لى نشيطًا وممتلئًا بالحيوية .. إلا أنا !!

وفى الأسبوع الثانى من عودتى للعمل ، كان معى موعد مع دكتور « سنجرمان » كنت أخشاه تمامًا . فلقد كان من المقرر فى ذلك اليوم أن أفك الأربطة . ولقد كنت قد أجلت هذا الموعد للمرة الثانية حتى لا يتداخل مع التزامات العمل التى لا أؤديها . وحاولت ألا أفكر فى هذا الموعد أثناء اليوم ، ونجحت فى ذلك تقريبًا ولكن قبل الموعد بحوالى ساعة وفى حوالى الساعة الخامسة كنت فى حالة من القلق كافية لأن أبتلع قرصًا مهدئًا ، ولقد كان أول قرص أتناوله خلال عدة أيام .

وحين كنت أغادر مكتبى ، اسودّت السماء وأخذت ترعد ، وأخذت تاكسيا ووصلت فى الميعاد إلى المبنى الذى به عيادة الدكتور « سنجرمان » . وكانت السماء تمطر بغزارة ، وكانت أمى قد اقترحت أن تقابلنى هى وأبى هناك على أن يوصلانى بعد ذلك إلى المنزل . ووافقت على ذلك وحين وصلت إلى هناك وجدتهما فى حجرة الانتظار . ولم يكن هناك غيرهما واستُدعيت إلى مكتب (سنجرمان) فى الحال .

وخلعت بلوزتى كالمعتاد وارتديت واحدًا من القمصان الورقية وجلست هناك للحظة وقدماى متدليتان من طاولة الكشف . ثم دخل (سنجرمان) وكان يرتدى البالطو الأبيض كالمعتاد وكرافتة حريرية جميلة ذات ألوان باستيلية هادئة . وقال :

– كيف حالك !!

وكان من عادة « سنجرمان» ألا ينادينى مطلقًا باسمى أو بأى اسم آخر . وعلى الرغم من أننى كنت أغضب دائمًا من الأطباء الذين أناديهم بلقب دكتور فلان وينادوننى هم باسم « بتى » فقط ، إلا أننى رغبت فى تلك اللحظة أن ينادينى الدكتور « سنجرمان » باسم بتى وحسب .

وفك الضمادة وكشف الجرح كالمعتاد ، وكالمعتاد أيضا شخصت ببصرى إلى الأمام متحاشية النظر إلى الجرح . ولكنه هذه المرة لم يضع رباطًا جديدًا مكان القديم فى الحال وأعطى الأربطة للممرضة التى ألقتها على الفور فى سلة القاذورات ، وإذا بقلبى يرتجف بين ضلوعى ، إلى هنا ينتهى !! ؟ ؟ وشعرت وكأننى أرقب صديقًا عزيزًا وهو يلقى بنفسه من فوق منحدر صخرى شاهق .

ورقدت على الطاولة كما طلب منى وبقطعة مبللة أخذت الممرضة تنظف مكان البلاستر على صدرى وبعد أن التقطت أنفاسى قلت « لسنجرمان » :

– هل تعرف أننى لم ألق نظرة على الجرح أبدًا ..أظن من الأفضل أن أراه الآن .

هل تفضلين أن أخرج من الحجرة ! ؟

وتذكرت ما حدث فى مكتبه أول مرة حينما لم أتمالك نفسى فقلت له :

– لا – لا تخرج .

ثم نظرت إلى سقف الحجرة وأنا راقدة على طاولة الكشف ثم نزلت بها إلى الحائط ثم إلى الحوض ثم إلى سلة القاذورات حيث ترقد ضمادتى العزيزة ثم إلى قدمىٰ ثم أخفضت ذقنى ورفعت رأسى بضعة بوصات فوق طاولة الفحص ثم نظرت . وأذكر أننى أصدرت صوتًا كالأنين ثم تركت رأسى تسقط للخلف على الطاولة .

– أوه .. ياإلهى .. أوه .. ياإلهى .

فى النصف الأيسر من صدرى حيث كان يرقد الثدى المفقود كانت هناك مساحة منبسطة متكتلة بعض الشىء تشبه الأرض مغطاة بجلد مجعد . وعبر السطح كان هناك خط طويل أفقى أحمر اللون متورم يسير من منتصف الصدر إلى الجانب الآخر تحت الذراع ويلتف ليصل إلى الظهر . وعلى الجانب الآخر من هذه البقعة الصغيرة التى تشبه هيروشيما كان يرقد الثدى الأيمن فى هدوء ، جميل وكامل كطفل وديع تبدو عليه أمارات الصحة . هذا كل ما استطعت أن أراه فى المرة الأولى . وبعدها بأربعة أيام سمحت لنفسى بأن ألقى نظرة ثانية وكنت وأنا أفعل ذلك كأننى أراقب أحد مشاهد التعذيب فى أحد الأفلام . وقد حدث ذلك بعد أن أخذت حمامًا وبعد أن جففت نفسى أسقطت المنشفة ووقفت أمام المرآة . وكنوع من التمهيد ، نظرت أولا إلى وجهى وعينىّ ورقبتى ثم نزلت مرة واحدة إلى الجزء الأسفل من جسدى وتأملت ساقىّ وتمنيت لو كانت ساقىّ أجمل من ذلك خصوصًا وأن باقى أجزاء الجسم فى حالة من الفوضى .. وأخيرًا ولمدة ثلاثين ثانية لم أبلع ريقى خلالها ركزت عينىّ على المكان الذى حدث فيه التدمير . إنه أكثر من مجرد مكان خال .. هناك تضاريس .. وهنا حدث التدمير .. لقد دمر البناء فى هذا المكان تدميرًا كاملاً .. !!

كان الجرح تاركًا وراءه أثرًا يشبه قضيبًا واحدًا لقطار مجنون لا يعرف إلى أين يتجه !!

بل إنه فى الحقيقة متجه إلى ظهرى . قاطعًا القضيب بطوله ... وبعد كل نصف بوصة كانت هناك خطوط أخرى بالعرض طول كل منها بوصة كاملة ولكنها ليست مستقيمة تلك كانت آثار الخياطة (خياطة الجرح) وكان لونها أحمر وقبيحة للغاية .. وودت لو أبعد عينىّ عن هذا المشهد ، ولكننى لم أفعل وتركت عينىّ تتجولان حول ذلك القطار اللحمى .

وفكرت كيف أنهم يقولون : إن البنات تختلف عن الأولاد . وتذكرت قصة الفتاة التى كانت تطلق مدفعًا ولم يكن أحد يصدق بأن فتاة تستطيع أن تفعل ذلك ! وكيف أنها فى المرة التالية كشفت عن صدرها لتريهم أنها فتاة حقًا .. لأن الفتيات لهن ثدى ... وغطيت الجانب الأيمن الجميل من صدرى بيدى وابتسمت .. هذه ولا شك نكتة : إننى حتى لا أشبه الأولاد .. صحيح ليس للأولاد ثدى مثلى ولكن لهم على الأقل حلمة ثدى .. وهو ما ليس لى !! !

الفصل السادس عشر :

كانت الملابس هى غطائى الوحيد .. وكان علىّ أن أكون سريعة فى ارتداء ملابسى وكنت بمجرد أن أرتدى الصديرية يسهل الأمر على بعد ذلك . وقد اعتدت أن أثبت الثدى الصناعى بدبوس داخل الصديرية قبل أن أرتديها .. فكان هذا يوفر على الكثير من الجهد والوقت معًا .

وبدون الضمادات كان الاستحمام يشكل لى أكثر من مشكلة .. ولذلك كنت آخذ حمامات أقل من المعتاد .. كذلك فإننى كنت قد تمرست على أساليب للاستحمام دون أن أنظر .. وحين أقترب من تلك المنطقة من جسدى ، كنت أحاول أن أثبت نظرى إلى أى شيء آخر .. قريب منها .. كمعدتى مثلاً .. وطبعًا كان من المستحيل أن أنظر إلى الثدى الآخر .. وبهذه الطريقة وبطرف عينى فقط كنت أرى بقدر كاف للقيام بهذا العمل بشكل ملائم .

وقبل العملية ، كان من عادتى ألا أرتدى قمصانًا للنوم ماعدا الشتاء .. أما الآن فإننى أرتديها كثيرًا ولدى العديد منها أيضًا .

كما أننى لم أعد أرغب فى الخروج بالمرة .. وخصوصًا بعد رفع الضمادات .. فإننى أشعر بأننى لست محمية .. وغير آمنة .. وكنت أخشى بالذات على تلك المضخة الصغيرة الموجودة فى صدرى .. أقصد قلبى .. إن قلبى مكشوف الآن وقريب جدًّا من السطح الخارجى لا يكاد يحميه شيء .. اختفت تلك الكتلة الشحمية التى كان يحتمى خلفها .. وتذكرت مرة حين كان لدى ساعة جميلة قديمة وقد خلع غطاؤها الخلفى فبدت أجهزتها الدقيقة الداخلية عارية .. وتذكرت كيف حملتها إلى الساعاتى لإصلاحها وهى ملفوفة فى منديل من الورق الرقيق وأنا أحملها بعناية خشية أن أتعثر فتسقط وتتحطم على الرغم من أننى لم أتعثر ولم أسقط من قبل .

والغريب أننى بعد العملية لم أكن أخشى السقوط مثلما كنت أفعل وأنا أحمل تلك الساعة .. بل إننى كنت أخشى شيئًا آخر .. كنت أخشى أن يصطدم بى الآخرون .. وخصوصًا المراهقين من الأولاد وهم قادمون من الاتجاه المقابل لى . وكنت إذا رأيت أكثر من اثنين منهم قادمين فى اتجاهى كنت أسارع بعبور الشارع إلى الرصيف الآخر .. أو ألتفت إلى فاترينة أحد المحلات مديرة ظهرى لهم ومقتربة تمامًا من زجاج الفترينة .. وأنا أتظاهر بالفرجة على المعروضات حتى يمروا بسلام ..

وكنت أفعل ذلك مرة حينما وجدت نفسى أحملق فى فاترينة مملوءة بالعديد من ملابس الـ « تى شيرت » الفرنسية والإيطالية الصنع من النوع الذى اعتدت أن أرتديه على جسدى القديم !! .. وتذكرت أنه لم يعد باستطاعتى ارتداء هذا النوع من الملابس ، وآلمنى ذلك أشد الإيلام فبكيت .. مما سبب لى ارتباكًا شديدًا لأن نظارتى الشمسية لم تكن معى وقتئذ .. وبعدها لم أعد أقترب من المحلات التى تعرض هذا النوع من الملابس .

وبدون الضمادة كنت أشعر بالألم أكثر من قبل .. كنت أشعر بآلام حادة قصيرة وكان معظمها فى موضع حلمة الثدى . مع أنه لم يعد هناك حلمة ثدى فى الواقع إذ دمرت مع باقى الأجزاء التى دُمرت فى هذه المنطقة من جسدى .. كان الألم إذن في الموضع الذى كانت توجد فيه الحلمة .. ولا عجب .. فقد سمعت عن أشخاص يشعرون بالألم فى قدم قد فقدوه ويقولون : إن ساقهم تؤلمهم ويشيرون إلى الوضع الذى كانت به الساق وليس هناك ساق !! لقد فعلت أنا تمامًا مثل هؤلاء .. فلقد كنت فى المنزل وشعرت بذلك الألم فى حلمة الثدى .. هكذا حدثنى هاتف فى داخلى فأجابه هاتف آخر : ولكن ليس لديك حلمة . فقال الأول : ولكنها تؤلمنى ، إنى أشعر بها ! .. عندئذ فتحت أزرار بلوزتى ونظرت إلى صدرى .. كان الصوت الثانى على حق . فلم تكن هناك حلمة بالطبع ..

وتحت ذراعى كنت مازلت أشعر ببعض الخدر أو التنميل .. وفى بعض الأحيان يكون هذا الخدر مثل الموت أو هو الموت ذاته .. وبمناسبة الحديث عن الموت .. فبعد إزالة الضمادة كنت قد توقفت عن التفكير فى الموت الكبير ولكننى لم أستطع أن أصرف فكرى عن الموت الصغير .. أعنى ما قاله (رومفيلد) عن فكرة حالة الموت فى الجسد .

وذات صباح بعد ليلة مؤرقة سيئة ، كتبت بعض الأفكار عن هذا الموضوع ، وكان هذا أول شيء أكتبه بعد الجراحة ، وأعتقد أنه كان البداية لهذا الكتاب .

كتبت ما يلى :

« الثانى من مايو .. إننى أشبه ما يكون بأرملة لم تدرك هذه الحقيقة فى أول الأمر .. ثم استيقظت فى الصباح لتجد المكان بجوارها فى السرير خال ، والمخدة بجوارها مرتبة ومنتفخة وعندئذ فقط أدركت ماحدث .. مثلما نظرت أنا إلى الموضع الخالى في جسدى .. وأدركت الحقيقة أنا أيضًا .

إن حالة الوفاة فى الجسد تشبه بشكل ما الوفاة الحقيقية .. فكما أن المرء يتذكر الموتى بمحبة حتى لكأن المتوفى يبدو أكثر فضيلة وأكثر روعة من حقيقته ، أتذكر أنا ثديى الأيسر بحب حقيقى !! ما أسخف هذا !! لماذا أفكر بهذه الطريقة ؟ !! مَنْ مِن النساء تنظر إلى نفسها فى المرآة وتقول : يالى من محظوظة إذ إن لى ثديين .. لا أحد يفعل هذا أو حتى يفكر فيه . ولماذا لا أفكر فى باقى أجزاء جسمى بنفس الطريقة .. وأشعر مثلاً بالرضى والامتنان لأن لدى ذراعين ، وساقين ، وعقلاً يفكر ؟ ؟ ليس هناك من يفعل ذلك على الإطلاق ولا حتى أنا رغم ما جرى لى ..

الفرق بين موت جزء من الجسد وموت شخص هو أن الشخص الذى يموت يدفن أو يحرق وينثر رماده بعيدًا عن الأنظار .. كما أن الجزء الميت

من الجسد يدمر أيضا ويختفى عن الأنظار .. ولكن يبقى الفراغ الذى يخلفه مكانه .. تلك المساحة الخالية تبقى ، فالأرملة تستطيع أن تملأ دولاب زوجها المتوفى الخالى بملابسها هى وقد تملأ مكانه الخالى فى السرير برجل آخر أيضًا .. وربما يكون ذلك الرجل الآخر الحى أفضل كثيرًا من الزوج المتوفى .. وربما تحبه الزوجة أكثر .. ولكن ، ليس هناك شىء حى يمكن أن يحل محل الثدى الميت .. إنما فقط شىء آخر ميت موضوع فى صندوق أبيض يباع فى محل متخصص يمكن أن يحل محله .

إذن ، إذا لم يكن هناك شىء حى يحل محل ذلك الجزء الذى مات فماذا أفعل لأتخلص من ذلك الإحساس بالموت . فكيف أنسى ، إذا لم يكن من الممكن ملء هذه المساحة الخالية بشىء حى .. وكيف أنسى إذا كان هناك بجوار هذا المكان شىء يذكرنى دائمًا بما فقدت .. هو توأمه الآخر ، حتى إننى أوشكت أن أكره هذا الثدى لأنه يذكرنى بالآخر كلما نظرت إليه أو لمسته .. أكرهه لأنه يبدو غبيًا بمفرده وهو معلق هكذا منفردًا .. كشمعة واحدة فى جانب واحد من الطاولة ينقصها شمعة أخرى على الجانب الآخر .. أو أسَدٌ واحد على جانب واحد من مدخل مكتبة نيويورك .. فردة حذاء واحدة .. فردة جوانتى واحدة .. قدم واحدة .. يد واحدة .. ثدى واحد !! ! أوه يا إلهى .. يا إلهى .. ربما أكون قد جننت .

لا بأس من ذلك .. فإذا كنت قد جننت حقًا فسأذهب إلى مستشفى بعيد عن صخب المدينة ، وحوله حدائق مزروعة بالنجيل الأخضر الجميل .. وبها كراسى مريحة وممرضات عطوفات يرتدين الملابس البيضاء ..

ومن الغريب أننى كنت فى نفس الوقت الذى أكره فيه ذلك الثدى ، كنت أحبه وأحنو عليه كطفل وحيد .. أو كابن عاد من الحرب سالمًا . وكلما أحببته أكثر ازداد خوفى عليه .. خوفى من أن أفقده هو أيضًا .

هذا النوع من المشاعر المزدوجة أفرز انعكاسات مزدوجة أيضًا .. فأنا أكره ثديي ولذلك لم أكن أتحمل النظر إليه .. وأنا أحبه ، لذلك أنا أتحسسه باستمرار ، ربما لأتأكد من سلامته . وعندما كنت أتحسسه كنت أتحاشى النظر إليه .

وكان الدكتور (سنجرمان) قد أكد لى بالطبع أنه سيُعنى بى ، وأن أمُر عليه كل ثلاثة أشهر لمدة سنتين وكل ستة أشهر لباقى حياتى أو حياته .

وكنت أقوم بفحص صدرى مرتين يوميًّا ، وفى كل مرة لا أجد أى ورم ، فكنت أشعر بالروعة ولكن لمدة ساعتين فقط ثم يتكون القلق من جديد .. ومع نهاية اليوم أفحص صدرى مرة ثانية ولا أجد شيئًا ومن ثم أشعر بتحسن من جديد ولمدة ساعات معدودة إلى أن يحين اليوم التالى .

وغير الفحص المستمر الذى كنت أقوم به يوميًّا ، كان هناك شىء آخر .. القراءة فكنت أقرأ بنهم أى شىء وكل شىء أجده حول هذا الموضوع .. بل إننى كنت أقرأ عن كل أنواع السرطان .. سرطان الرئة ، سرطان الرحم ، سرطان الغدد ، عن السرطان حيثما كان .. وكنت أعيد قراءة بحث خاص بسرطان الثدى مرات عديدة وخصوصًا ذلك الجزء الذى يقول فيه دكتور (روث سندر) من مركز السرطان بنيويورك :

« إن المشكلة هو أن هناك ثديين ، فإذا حدث السرطان فى أحدهما ، فإن هناك فرصة لإصابة الثدى الآخر بنسبة ١٠٪ »

وعند هذه النقطة كنت أتوقف وأبدأ فى تحسس صدرى مرة ثانية .

« إن الدراسات التى أجريت على إحدى العينات ثم أجريت على الثدى الآخر ، أظهرت أن سرطان الثدى متعدد المركزية . إنه لا يبدأ فى خلية واحدة ثم ينتشر ، بل إنه من الجائز جدًّا أن تكون هناك مناطق متعددة للسرطان فى الصدر الواحد .. وهذا يفسر الخطر الذى يحيق بالثدى الآخر .

وبعد إجراء الفحص الشخصى الحتمى بعد قراءة هذا الجزء ، كان أكثر ما أخشاه أن يكون هناك ورم مختبئ ولا أشعر بوجوده .. وهذا الكلام ليس كله هراء بالطبع ، فهناك بعض الأورام لا يمكن الإحساس بها أو إدراكها باللمس ويؤمل أن يكشف عنها برسم الأشعة ولكن ، حتى هذه الوسيلة ليست كاملة أيضًا .

وخلال تلك الفترة كنت أتأرجح ما بين اليأس بسبب ما حدث لى والفزع مما قد يحدث .. فقد يكون فقدان الثدى الآخر أو ربما يكون الموت نفسه .. ولكن كان هناك شيء من الرحمة بى .. فحينما أكون فى أحد هذه الحالات ، لا أستطيع أن أفكر بالأخرى فى نفس الوقت . فحين كنت أتألم بسبب الجرح ، لم يكن يطرأ على فكرى الاحتمال الآخر ، أى إصابة الثدى الآخر .. أو .. الموت . وحينما تكون رأسى مثقلة بفكرة الموت فإن إحساسى بالألم يبدو تافهًا ضئيلاً لا يستحق التفكير .

فالحديث عن أحد أوجه البؤس يلغى الآخر تماما فيما يبدو . ولقد كان (آرثر) أول من لاحظ ذلك فقد كنت أخشى كثيرًا كأى امرأة تعيش فى مدينة صاخبة – حوادث السرقة والاغتصاب . وكنت أضع ثلاثة أقفال وسلسلة على الباب .. وحين أكون فى الشقة بمفردى أقفل كل الأقفال وأضع السلسلة أيضًا . ولكن (آرثر) لاحظ أننى بعد الجراحة وإزالة الضمادات لم أعد أفعل ذلك .. وحتى حين سألنى عن السبب ، لم أكن أدرك أننى أفعل ذلك .. ثم خيل إلى بعد ذلك أننى لم أعد أفعل ما كنت أفعل ربما لأننى لم أعد خائفة من الاغتصاب .. فمن ذا الذى يفكر فى اغتصابى الآن ؟ ؟ !!

الفصل السابع عشر :

كنت لا أزال أذهب إلى المكتب فى هذه الفترة المجنونة المضطربة وأخرج أيضًا فى الليل . ولم يكن جنونى يظهر للآخرين كثيرًا ، لأننى كنت قد بدأت أكتب أكثر وأضع جنونى على الورق مما جعل بالإمكان أن أبدو عاقلة .. ومن وقت لآخر يقع القناع وينكشف أمرى فى الأوقات العصبية .

ذهبنا فى إحدى الأمسيات إلى حفل عشاء وكان هناك كثير من المدعوين ذوى الشأن ومن كبار السن المحترمين ، هذا النوع الذى لا بد وأن تتصرف معه بحساب .. وتصادف أن جلست بجوار (جون هيوز) وهو مؤرخ معروف وكان يكتب خطب الرئيس أيزنهاور .. وتبادلنا بعض الكلمات ثم سألنى عن عملى ، فإذا بى أجيبه دون وعى : « لقد استئصل ثديى ، منذ فترة قصيرة وها أنذا أحاول أن أتغلب على ذلك .. وأحاول أن أتأقلم » وقال الرجل وقد أذهلته المفاجأة وتجمدت يده فى منتصف الطريق بين الطبق وفمه حاملاً الشوكة « أوه » .

ولم أدر لم تحدثت معه فى هذا الموضوع . ولم يكن ذلك النوع من الحديث أتناوله مع أصدقائى أثناء الأيام الأولى عقب الجراحة .. والرجل نفسه لم يكن صديقى وبالطبع لم يدر هو أيضًا ذلك المسكين لم قلت ذلك .

لقد قرأت مرة فى إحدى المجلات عن إحدى السيدات تقول : إنها وجدت نفسها ذات مرة تحدث إحدى الجالسات بجوارها فى الأوتوبيس عن موت زوجها .

كما سمعت أيضًا عن أناس يفضون بآلامهم وأفراحهم – بدون مناسبة – إلى أول شخص يصادفهم ودون سابق معرفة . ولكن لماذا نفعل ذلك ؟ هل لنصدم هؤلاء الناس ؟

ربما .. وربما أيضًا حتى لا نشعر بالوحدة أو لنتفادى الشعور بالوحدة . ولقد كنت قد جربت ذلك الشعور بالوحدة فى إحدى الحفلات التى حضرتها قبل أسبوع ، ولم أكن أريد أن أعيش هذا الشعور مرة ثانية .. كنت أريد أن أتكلم فهذا يقلل من جنونى فبداخلى جنون زائد عن الحد يقابله الكثير من العقلانية الظاهرة .. ومن المفيد أن تضيق المسافة بين الاثنين .

إننى بالطبع لا ألقى بالجنون الذى فى داخلى فى وجه أى شخص .. ولكننى حين أفعل ذلك أجنى خيرا من ورائه ، فبعدما يزول أثر الصدمة على محدثى .. تكون ردود أفعالهم على ما ألقيه عليهم من أخبار فى كثير من الأحيان ، هو إفشاء ما لديهم من أسرار وآلام تكون أحيانًا أكثر إثارة وإيلامًا من أسرارى وآلامى . فلقد اتضح مثلاً أن (هيوز) هذا له حكاية مثيرة . فبعد أن زال أثر المفاجأة ووجدت الشوكة طريقها إلى فمه استرسل فى الحديث عن حياته الخاصة وعن خوفه من الموت وغير ذلك من الحديث عن المشاعر المكبوتة فى داخل أغوار النفس البشرية .. وهو شىء يبعث الحياة فى كثير من الأحداث الاجتماعية التى لا طعم لها .

فكثير من الناس حين يستمعون لآلام الآخرين لا يلبثون أن يلقوا بما يعتمل فى صدورهم من مشاعر مكبوتة إلى الآخرين أيضًا .. وهذا لا يدهشنى على الإطلاق فقد سبق وأن مارست فى حياتى العملية هذين النوعين من المشاعر .. أن ألقى وأتلقى .. وكثيرًا جدًّا ما شجعت مثل هذا السلوك .

فحينما كنت أكتب عن بعض الشخصيات فى مجلة « لوك » ، فلكى أشجع بعض هذه الشخصيات على الحديث عن عواطفهم ومشاعرهم الداخلية كنت أظهر لهم أنا شخصيًا بعضًا من مكنون نفسى كى يسترسلوا فى الحديث عن أنفسهم دون حرج . وكانت دائمًا تلك طريقة ناجحة وأسلوب

عادل إلى حد ما .. وكان ذلك يجعل من لقائى معهم تبادلاً للحديث أكثر منه مجرد سؤال وجواب .. ولم أشعر يومًا أننى مضطرة أن أخرج كثيرًا مما بداخلى .. ومعظم الذين حاورتهم كانوا من نجوم السينما والسياسة وكان أغلبهم من النوع النرجسى الذى لا يهتم إلا بنفسه ولا يعير التفاتًا لما يشعر به الآخرون .. ولذلك لم أكن أستطرد فى الحديث عن نفسى ولكن فقط بالقدر الكافى الذى يشعرهم أننى قريبة منهم ولست فى برج عاجٍ .

ولقد أفادنى هذا الأسلوب إلى حد ما ، ونادرًا ما انبعث هذا الأسلوب دون أن يكون هناك عائدا لذلك . فقد كنت أحكى للناس عن الجراحة التى أجريت لى كلما شعرت بالرغبة فى الحديث عن ذلك ، رغم أن معرفتى ببعضهم تكاد تكون معدومة .. ولكننى لم أكن أتحدث عن ذلك مع الذين لا أشعر تجاههم بالحب .. ولم يكن رد الفعل لدى الآخرين متشابها فى كل الأحوال .. فلقد كان بعضهم يتجاوب معى وذلك بأن يحكى لى قصة لطيفة حدثت له شخصيًا .. وكان البعض الآخر يصدم ويمتقع وجهه وبعضهم يتهرب من هذا الموقف بأية وسيلة .

ولقد كنت أفهم تمامًا سبب ذلك .. فإذا كان المرء ضحية ، فلا يتوقع أن يكون محبوبًا فالناس لا تحب الضحايا .. والضحايا من أمثالى يعطون الآخرين إحساسًا غير سار ويجعلونهم يفكرون بتلك الطريقة : « إذا كان قد حدث لها هذا الشىء فإنه من المحتمل أن يحدث لى أيضًا » .

ومن منا يحب أن يتذكر ذلك ؟

وكان هناك شىء آخر مجنون يحدث فى تلك الفترة . فبينما كانت علاقتى بـ (آرثر) شبه متوقفة ، كانت علاقتى الرومانسية التليفونية مع (ديڤيد) فى أوجها . كان يتصل تقريبًا كل يوم ، وإذا شعر أن (آرثر) بجوارى ، كان

يعاود الاتصال مرة ثانية فى وقت آخر . كان يقول لى إنه يحبنى وقال لى أيضًا كيف أنه كان يتمنى الزواج بى دائمًا وحتى بعد زواجى من (آرثر) .

وكنت أستمع إلى كل هذا وأنا لا أعرف كيف أفكر . فقط كنت أحب أن أسمع هذا الكلام . وكنت أشعر بالخوف وبالذنب أيضًا ولكن ليس بدرجة كبيرة . فإذا أصيب المرء بالسرطان فمن حقه أن يكون مشاغبًا .. ولذلك استمريت فى الإنصات « لديڤيد » . وكنت أقول لنفسى أحيانًا إن ما أفعله لهو شىء سيىء للغاية بل هو الجنون بعينه ، ولكننى لم أستطع فى الواقع أن أوقف هذا الجنون ، ربما لأننى لم أكن فى الواقع أحاول ذلك .

ولم تكن هذه هى أول مرة أفقد فيها السيطرة على نفسى ، ولكنها كانت المرة الأولى التى كنت راغبة فى أن أكون كذلك .. وكان ذلك مخيفا للغاية .. ولكننى مع ذلك كنت راغبة فى هذه المغامرة .

كان واضحًا أننى لم أكن أنوى أن أجعل قصة الثدى المفقود هذه سرية على الرغم من تحذير إحدى صديقاتى (هيلين ماركيل) ، وقالت لى حينذاك إن صديقة أخرى لها كانت قد أجريت لها نفس الجراحة منذ خمس سنوات مضت وهى بصحة طيبة الآن ولكنها لم تندم على شىء مثل ندمها على أنها حدَّثتْ الآخرين فى هذا الشأن .

حينما سمعت منها ذلك ، توقفت عن التحدث فى هذا الشأن ، ولمدة يوم كامل أغلقت فمى تمامًا . ولكنى لم أحتمل أكثر من ذلك .. وماذا يعنى هذا الآن !! ؟ ؟

فلقد كنت قد تحدثت تقريبًا مع نصف العالم فى هذا الشأن . ولماذا إذن لا أدع النصف الآخر يعرف أيضًا ؟ وغير ذلك فلقد كنت قد قررت أن أقول للناس حكايتى . فإن ذلك مفيد للطرفين لمن يحكى ولمن يستمع ..

لماذا يصر الناس على إخفاء مصائبهم عن الآخرين ، الذين هم بدورهم ليسوا فى مأمن من سهام القدر إن آجلاً أو عاجلاً . لماذا إذن هذا التظاهر السخيف بالقوة التى لا تقهر . فكثير من الناس تصيبهم سهام القدر فى وقت مبكر من حياتهم وبصورة قاسية أحيانًا .. ماذا فى ذلك ؟ ؟

لقد أصبح الآن من السهل أن يتحدث المرء عن إصابته بسرطان الثدى خاصة بعد إعلان السيدات الأوائل فى أمريكا وغيرهن من السيدات المرموقات فى أمريكا عن أنفسهن . إن اعتراف (بتى فورد) و(هابى روكفللر) وقبلهن (شيرلى تمبل بلاك) و(مارفيلابيه) قد جعل من سرطان الثدى شيئًا مقبولاً اجتماعيًا .

وكما أن الاعتراف بالشواذ جنسيًا وقبولهم فى الحياة العامة ، جعل من السهل على باقى الشواذ الخروج من مخبئهم ، كذلك فعل اعتراف السيدة الأولى فى أمريكا بإصابتها بسرطان الثدى . فلقد ساعد كثير من النساء العاديات على أن يتحدثن عن أنفسهن دون حرج . ليس فقط النساء العاديات ، بل إن هناك من النساء الشهيرات ممن أجرين مثل هذه الجراحة ولم يخرجن من جحورهن حتى عام ١٩٧٥ وبعد عشرين عامًا من الاختباء .

ويبدو أن ظهور عدد أكثر من النساء ابتلين بهذا المرض يرجع إلى أن عددًا أكثر من النساء بدأن فى التحدث عن مرضهن أكثر من ذى قبل .

إن الاعتراف الجديد جعلنى أتعجب كيف تحملن أن يختبئن كل هذه السنين وكيف كان الأمر بالنسبة لهن . لقد عرفت واحدة هى (جاكلين سوزانا) لم يعرف أحد بمرضها حتى ماتت غير زوجها فقط .

أشعر كم ذلك صعبًا على المرأة وإلى أى مدى يكون شعورها بالعزلة والوحدة .. كيف يمكن أن تحتمل امرأة كل ذلك وحدها .. ولكن يبدو أنه بالنسبة لبعض النساء يكون الصمت أكثر احتمالاً من الحديث فى هذا الأمر .

لقد كانت (جاكلين سوزانا) امرأة ناجحة بمعنى الكلمة وبمقاييس المجتمع للنجاح أى الشهرة والمال ، وكانت تحب نجاحها بشكل واضح وتتحدث عن ذلك بصراحة وجرأة . وكانت فائزة دائمًا وتحب دائمًا أن يذكرها الناس كذلك وأن يفكروا فيها كفائزة دائمًا .. وخسارة ثدى طبقًا لمقاييس المجتمع ومقاييسها هى أيضًا يجعلها تقل درجة عن الرجل الكامل .

وسواء كانت هى على صواب أم على خطأ ، فإذا كان للمرء نفس مبادئها وأفكارها وأيضًا نفس شعورها ، فلابد أنه سيتصرف مثلها تمامًا .. ومن الواضح بالنسبة (لجاكى) أن اهتزاز صورتها لا يساوى الراحة الناجمة عن الإفضاء بسرها .

وحتى نحن الذين نعترف بما جرى لنا فإننا نحاول بكل الطرق أن نخفى الأثر الناجم عن ذلك .. ففى داخل المنزل لم يكن يهمنى أن أضع ذلك الشىء الصناعى ، ولكننى لم أكن أجرؤ أو أحلم بالخروج بدونه .. ومهما كان الثدى صغيرا فالفرق واضح بين الناحيتين من صدرى لدرجة أن أوسع الثياب لا تستطيع أن تخفى هذا الفرق .

معنى ذلك أنه من الآن فصاعدًا إذا طرق شخص الباب ، أو كان على أن أخرج لألتقط رسالة أو طردًا ، أو كان على أن أواجه أحدًا غير (آرثر) أو أمى أو الدكتور (سنجرمان) كان لابد إذن أن أضع هذا الشىء فى صدرى .

وفى أحد الأيام وكان ذلك بعد أسبوع من رفع الضمادات ، كان على أن أذهب إلى السوق القريب لشراء بعض الطلبات اللازمة لإعداد وجبة فراخ بالزيتون . وكنت فى مثل هذه الحالات وقبل استئصال الثدى ، أضع نفسى فى زوج من البنطلونات وأرتدى فوقه قميصا

وأهرول خارجه . ولكننى الآن كان علىَ أن أضع الصديرية وأثبت فيهـا هـذا الشيء المصنوع من النايلون ، وعندئذ فقط أكون جاهزة للظهور على الملأ فى السوق .

وفجأة أصابنى الجنون من هذا الروتين .. اللعنة ، لماذا لا يمكننى الخروج فورًا إلى السوق لشراء علبة زيتون بحالتى هكذا .. من يعنيه ذلك بحق الجحيم ؟

ولكننى لم أجرؤ على ذلك أبدًا .. ربما لأننى أنا التى يهمنى ذلك فى المقام الأول .

قد يلاحظ الناس الفرق .. ولكننى لن أحتمل مواجهة نظراتهم .. لن أحتمل الصدمة والدهشة على وجوه الآخرين .. ففى أمريكا ، الأجسام كاملة والأسنان مستقيمة ، ورؤية شخص مشوه – مثلى – تُصيب بالإحباط .. إذ ليس من الوطنية أن يكون المرء مشوهًا .

وتذكرت أول مرة رأيت فيها شخصًا مشوها وكان عمرى ست سنوات تقريبًا وكنت أقف على رصيف المترو مع أمى . وكان هناك رجل على مقربة منا يبيع أقلام الرصاص .

وقد لفت انتباهى لأنه كان أقصر منى .. وكانت هذه أول مرة أرى رجلاً ناضجًا أقصر منى . والسبب أن ساقيه كانتا مبتورتين . وتجمدت فى مكانى حين رأيت ذلك .. لأن الأشخاص الوحيدين الذين رأيتهم غير كاملى الأجسام ، كانوا وحوشًا خيالية أراها فى الكتب ولم يكونوا أشخاصًا حقيقيين .

وأخيرا جاء القطار وجذبتنى أمى من يدى وهى تسألنى ماذا بى ولم أعرف كيف أقول لها فأجبتها بلا شىء .

تذكرت هذه الحادثة حينما ذهبت إلى محل البقالة لأشترى الزيتون وأنا أرتدى ذلك الجهاز . وأنا أرتديه ، أبدو طبيعية ولكن من الغريب أننى كنت أفكر ماذا ستفعل طفلة فى السادسة لو رأتنى بدون ملابسى .. لا شك أنها ستفزع مثلما حدث معى وأنا أرى ذلك الرجل عند المترو .

شىء آخر تذكرته وأنا أجذب شيش نافذة حجرة نومى قبل أن أخلع ملابسى . فإغلاق شيش النافذة شىء كنت أفعله كل ليلة طوال حياتى حتى لا يتلصص علىّ أحد هؤلاء الفضوليين فيغريه جمال جسدى باقتحام المنزل ومحاولة اغتصابى . ولكننى الآن أدركت أننى أفعل ذلك لسبب آخر .. ألا وهو ألا يرى أحدهم هذا الجسد ، فيغمى عليه أو يفر هاربًا .

الفصل الثامن عشر :

إن ذلك الثدى المزيف لم يكن مجديا أبدًا ، ولم أكن أعرف أبدًا كيف أبقيه فى مكانه ثابتًا . حتى حينما كنت أثبته بالدبابيس وأضيق الصديرية إلى أقصى درجة ، فإنه بعد أقل من نصف ساعة يطفو من جديد إلى أعلى مثل العوامة . وقد أنجح أحيانًا فى أن أبقيه فى مكانه أكثر من ذلك بقليل إذا ضيقت الصديرية إلى أقصى درجة ممكنة ، ولكن ذلك كان يؤلمنى إذ ينغرز فى تجويف الصدر مكان الجرح تحت إبطى . كما أن هذا الشىء الملعون أيضًا لم يكن له حلمة ... ولم يكن هذا ليهمنى لو أن حلمة الثدى السليم الآخر لم تكن ظاهرة بشكل لافت ... وكان الحل الوحيد هو العودة إلى محل الرعب ذلك الذى يبيع تلك الأشياء الصناعية من أجل شراء ثدى بمواصفات خاصة .

ولكن الزيارة الثانية كانت أقل رعبًا من الزيارة الأولى . كان لديهم أنواع مختلفة وبأحجام مختلفة (كالأحذية تمامًا) وكانوا متأكدين من أن إحداها لابد سيناسبنى .. « ثدى للبيع » . يالها من تجارة .. إنها تمامًا كأى تجارة أخرى .

كان لديهم ثدى صناعى يناسب مقاسى وكان مصنوعًا من السيليكون ، وناعما ولونه وردى بلون الجسم ووزنه مناسب .. ولكن كان عيبه الوحيد أنه لم يكن له حلمة . وقلت :

– هل لديكم واحد مثل هذا ولكن له حلمة ؟ وقالوا بدهشة :

– حلمة ؟ ؟ !! يالها من فكرة !!

ولم يكن لديهم مثل هذا الشىء الذى أطلبه ولكن كل ما لديهم هى هذه الأشياء المفلطحة فقط .. وشرحت لهم مشكلتى مع الحلمة الباقية وكيف أنها بارزة ظاهرة .. وقابلنى صمت شديد من جانبهم وكأننى نطقت كفرًا ..

والتقطت الثدى الأصلى المصنوع من الداكرون وألقيته فى صديريتى دون أن أثبته بالدبابيس وعندما وصلت إلى المنزل كان هذا الشىء قد طفا إلى ما يقرب من عنقى .

رائع !! هكذا فكرت .. إننى إذن منبوذة فى مجتمع المنبوذين . إننى لست فقط امرأة ذات ثدى واحد فى عالم ثنائى الثدى .. إننى أيضًا امرأة ذات حلمة بارزة لثدى واحد فى عالم أحادى الثدى مفلطحى الحلمات . وتذكرت أغنية للأطفال كنت قد شاهدتها على التلفزيون قبل أسابيع ، تحكى عن ولد صغير له رأس مستدير يعيش فى عالم كل الناس فيه لهم رءوس مدببة ، ولذلك نبذوه وأبعدوه إلى غابة بعيدة حيث لا يهم أن تكون له رأس مستديرة أو مدببة لأنه ليس هناك أحد ليراه .

واتصلت بجمعية (الوصول للشفاء) وقالوا لى عن مكان يبيع مثل هذه الأشياء فى كاليفورنيا . واتصلت بالمختص فى كاليفورنيا وقال لى : إنهم فعلاً يصنعون الحلمات . وأنها تلبس بداخل الصديرية ، وقال : إنه سيرسل لى الكتالوج ومعه نشرة بالتفاصيل .

وكنت قد بدأت تصوير عمل جديد خلال ذلك اليوم ، وكنا سنستأنف العمل خلال الليل أيضًا . كانت المشكلة أنه قد استقر فى ذهنى أننى لن أستطيع الخروج من المنزل دون هذه الحلمة .. وخطر لى خاطر غريب أننى أستطيع أن أصنعها بنفسى .. يكفى أن ألصق شيئًا صغيرًا مستديرًا بذلك الثدى المصنوع من الداكرون لتكون لدى حلمة وتناولت صندوق الحياكة وأخذت أبحث بين بكرات الخيط والأزرار والدبابيس والإبر عن شىء يصلح لهذا الغرض . وأخيرًا وجدت فى أحد أركان الصندوق شيئًا أسود ملفوفًا تحت زرار أخضر .. وكانت قطعة صغيرة من قماش أسود تشبه الحلمة . وأدركت فى الحال أن هذه هى الشىء المطلوب . وخلعت

بلوزتى على الفور وقارنتها بحلمة ثديى الأيمن التى لازالت موجودة فى مكانها ووجدتها مطابقة تمامًا . وقلت لنفسى : هذا ما أريده تمامًا كان الحجم والشكل ملائمين تمامًا واللون أسود .. ولكن ماذا يهم اللون فأنا بالطبع لا أنوى أن أرتدى بلوزة شفافة .

وما إن بدأت فى تثبيتها بحماس حتى حضر (آرثر) وسألنى :

– ماذا تفعلين ؟ فقلت :

– لقد اخترعت لتوى حلمة وهأنذا أحاول تثبيتها .

كان هدفى الثانى هو أن أستغنى عن مشد الصدر (الصديرية) ، فبعد ذلك بأيام قليلة اشتريت بكرة من الشريط اللاصق الذى يستعمله الجراحون (البلاستر) ثم ألصقت الثدى الصناعى بحلمته الجديدة إلى صدرى بشريطين من أعلى وشريطين من أسفل ثم ارتديت قميص أسبور (تى شيرت) وتأملت نفسى من الأمام ومن الجانب وكانت النتيجة مدهشة تمامًا . ولم أطق صبرًا على الانتظار ووددت لو أذهب لأرى أصحاب محل بيع هذه الأشياء الصناعية اختراعى . وغاظنى كثيرًا أننى لن أستطيع أن أجعل كل شخص أعرفه يرى بنفسه اختراعى المدهش ..

لقد كان الزهو بالاختراع قويًا ، ولكنه لم يكن أقوى من المشاعر الأخرى كالإحساس بالتشوه لقد حولنى هذا الإحساس إلى شىء لم أكنه من قبل .. حولنى إلى امرأة متواضعة ... .. لقد كان هناك بوتيك فى الشارع الثالث والخمسين وقد توجهت إليه فى أحد الأيام ، ولكن ما إن تذكرت حجرات خلع الملابس حتى هرولت خارجة منه فى الحال .

بدا لى اختفائى وسط الزحام كشىء معقول ومقبول .. أما أن أختبئ داخل منزلى فذلك شىء آخر .. وحتى ذلك الحين لم يكن قد رآنى دون أربطة سوى الدكتور (سنجرمان) وممرضته . وكان من المحتم أن يرانى (آرثر)

أيضًا إن عاجلاً أو آجلاً ولم أكن لأستمر فى الاختباء داخل منزلى . وكنت أتمنى أن يطلب منى أن يرى بنفسه ولكنه لم يفعل ، ولذلك ففى أحد الأمسيات وكنت فى البانيو آخذ حمامًا ناديته :

– آرثر !!

– ماذا ؟

– تعال هنا لحظة .

وفتح الباب برفق واختلس النظر ، وكانت هناك قاعدة غير مكتوبة بيننا منذ أن أزلت الضمادات وهى أن يكون « حمامى خاص » وكانت يدى وذراعى الأيسر يغطيان الجانب الأيسر من صدرى . وسألته :

– هل تريد أن ترى .

– بالتأكيد .. ... . قالها وهو غير مستريح للفكرة الطارئة .

وأدركت فجأة أنها لم تكن فكرة طيبة على الإطلاق ولكن .. بعد فوات الأوان . وكنت قد أنزلت ذراعى ليرى فحملق جامدًا ثم قال :

– هذا ليس سيئًا جدًا ثم أردف قائلاً :

– إن هذا لا يزعجنى بالمرة .

– هذا شىء جميل .

ثم انزلقت تحت المياه داخل البانيو .

وألقيت نظرة على الكتالوج الذى وصلنى من كاليفورنيا وبحروف كبيرة سوداء على خلفية زرقاء كتبت كلمات مثل : « الزميل الملائم » وبحروف أصغر كتبت كلمة « الثدى الصناعى » وفى داخل الكتالوج كانت هناك صورة لسيدة ترتدى رداء يقصد به أن يكون مثيرًا ، وهى تقدم العشاء لرجل تحوم حوله بلهفة وشوق .. ثم كلمات مثل :

استعيدى ثقتك بنفسك واستمتعى بالحياة . وفى الصفحات التالية كان هناك حوالى عشرين سؤالاً وإجابة مثل :

س : هل هذا الثدى الصناعى ممتلىء بالسائل ؟

ج : لا ، إطلاقا ، فإن ذلك النوع الممتلئ بالسائل من الممكن أن يسبب حرجًا بالغًا . وهو أيضًا ليس من الإسفنج الذى يُمتص ويتآكل ويتحلل .

ثم بعد ذلك يقول لنا الكتالوج : إن هذا النوع المسمى (ماتش ميت) بمعنى « الزميل الملائم » مصنوع من نوع خاص من الفينيل البلاستيك المعالج كيمائيًا بمعنى أنه لا يتأثر بإفرازات الجسد أو أى عناصر خارجية . وتعجبت فى نفسى ، عناصر خارجية مثل ماذا ياترى ؟ ؟ الرياح والمطر والجليد والحريق ؟ ؟ ؟ !! !

لا بأس بهذا كله ، ولكن كاليفورنيا بعيدة جدًا ، أبعد من أن يذهب إليها المرء من أجل حفنة من الفينيل ... وقررت أن أقوم بزيارة إلى (تيريز لاسر) رئيسة جمعية (الوصول إلى الشفاء) وهى أحد فروع جمعية السرطان الأمريكية . وكانت لمسز (لاسر) شهرة كبيرة فى معرفة كل شىء يتصل بتلك الأجهزة الصناعية وقد أكدت لى هذا المعنى بنفسها حين قالت لى على التليفون وأنا أحدثها :

– إذا لم أكن أدرى به فليس لهذا الشىء وجود إذن !!

والمسز « لاسر » سيدة فى منتصف الخمسينات من عمرها ذات شخصية مسيطرة وحين ذهبت إليها كانت تجلس خلف مكتب كبير عليه أكوام من الصور والخطابات والصدور الصناعية التى أرتنى إياها على الفور .

وكانت كل هذه الصور والخطابات عن نساء أجريت لهن تلك الجراحة .

وأمسكت بيدها إحدى الصور لعروس شابة وقالت :

– أليست رائعة ؟

ووافقت على ذلك واستدرت من فورى أبحث عن الثدى المنشود ، وقبل أن أنتقل إلى موضوع الحلمات نهضت وذهبت إلى دولاب فى الناحية الأخرى من الحجرة وعادت وهى تقول لى بكل فخر : « جربى هذا » .

وناولتنى ثديا ناعم الملمس وردى اللون شبيهًا بتلك الأشياء التى رأيتها فى محل الرعب ذاك وأيضًا بلا حلمة . ولكن له وزن إلى حد ما . وتفحصته بعناية وقرصته ثم قلت :

– ملمسه لطيف ولكن أعتقد أنه كبير جدًّا .

– ليس لدى آخر أصغر منه ، جربيه على أية حال .

وأخذته ووضعته داخل مشد الصدر من الناحية اليسرى ، وقالت المسز (لاس) .

– إنه ملائم جدًّا .

ولكنه لم يكن كذلك ، فقلت :

– ألا ترين أنه كبير نوعًا ما ؟

وقفزَتْ من جديد لتفتح درجًا آخر واتجهت ناحيتى ومعها شىء آخر مصنوع من الداكرون وقالت لى :

– ضعى هذا فى الناحية الأخرى .

وبمنتهى الطاعة حشوت ذلك الشىء داخل الجزء الأيمن من مشد الصدر ، عندئذ قالت المسز (لاس) وهى تكاد تصفق بيديها :

– الآن ، النتيجة مدهشة !!

كانت هناك سيدتان تنتظران بالخارج وأخرى على التليفون وألقيت نظرة سريعة على المرآة الطويلة خلف باب حجرتها .

أنا الآن ذات صدر كبير ممتلئ أكبر من أى وقت مضى فى حياتى .. وشكرت مسز (لاس) التى كنت أشعر أنها فعلت أقصى ما تستطيع ، ووضعت الثدى القديم فى حقيبتى وأسرعت إلى المنزل وأنا أرجو ألا أقابل أحدًا أعرفه فى الطريق .

وفى اليوم التالى قررت أن أصلح من الحلمة التى صنعتها بنفسى . ولحسن الحظ كان هناك فرع لشركة سنجر لماكينات الخياطة عند مركز « روكفللر » قريب جدا من إن . بى . سى . محطة التلفزيون الأمريكية حيث أعمل . وبعد انتهاء عملى ذهبت إلى هناك واتجهت مباشرة إلى قسم الأزرار وسألت البائعة :

– هل لديكم أية أزرار مصنوعة من القماش ؟

فأجابت بالنفى وأرتنى أنواعا من الأزرار التى لديهم . كان هناك مئات منها ، مقسمة حسب الألوان . وركزت على الأزرار ذات اللون البنى الفاتح وقلت لنفسى : « إنها تبدو جميلة » وتناولت لوحة من الأزرار المستديرة ذات اللون البنى الفاتح تبدو ناعمة ولمست إحداها وكانت من البلاستيك ولكنها لم تكن ناعمة على الإطلاق ... وكانت هناك أزرار أخرى ذات اللون البنى الفاتح الملائم ولكنها كانت صلبة جدًا وكبيرة جدًا . وكانت البائعة ترمقنى بنظرة مريبة وأنا أتفحص الأزرار كما لو كنت أفعل شيئًا غير لائق بأزرارها . وتحركت قليلا فوجدت نفسى وجها لوجه أمام القسم الذى يبيع « الكُلَف » ملفوفة حول أكوام من الورق المقوى . كان هناك كميات تكفى لتزين البيت الأبيض كله .

وتوقفت عند آخر صف من أسفل . كان هناك نوع من الكلف على شكل كرات صغيرة مستديرة .. كرات مستديرة !! ما أروع هذا !! كان بعض هذه الكرات ذات لون بنى مذهب .. إنها تمامًا فى مثل حجم حلمة

الثدى وفى نفس لونها أيضًا ، وإن كانت أكبر قليلاً لا بأس .. إنها لا بأس بها على الإطلاق .. وفكرت وأنا أحاول أن أخفى تأثرى ، ثم انحنيت لألمس إحداها لمسة خفيفة ، إنها ناعمة تمامًا مثل حبة البسلة المطهية .. ونظرت خلفى ووجدت أن البائعة ذات الشعر المجعد لا تزال ترمقنى فى ريبة .. وشددت ظهرى ، ومددت قامتى وقلت بلهجة واثقة :

– سآخذ هذه .

وجلبت البائعة اللوح وسألتنى كم يازدة أريد . وفكرت قليلاً ليس من المعقول أن أشترى كرة واحدة فقلت على الفور :

– ربع ياردة من فضلك .

ونظرت إلى وهى تقول :

– إن نصف ياردة هو أقل مقدار نبيعه هنا . فقلت : لا بأس .

وأعطيتها ستة وعشرين سنتا ومضيت مسرعة .

وبمجرد أن وصلت للمنزل خلعت الحلمة التى كنت قد صنعتها بنفسى من قبل بمقص الأظافر وخِطتُ الحلمة الجديدة . كانت رائعة ومطابقة تمامًا . وكانت هناك سبعة كرات إضافية متبقية من نصف الياردة الذى اشتريته ووضعتهم فى صندوق الحياكة الخاص بى .

ياللعجب ! ثمانى حلمات بربع دولار فقط .. وابتسمت لنفسى وأنا أشعر بالرضى .

وبعد أيام عدت إلى السيدة (لاسر) لأعيد الثدى الصناعى ولاحظت أن هناك سيدة تقف خارج مكتبها تقرأ إحدى المجلات . كانت فى مثل سنى تقريبًا وكانت حلوة التقاطيع وناعمة بشكل ما . ووقعت عيناى على صدرها .

كانت ترتدى قميصًا أسبورا (تى شيرت) وكان الفرق بين ثدييها واضحًا جدًا . كان أحدهما مستديرًا والآخر مدببًا .

وأشارت لى السيدة (لاسر) أن أدخل وأغلق الباب ، وهمست لى :

— هذه المسكينة خرجت من المستشفى منذ ثلاثة أسابيع فقط وزوجها يتوقع منها أن تفعل كل شىء . إنه يدفعها بشدة ، وسألتها ماذا تعنى بذلك فأجابت :

— إنه يظن أن الطريقة الوحيدة لمعالجة هذه الأمور هى أن يضغط عليها — بالنسبة لمسألة الجنس — وهى مكتئبة للغاية ولقد تحدثت معه فى هذا الشأن ولكنى لا أعرف إن كان هذا يجدى ، وسألتها :

— كيف ذلك ؟ وهل معظم الأزواج الذين فى مثل هذه الظروف يتصرفون كذلك ؟

— إن معظمهم لا بأس بهم من هذه الناحية ولكن المرأة نفسها هى المشكلة واستطردت قائلة :

— إن أسوأ مشكلة تقع بين الأزواج والزوجات الذين هم فى مثل هذه الظروف هى سوء الفهم ، ففى بعض الأحيان يحاول الزوج أن يكون مراعيًا لظروف زوجته وحالتها النفسية فلا يضغط على زوجته بالنسبة لمسألة الجنس هذه ، فتترجم الزوجة هذا التصرف من ناحية زوجها على أنه قد فقد الرغبة فيها أو أنها فقدت جاذبيتها تجاهه . أو قد تشكو من أن زوجها يضغط عليها كثيرًا من هذه الناحية .. ولكن المشكلة الكبرى فى الحقيقة هى ليست فيما يشعر به الأزواج تجاه زوجاتهن بل ما تشعر به الزوجات تجاه أنفسهن .

وأنهت كلامها ونظرت إلى وحين لاحظت مدى اهتمامى بما تقول استمرت فى الحديث قائلة : إنها تعرف نساءً لا يحتملن النظر إلى أنفسهن

أبدًا ، وتعرف امرأة قتلت نفسها أيضًا ، وأخرى تنام فى سرير منفصل عن زوجها بقية حياتها .

وسألتها إن كان عمر المرأة يؤثر فى رد فعلها تجاه مثل هذه الجراحة فأجابت :

– ليس للسن علاقة بهذا الشأن إطلاقًا ، إنما له علاقة كبيرة بغرور المرأة واعتزازها بنفسها فالمرأة التى قتلت نفسها كانت فى الستينات من عمرها . ولكنها كانت مغنية أوبرا سابقة وبالرغم من سنها فقد كانت تظن نفسها جميلة . وحين حدث لها هذا الشىء لم تستطع ببساطة أن تحتمله .. وإلى جانب هذه الحالات الشاذة هناك مشاكل أخرى أيضًا .

وسمعت نفسى أقول لها :

– من الأفضل أن أذهب الآن .. شكرًا على كل شىء .

وفجأة وجدتنى أندفع خارجة .. فعلى الرغم من الحكايات المبالغ فيها التى سمعتها فى المستشفى عن مثل هذه الحالات إلا أنها لم يكن لها أبدًا ذلك التأثير السيئ الذى تركته حكايات مسز (لاسر) بى .. لقد كانت مجرد أحزان نساء أخريات .. أما الآن وقد جربت بنفسى بعضًا من هذه الأحزان فالأمر مختلف .

وعلى الرغم أنه لم يكن لمسز (لاسر) ذنب فيما حدث لى ، إلا أن حكاياتها قد سببت لى حالة من الاكتئاب بقية ذلك اليوم والأيام التالية له . ولم أكن قادرة أن أزيح من رأسى صورة تلك المرأة الجميلة المسكينة التى رأيتها عندها ذلك اليوم .

ولمعت فى ذهنى صورة أخرى هى صورة (بتى فورد) زوجة الرئيس الأمريكى وهى تلوح المجماهير من شرفة البيت الأبيض . وأدركت على الفور قدر الدعاية التى أحاطت بهؤلاء النساء الشهيرات وعن شجاعتهن ..

وأدركت أكثر من أى وقت مضى القدر الضئيل جدًا من الدعاية أو عدمها بالمرة عن أيامهن السوداء ومعاناتهن مع المرض . شىء طبيعى !! !! ! ولكن لماذا يكون هذا شيئًا طبيعيًا . أن يخفين أيامهن السوداء عن أعين الناس ويظهرن فقط الجانب المضىء من الصورة .

كانت كل هذه الصور موحية وملهمة لى .. وتساءلت فى نفسى كم من النساء يمكننى مساعدتهن بشكل أكثر فاعلية إذا علموا بالجانب الحزين من تلك القصص جنبًا إلى جنب مع قصص الشجاعة والبطولة .. لو أننى أستطيع الكتابة عن ذلك ، لأمكننى مساعدتهن ... . وقررت فى ذلك اليوم وأنا أستقل الأوتوبيس من الشارع الثالث أن أقص قصتى الحزينة لكى يشعر كل من عانى من هذا المرض أن لهم رفقاء فى تلك الرحلة ... .. وأجعل هؤلاء النساء أصحاب الشجاعة يشعرن بمزيد من الشجاعة ...

ولقد شغلنى الاهتمام بالثدى الصناعى عن الحزن والأفكار الكئيبة لفترة .. ولقد كان من الطبيعى لمن كان فى مثل حالتى أن يقضى الساعات يفكر فى الثدى والحلمات المثبتة ولكن ذلك فى الواقع لم يشغلنى تمامًا عن الأفكار المظلمة والمشاعر الكئيبة .. ففى بعض الأحيان تتسلل هذه الأفكار خلسة مثل رد الفعل الذى حدث لى وأنا أستمع لحكايات مسز (لاسر) .

وكانت هناك لحظات سيئة تمر بى . ففى أحد الأيام مثلاً بعد أن استعاد ذراعى حالته الطبيعية تقريبًا . قررت أن أقوم بعمل بعض التمرينات الرياضية التى اعتدت أن أقوم بها كل يوم لمدة خمس دقائق وأنهيها بالجرى فى المكان مائة مرة . وعادة لم أكن أرتدى مشد للصدر وأنا أقوم بهذه التمرينات الرياضية . فكنت حينما أصل إلى الجزء الخاص بالجرى كنت أمسك بِثَدْيَيّ حتى لا يترجرجان أثناء الجرى ..

وفى ذلك اليوم وبعد أن انتهيت من أداء بعض التمرينات بدأت أستعد لفقرة الجرى فى مكانى مثلما اعتدت . ودون أن أشعر تحركت يداى لتمسكا بصدرى كالعادة . ولكن فى أقل من ثانية أرسل مخى إشارة إلى اليد اليسرى بأنه ليس هناك شىء تمسك به !! فأنزلت ذراعى الأيسر واستمررت فى الجرى فى مكانى ... ولكن .. كان على أن أتوقف قبل أن أصل إلى العدد مائة .. لأننى كنت أبكى بحرقة عندئذ ... !! !

وبعد ذلك بشهور وكنت فى إجازة قصيرة وفى حمام سباحة فى إحدى المناطق بفلوريدا وكنت أرتدى الثدى الصناعى الجديد الذى وضع فى جيب مخصص له فى أعلى المايوه الذى كنت أرتديه (والذى كان قد خيط خياطة إضافية من الأمام مسافة بوصة كاملة ليخفى علامة الجرح فى صدرى) ولذلك لم تكن عندى مشكلة « ثدى » كى تشغل فكرى . ومضى الوقت وكان يومًا رائعًا وأنا راقدة على أحد كراسى البحر والشمس عالية وحارة فوق رأسى ، وعقلى غائب تمامًا عن موقع الثدى على صدرى .. ثم نظرت لأعلى فرأيت فتاة تسير بالقرب منى وهى ترتدى مايوه بيكينى مختصر جدًا لونه فوشيا زاهى . وكانت تتبختر فى مشيتها متجهة إلى حافة الحمام .. وكان صدرها كبيرا ممتلئا . وانشغلت عنها بالقراءة ولكن كنت فى كل مرة أرفع عينى عن الكتاب أجدها تتمخطر تجاه منصة الغطس جيئة وذهابا مرات عديدة وحاولت الاستمرار فى القراءة ولكن دون جدوى .. فلقد استمرت هى فى الاستعراض واستمررت أنا فى النظر إليها .. وهكذا .. وقبل أن أدرك ما حدث لى كنت أنشج بفظاعة ... .. ولحسن الحظ كان معى نظارتى الشمسية لأخفى بها عيونى .. ولكن لم يكن معى مناديل ورقية ، فاندفعت إلى داخل الفندق لأصلح من شأنى .. ولقد احتجت إلى ساعة كاملة قبل أن أكون جاهزة لمغادرة الحجرة .. ومن يومها لم أذهب أبدًا إلى حمام سباحة !! !

وليست هذه الحادثة أسوأ من كثير غيرها والمشابهة لها من حيث الحقد على ذوات الصدور المكتملة وذلك في بادئ الأمر .. ولكن هذه الحادثة آلمتني أكثر من غيرها لأنها جاءتني في وقت لم أتوقع أن أشعر بمثل تلك المشاعر بعدما بدأت أتأقلم مع حياتي الجديدة . وربما كنت بدون وعي مني أتوقع أن مثل هذه المشاعر قد انتهت .

إن مثل هذه الحوادث ذكرتني أنه على الرغم أن شعوري قد تحسن تجاه ما حدث لي وأنه مستمر في التحسن مع الأيام .. فإن ما حدث لن ينتهي أبدًا .. أبدًا .

وبعد أسابيع من البحث ذهبت أخيرًا إلى (أن . أر . بور) من ميتشجان حيث استقبلني (دنيس لي) في بدروم المركز الجامعي الطبي .. وهو مختص بصناعة وعمل الثدي الصناعي حسب الطلب .. وهو الذي وعد بأن يصنع لي حلمة بارزة .. ومن اسمه توقعت أن يكون صيني الجنسية ولكنه لم يكن كذلك ، ولكنه كان شابا نصف أوروبي وأمريكي وكان أبوه يعمل طبيبًا للأسنان ويبدو أن مهنة والده قد تركت بصماتها على تجارة ابنه . إن طريقة المستر (لي) في صنع الثدي تتطلب أخذ نفس البصمة التي يأخذها طبيب الأسنان . الفرق هنا أنك نفسك موضع السن .. بمعنى أنك تجلس في كرسي يشبه إلى حد كبير كرسي طبيب الأسنان ثم توضع مئزرة أو (مريلة) مثل التي يستعملها طبيب الأسنان ، ولكنها هنا توضع حول الوسط بدلا من الرقبة ، ثم تؤخذ بصمة للصدر مثل التي تؤخذ للسن . وكان الأمر يبدو لي معقولاً حين شرح لي مستر (لي) ذلك ولكنني أعترف بأنه حين أجلسني على الكرسي وتجردت من ملابسي حتى الوسط ، وحين اقترب مني ومعه وعاء أصفر ممتلئ بمادة طبخت جيدًا تشبه إلى حد بعيد دقيق الشوفان المطهو وأخذ يفرشها كلها فوق الجزء العلوي من جسدي بملعقة بلاستيك .. عندئذ بدأت تساورني الشكوك .

لقد قال لى قبلاً عن دقيق الشوفان هذا إنه مادة مطاطية تتجمد وتتحول إلى كاوتش بنفس الطريقة التى تحدث فى الفم .

ولست بحاجة لأن أصف شعورى .. فحينما يتعلق الأمر بالصدر فإن الأمر يبدو مختلفًا . فى بادئ الأمر شعرت بهذه المادة باردة بشكل منفر ثم بعد عشر دقائق شعرت بها دافئة بشكل منفر أيضًا . وقبل أن تتجمد هذه المادة اتجه مستر (لى) ناحيتى ومعه إناء آخر ممتلئ بعجينة كريمية لاصقة . عندئذ لطخ هذه العجينة التى تشبه الكريمة فوق العجينة المتكتلة وغطى هذا كله بشاش كى تحتفظ العجينة بشكلها كما قال لى .

وحينما تجمد هذا الخليط وكنت قد بدأت أتساءل كيف سيخرجنى من وسط هذا كله التقط مستر (لى) هذا الشىء بأطراف أصابعه وجذبه قليلاً وإذا بالشىء كله ينزلق من فوق جسدى بنفس السهولة التى تنزلق بها قشرة الموز .. وقال لى مستر لى :

هذه كما ترين هى الصورة السلبية . وأخذ معه قالبى المطاطى إلى حجرة مجاورة .

– والآن نملأ هذا القالب بالحشو ، ونحصل بعد ذلك على الشكل بصورته الإيجابية ثم ننسخ صورة طبق الأصل من هذا الثدى من الطمى ، وعندئذ نحن نقوم بعمل الثدى الصناعى بدهن خليط خاص من مادة السليكون ، ومادة أخرى حفازة ، ويدهن هذا الخليط على الشكل الجديد ونتركه حتى يجمد ثم نقشره ونملأ ذلك القالب الأخير بالجلسرين حتى نصل إلى الوزن المطلوب ثم نكسى الظهر لدعمه .. وهكذا ...

كان يتكلم وأنا مازلت أجلس فى الحجرة نصف عارية وتلك العصيدة المتجمدة ملتصقة بالمئزرة البلاستيكية التى أرتديها وقلت وأنا أجاهد لأنهض من على الكرسى :

- إن هذا لشيء مثير حقًا .. وقال :

- دعيني أساعدك ، وقبل أن ترتدى ملابسك دعينا نلقى نظرة على هذه !

ثم ذهب إلى دولاب قريب من الحائط وأخرج منه قليلا من البطاقات عبارة عن عينات للألوان معظمها نحاسى اللون أو بنى فاتح . وسألته :

- لأى شيء هذه الألوان ؟

- هذا لكى نصل إلى اللون المناسب ، ورفع إحدى البطاقات قريبًا من بشرة ثديى الأيمن وقال :

- هذا يبدو مناسبًا . !! ثم استطرد قائلاً :

- من الطريف أن معظم النساء بصرف النظر عن لون بقية أجسادهن يفضلن هذا اللون للثدى الصناعى . ووافقته على ذلك وتعجبت ماذا سيفعل بباقى العينات إذن !!

ثم قال :

- والآن نرى اللون المناسب للحلمة .

قال ذلك وهو يمسك بالألوان الأغمق من اللون النحاسى ويقربها من حلمة ثديى ... ..

- .. ربما لو استعملنا هذا اللون وأضفنا إليه لمسة من الأزرق ... ثم رفع البطاقات الملونة وقال :

- أوكى .. يمكنك ارتداء ملابسك الآن .

ثم عاد إلى الحجرة بينما أرتدى مشد الصدر والثدى الصناعى ثم البلوزة فوقها . وحين لحقت به فى الحجرة الأخرى كان يجلس خلف مائدة ولم ألحظ الأشياء التى كانت فوق المائدة إلى أن قال :

– أعتقد أنك ربما تريدين معرفة ماذا نفعل أيضا غير ذلك ..

ووقع نظرى على اللوح الأخضر الموجود فوق تلك المائدة .. وكان هناك .. وياللمفاجاة .. ثلاثَ أُذن .. وأصبعان .. وأنف واحد .

وقلت دون أن أقترب أكثر :

– لمن هذه الأشياء . وأجاب :

– لأناس فقدوا أجزاء من أجسامهم بسبب السرطان أو بسبب الحوادث .. لقد جاءت إلى هذا الصباح إحدى السيدات وقد فقدت أصبعها الثالث فى معركة .

وسألته وأنا أحاول ألا أشير إليه :

– وهل أحد هذه الأصابع هو أصبعها البديل !! ؟ ؟ ؟

– أوه – لا ، إن أصبعها البديل لن يكون جاهزًا قبل أسبوعين . وأنت أيضا لن تتسلمى الثدى الخاص بك إلا بعد أسبوعين أيضًا .

وأردت أن أسال المستر (لى) المزيد من الأسئلة دون أن يكون بيننا هذا العرض البشرى .. ومن ناحية أخرى لم أكن أريد أن أجرح مشاعره بأن أطلب منه أن يبعد هذه الأشياء ... ...

وقررت أن أستمر فى الحديث وأنا أتجنب النظر إلى هذه الأشياء بمحاولة النظر إلى عينيه فقط .

وسألته :

– كيف يتأتى أن يكون الثدى الصناعى حسب الطلب شيئًا صعب الحصول عليه إلى هذه الدرجة .. أعتقد أن كل امراة فقدت ثديها بسبب السرطان تريد تمامًا بديلاً مماثلاً أقرب ما يكون إلى الشكل الطبيعى .

– إن النساء يردن ذلك ، لا بأس ، ولكن ليس من السهل صنعها ..

فكثير قد حاولوا ذلك ولم يوفقوا .. هناك العديد من الأخطاء يمكن أن تحدث ... كأن يكون ظهر الثدى مؤلما ، أو يكون الثدى ثقيلاً جدا ، وغير ذلك من الأخطاء التى يمكن أن تحدث . ثم ابتسم وهو يقول :

– إن (تيريز لاسر) لها نظرية حول سبب عدم وجود البديل الصناعى الملائم تمامًا للثدى ، هل تودين معرفة ماذا قالت :

– « لأن مثل هذه الجراحات تجرى للنساء فقط . هذا هو السبب الحقيقى – فإذا كانت مثل هذه الأشياء تحدث للرجال ويقطعون مثلاً خصياتهم فإنهم سيعملون جاهدين لصنع شىء بديل على الفور » .

وضحكت وقلت :

– إنها محقة ولا شك .. وكنت قد نسيت وجود تلك الأشياء ، ووقعت عينى دون أن أدرى على المائدة التى أمامى فأبعدت عينى على الفور ثم قلت :

– حسنًا ، من الأفضل أن أذهب الآن .

– سأصحبك إلى حيث يمكنك أن تجدى تاكسيا .

ولقد كان المستر (لى) لطيفًا معى بحق .. ومشينا عبر ممر طويل ثم صعدنا إلى الطابق الأرضى ثم إلى خارج البوابة . ووجدت تاكسيا فى الحال .

– شكرا جزيلاً وإلى اللقاء .

– إلى اللقاء . قالها وهو يبتسم ابتسامة لطيفة وينحنى قليلاً حتى يرانى من خلال نافذة السيارة . ثم أضاف :

– هناك فقط مشكلة تتعلق بهذه الأشياء . ففى حالة تسرب السائل من الثدى ، دعينى أعرف ... واندفعت السيارة مبتعدة .

الفصل التاسع عشر :

وفى نهاية الثلاثة أشهر كان هناك موعد مع الدكتور (سنجرمان) وكان هذا هو أول موعد لى معه منذ أن رفعت الضمادات ، وكنت أتطلع إلى هذه المقابلة وكأنها موعد غرامى ، وفى نفس الوقت كان يخالجنى خوف من احتمال أن يجد شيئا فى الثدى الأيمن .

وكانت النتيجة سلبية فى الجانبين ، لا أورام فى الثدى ولا أشواق تجاه دكتور (سنجرمان) أيضًا . مثل شخص كنت تراه جميلاً ثم صار قبيحًا من فرط البدانة فلم أعد واقعة فى غرامه مثلما كنت من قبل .. وهو أيضًا بدا أقل اهتماما بى ، ولكنه من الناحية الطبية فقد فحصنى فحصًا جيدًا وأبدى اهتمامًا بالثدى الصناعى الذى أستعمله ولكن بلا مشاعر خاصة .. فأنا الآن مريضة قديمة قادمة للفحص الدورى كل ثلاثة أشهر . بل إن أسلوبنا فى الحديث قد تغير أيضًا .

وبهذا التحول الجديد استطعنا أن ندردش بصراحة وإن كانت كلها دردشة حول زيارتى الأولى له قبل إجراء العملية . قال لى مثلاً : إنه كذب علىّ وقتها ، فلم يكن يعتقد أن احتمالات الإصابة بالسرطان لدىّ كانت ٧٠٪ أو ٦٠٪ ، بل إنه كان يعتقد أنها ٩٧٪ .. ثم جذب الكارت الخاص بى ، وقرأ ما كان قد كتبه فى ذلك اليوم « سرطان أنبوبى فى الأنسجة » .

إلى هذا الحد كان متأكدًا ، ولقد خمن سؤالى التالى فاستطرد قائلاً وهو يضرب بيده على المكتب :

– اسمعى ، لقد ندمت على أننى أخبرتك بهذا القدر من المعلومات ، لقد ندمت على ذكر أية أرقام أو نِسَب لك على الإطلاق . لم يحدث أن فعلت هذا من قبل ولن يحدث .. ولن أفعلها ثانية . لقد أخبرنى دكتور « سميث » كثيرًا عن شجاعتك وصلابتك وكان يقول لى : إنها مراسلة

صحفية .. إنها صحفية .. إنها تعرف كل شيء عن هذا المرض ويمكنها أن تتحمل الصدمة وتجتاز الأزمة . ثم بعد كل هذا .. انظرى ماذا حدث حين أخبرتك .. بدأت أكلمك عن أنواع الجراحات المختلفة وإذا بعينيك تتحولان إلى عينين من زجاج و .. » .

وقاطعته :

– انتظر لحظة كل هذا لأن رد فعلى كان مثل أى كائن بشرى لو كان فى مكانى . ليس معنى ذلك أننى لم أحتمل الصدمة .. أو أننى أضعف من أن أواجه الموقف .. لقد تحملتها ولذلك بكيت .. هذا كل ما فى الأمر .. ولعل هذا كان أفضل .. لقد ساعد على أن تسير الأمور بشكل أسهل فيما بعد . ولكننى أعتقد أن معك حق فى مسألة الأرقام هذه .. لقد كنت على حق فى عدم إخبارى بنسبة ٩٧٪ تلك .. فهذا صعب للغاية . وبالمناسبة ، ما الذى جعلك متأكدًا هكذا من هذه النسبة ؟

– حينما أقرص جلد البشرة فإنها تنثنى ثنيات أو تجاعيد خفيفة .. أحيانا تكون هناك تجاعيد بدون قرص .. وعلى أى الحالات فإنها علامة مؤكدة .

وفى طريقى للخروج لاحظت أن مساعدته التى كانت قد حجزت لى مكانًا فى أول الأمر لم تكن موجودة ، وحلت محلها فتاة أخرى .. وذكرتنى سلة المهملات فى حجرة الفحص بذكريات نزع الضمادة .. وحتى هذه الذكريات بدت كأنها منذ زمن بعيد مثل فقرة قرأتها فى رواية وأنا تلميذة بالمدرسة .

وفى تلك الليلة حينما عدت إلى المنزل اتصلت بى صديقتى (إيريكا) وكانت فى حالة بائسة ، فبسبب التوفير فى ميزانية المدينة كانت مهددة بفقد وظيفتها فى جامعة المدينة . وكان زوجها يُكثر من الشراب ويتشاجر

معها ، وأولادها يتصرفون بطريقة تدفعها إلى الجنون . وتكلمنا معا أكثر من نصف ساعة .. فلقد كان من عادة (إيريكا) أن تتحدث كثيرًا في لا شيء .. ولكن في هذه المرة كانت الأمور تبدو حقيقة سيئة . وأنهينا المكالمة وبدأت في إعداد طعام العشاء وأنا أفكر في صديقتي (إيريكا) ومشاكلها . وكنت أفكر بعمق ما الذي يمكن أن تفعله في هذه المشكلة أو تلك ؟ .. وأفكر أيضًا ما الذي يمكنني عمله من أجلها ؟ .. كل هذا وأنا منهمكة في إعداد اللحم ووضعه في الفرن .. وتوقفت للحظة وسط المطبخ وخطر لي خاطر عجيب .. فتلك هي المرة الأولى التي أفعل فيها شيئًا لم أفعله منذ فترة طويلة – أن ينتابني القلق على شخص آخر – وسرحت .. أخيرًا بدأت أنشغل ولأول مرة بشخص آخر غير نفسي ..

وبدأ العمل يشدني من جديد وبعد حوالي ستة أسابيع من الجراحة جذب انتباهي موضوع عن صغار المجرمين من الأحداث .. هؤلاء الأولاد الذين يتسمون بالعنف لقد سبق أن قرأت عنهم فقط .. إنهم أطفال وليسوا أطفالاً .. إنهم لا يشعرون بالندم أو الذنب تجاه ما يرتكبون من جرائم مهما كانت فظيعة .. وبعضها فظيع حقًا .. ولأنهم أحداث صغار السن فإن القانون لا يستطيع أن ينال منهم .. فهم أصغر من ١٨ سنة وأقصى عقوبة ينالونها هي ١٨ شهرًا حجز بمركز للاعتقال بصرف النظر عن نوع الجريمة التي يرتكبونها .

لقد كان موضوعًا جيدًا ومهمًا .. وكان علي أن أعمل هذا الموضوع مع شخص أحب العمل معه بشكل خاص هو (إيرا سيلفرمان) وهو رجل فنان حساس حلو الكلام ، ولقد سبق أن عملت معه موضوعين آخرين وكانت أعمالاً جيدة .

ومن جديد – بدأت أشعر شعور الأيام الخوالي تقريبا !!

وفي وكالة (إن . بي . سي .) وفي أي موقع ، هناك جزء من العمل

قد يبدو تافهًا أو مملاً .. نوع من العمل لا تستخدم فيه كل إمكانياتك .
وفى الفترة السابقة شغلت وظائف واحتفظت بوظائف .. ومثل أى شخص تعلمت أن أكون جنديًا جيدًا فيما يختص بمثل هذه النوعية من الأعمال .. لا ميداليات ولا شىء ، فقط استيقاظ فى الصباح الباكر . وكانت معظم أعمالى فى وكالة (إن . بى . سى) تُعنى بتغطية ما يعرف بأخبار الموقع . ذلك النوع من الأخبار المجردة التى لا أُفضلها ، وبعض هذه الأخبار يشد الانتباه أو يلفت الأنظار . فمثلاً لا يجب أن يفوتنى تغطية حدث مثل الشغب الذى حدث فى أحد سجون فرجينيا القريبة منذ عامين .. أو محاكمة (تونى بويل) ذى الوجه الذى يشبه الطائر والذى لن أنساه أبدًا .. أو تغطية أخبار مقتل حاكم برمودا .. إلخ ولكن مثل هذه الموضوعات تهمنى أكثر كتجارب حياة أكثر منها كتجارب صحفية ، ومثل هذه الموضوعات تحتاج أيضًا إلى قوة احتمال ، تحتاج أن تقف على قدميك ساعات طويلة لكى تقوم بتغطية إخبارية واقعية .. إنها أشياء جافة وصعبة ولكنها مثيرة وبعض المراسلين يلتهمونها التهامًا ، ولكننى كنت أُفضل دائمًا الموضوعات التى يغلب عليها طابع المقال التحليلى للذين يحترمون هذا النوع من الأخبار أو المقال الناعم للذين لا يحترمونه . وأنا أحب هذا اللون لأنه يتيح لى الفرصة للتحليل والتعمق فيما وراء الأخبار .

وهناك نوع آخر من المهام الصحفية لا يعطينى أى لذة أو اهتمام ، وهو أحداث اللا أحداث ، بمعنى أن يرسلوك إلى مكان ما حيث تظل تحوم خارج المنزل أو المكتب أو أى مكان آخر يوجد فيه شخص مهم (ودائما يكون رجلاً لا امرأة) لا يريد أن يراك وأنت تنتظره حتى يخرج ، وحين يخرج تندفع أنت وسبعة وأربعون صحفيًا آخرون ينتظرون مثلك ليسألوه سؤالاً لا تحصل على إجابة شافية له تقريبًا ، أو تحصل على شىء لا يشبه الإجابة ، هذا ما يحدث إذا خرج الشخص وتكلم .. ولكن فى أحيان كثيرة

لا يخرج مثل هذا الشخص على الإطلاق ، أو ربما يتسلل خارجًا من باب آخر .. وفى بعض الحالات لا يكون موجودًا هناك بالمرة . ولكن الصحفيين الذين يكلفون بهذه المهام ينتظرون وينتظرون فى الخارج حيث يكون الجو إما باردًا كالصقيع أو يغلى كالبركان وهم ينتظرون ، لأنه إذا غادر أحدهم المكان فربما يحصل مراسلو الشبكات الإخبارية الأخرى على « اللاإجابة » ولا يحصل هو عليها . والعذر الوحيد للصحفى لكى يغادر المكان هو أن يذهب إلى دورة المياه . ولأن شبكات الإذاعة والتليفزيون كثيرة المطالب ودائما تريد المزيد من الأخبار فإنهم لا يتوقعون أن يترك المراسل مكانه ليفرغ ما فى كليتيه ، وهم لا يمكنهم مغادرة المكان إلا إذا تركوا أحدًا يحل محلهم . وليكن على الأقل المصور موجودًا ليلتقط صورة لذلك الشخص الذى يندفع خارجًا من المبنى فى اتجاه السيارة التى تنتظره .

وحينما كنت أغادر المكان إلى دورة المياه كنت دائمًا أستغرق وقتًا أطول مما ينبغى ، وأنا أتمنى من كل قلبى أن يخرج ذلك الشخص وأنا غائبة عن مكانى .

لقد ذكرت كل هذا لكى أقول : إنه بعد شهر أو شهر ونصف من استئصال الثدى كنت أشعر بسعادة وأنا أؤدى الجزء الذى أحبه وأفضله من عملى ، وفى نفس الوقت ، كنت أشعر بشعور قوى لا يخطئ ومتزايد بألا أقوم بالجزء الآخر .

ولم أفكر كثيرًا وبوعى فى الموت منذ ذلك اليوم الرهيب .. ولكن فوضى الأرقام والنسب كانت مختبئة فى ذاكرتى تمامًا . مثلما تختبئ الصراصير فى الأركان المظلمة ، وأكاد أنسى وجودها تقريبًا ، ولكن فى كل مرة أضيء النور أكتشف أنها موجودة .

وفكرت .. إذا كنت سأموت قريبًا .. فإننى لا أريد أن أقضى الوقت الباقى لى فى تقشير البطاطس . بمعنى أننى لم أكن أريد أن أقضى الأسابيع الباقية

لى ، أو الشهور أو حتى السنوات الباقية من عمرى لكى أتواجد فى أماكن الأحداث لتغطيتها . كأن أتواجد فى مكان حريق أو أن أدفع بالميكرفون فى وجه أحد الشخصيات البارزة من ذوى الأفواه المغلقة أو حتى المفتوحة على أحسن الفروض ولكن هذه هى طبيعة الوظيفة .. أو على الأقل جزء منها .

كان كل هذا يتصارع فى داخلى .. وكنت أكتب أكثر وأكثر وأكتب عما جرى لى وكنت أعرف تمامًا أننى لا أكتب من أجل نفسى فلم أفعل ذلك أبدًا ، ولم أكن لأبدأه الآن . ولكن فكرة النشر جعلتنى لا أشعر بارتياح أيضًا .. فأنا لا أكتب عن فلان أو علان أو عن الأمومة أو أى موضوع آخر ، إننى أكتب عن نفسى .. مادة شخصية بحتة . فإذا كتبت كتابًا – وهى الطريقة الوحيدة لتناول هذا الموضوع – فليس من أجل أن أخفيه .. ولكن ، هل أنا حقيقة أريد أن يعرف العالم أو حتى المدينة التى أعيش فيها . أن يعرفوا جميعًا شيئًا خاصًا جدًّا بى عن مشكلة حلمة ثديى !! ؟ ؟ أو ما يعتمل فى نفسى ؟ ؟ أو شىء عن (آرثر) ؟ ؟ هل أنا حقيقة أريد العالم كله أن يعرف هذه التفاصيل ؟ ؟

ولم أكن قد وصلت إلى قرار عندئذ ، ولكن فكرة كتابة كتاب عن هذا الموضوع ظلت تراودنى وتلح على .. ولم يعد هناك بُد من تنفيذ الفكرة ..

وهكذا .. فقد بدأت مشاغل جديدة أهم من البحث عن ثدى بديل وحلمة ملائمة .. ولكن النشر يعنى التقدم .. والتقدم يعنى مزيدًا من النقود يعيش بها المرء وكل هذا يصلح عذرًا مقبولاً لترك وكالة (إن . بى . سى .) لفترة . وسألنى أحدهم :

– لقد سمعت أنك قررت أن تدبرى نقودًا للعلاج النفسى وتؤلفين كتابًا !! ؟

وأجبته بكل ثقة :

– نعم .. هذا صحيح تمامًا .

الفصل العشرون :

وكان الناس يتساءلون عما إذا كان هجرى (لآرثر) له أية علاقة بالعملية ، وبالطبع كان له علاقة ، ولكن ليست بالشكل الذى يتصورونه .. ولم يكن السبب أن رد فعل (آرثر) تجاه ما حدث لى كان يتسم بالنذالة أو اللامبالاة .. لا لم يكن كذلك .. بل إنه استطاع أن يرتفع فوق مخاوفه من أن يبتلى بشىء مشابه لما حدث له مع أمه .. أو على الأقل تصرف كأنه ارتفع فوق هذا الأمر .. بل إنه أيضًا لم يجعلنى أشعر بأننى إنسانة غير مرغوبة أو غير جذابة أو أى شىء من هذا القبيل .فى الواقع لقد كان معى مثلما كان دائمًا .. وتلك كانت المشكلة !! فقد أصابنى الفزع فجأة بعد العملية من الأسلوب الذى تسير به حياتنا .. فلقد تركت جانبًا كل ما أحببته فى (آرثر) وركزت تفكيرى على كل ما هو خطأ .. وفى الفترة الأخيرة كانت هناك أشياء كثيرة خطأ .. فلقد كنا نتشاجر أكثر .. وكان هو قد بدأ يشرب أكثر .. وكنت أنا أكثر نقدًا وأكثر سخرية .. وبدأنا نناوش بعضنا أمام الآخرين وفى الحفلات التى نُدعى إليها . وكان الآخرون يعتبرون أننا مثيرون للضحك .. ولقد كنا كذلك فعلاً .. ولكننا لم نكن نشعر بذلك نحن أنفسنا .. وفكرت كثيرًا فى هذا الأمر .. وكلما فكرت فيه ازددت خوفًا . وكان الأمر كله يبدو أمام عينى وكأنه فيلم سينمائى متعاقب المشاهد .. يَعرِض أمام عينى وباستمرار المشاهد السيئة التى جمعتنا معًا !! وكان أحد المشاهد قد وقع قبل شهرين تقريبًا من إجراء العملية .. وكنا فى إجازة فى (جامايكا) ومرضت واحتجت إلى طبيب .. واعتقد (آرثر) أننى أدلل نفسى ولم يشأ أن يستدعى الطبيب ولما صرخت من الألم ، استدعى الطبيب أخيرًا واتضح أن درجة حرارتى كانت ٤٠° وأننى مصابة بتسمم غذائى .

وهناك أيضا مناسبة عيد زواجنا الفظيعة فى أغسطس الماضى . وكنت قد استيقظت فى الخامسة صباحًا لألحق بطائرة لتغطية أخبار « نيلسون

روكفلر » فى إحدى المناطق .. وفى محاولة العودة فى الموعد المناسب من أجل أن نتناول أنا و (آرثر) طعام العشاء معًا ، كدت أضيع الموضوع الذى جئت من أجله .. .واستطعت أن أصل فى الموعد أخيرًا حوالى الثامنة والنصف وكنت ألهث من شدة التعب والإجهاد ولكننى كنت أشعر بالنصر لأننى استطعت اللحاق « بآرثر » ولكن بعدها بلحظات بدأت أتثاءب من النعاس ولم يكن (آرثر) متسامحًا مع الذين يغلبهم النعاس مبكرًا .. وكنت أعلم ذلك .. ولكننى لم أتمالك نفسى واعتقدت أنه ربما يتسامح معى هذه المرة ، لشدة تعبى ، ولكنه لم يفعل وثار غاضبًا وثرت أنا أيضًا وذهبت إلى السرير. وظل هو ساهرا وأكثر من الشراب تلك الليلة وفى الصباح كنت عابسة واجمة بينما ذهب هو ليلعب التنس . وليس هذا بالطبع بالمشهد الخطير ، ولكنه مشهد عابس آخر . ولم نستطع أبدًا أن نعقد العزم على عدم تكرار هذه المشاهد بل كانت تختفى لفترة لتظهر من جديد ..

وكان (ديفيد) هناك غير بعيد فى فيلادلفيا ينتظر أن أتخذ خطوة .. ولكننى لم أكن أريد أن اتخذ هذه الخطوة .. فلقد أحببت زوجى وأعرف أنه يحبنى بطريقته .. وبجانب الكثير الذى عرفته عن الحياة فلقد تعلمت ألا أتوقع الكثير .. وأن المشاكل هى جزء من هذه الحياة ، وقلت ذلك لنفسى بنفس الطريقة التى يمكن أن تقولها أمى لى . فالمشاكل هى بالتأكيد جزء من أى زواج .. وعليك أن تعمل على حلها أو تعيش بها ولكن لا تترك الزواج .. فالأزواج لا يتغيرون مثلما يتغير شركاء الرقص ..

وعند هذا الحد توقفت الموسيقى وشعرت بالخوف وكلما شاهدت المزيد من هذه المشاهد السيئة ازددت خوفًا . ثم تذكرت شيئا .. ولم يكن منظرًا أو مشهدًا بل كان نوعًا من الحضور بينى وبين (آرثر) .. وهذا ما أزعجنى أكثر من أى شىء .. النساء الأخريات .. ولم يكن (آرثر) زير نساء وكنت متأكدة أنه لن يهجرنى .. وأقصى ما كان يفعله .. هو مغازلة النساء أو

مداعبتهن .. وفكرت .. إنه إذا حدث ذلك الآن فى ظروفى هذه فلن أستطيع التعامل مع مثل هذه المواقف .. ببساطة لن أستطيع .

والواقع أننى لم أكن بحاجة للتعامل مع هذه الأمور لأن (ديڤيد) كان هناك ولم أكن متأكدة أننى سأستطيع أن أحبه ولكننى تصورت أن من المحتمل أن أحبه لو أننى فقط أخرجت (آرثر) من نظام حياتى فسيكون هناك فراغ .. عندئذ أستطيع أن أحب (ديڤيد) . على أية حال لقد كان الأمر يستحق المحاولة ، لأن (ديڤيد) قبل كل شىء كان شخصًا رائعًا . ليس بسبب وُده لى فى المستشفى ، أو لأنه يريد أن يتزوجنى رغم ما حدث لى . فبغير ذلك كله كان شخصًا كاملاً ، وكان جذابًا ووسيمًا ومسليًّا أيضًا (لم يكن مسليا مثل « آرثر » .. ولكن لا يهم ذلك) وكان أيضًا عطوفًا وسهل المعشر وسلسًا تجاه كل شىء . ولم يكن يهمه كثيرًا ذلك الثدى المفقود ، وأيضًا (آرثر) لم يهتم بذلك الأمر ولكنه كان يتجاهله بينما كان (ديفيد) يقول كثيرًا من الأشياء الجميلة مثل :

« إننى أحبك لشخصك وليس لجسدك » . وكان (ديفيد) ناضجًا يرتدى البدل وأربطة العنق ويذهب إلى مكتبه مثل أى رجل محترم ، ومثل أبى ، وكان يحبنى جدًّا ولقد قال ذلك مرات عديدة وكنت أصدقه ، وكان يكرر ذلك فى مناسبات كثيرة وبطريقة رائعة كأن يقول مثلاً : « لم أحب أبدًا أحدًا فى حياتى بمثل الطريقة التى أحبك بها » وكان يقبلنى فى الشارع وفى المطبخ – على الرغم من أننا لا نذهب إلى المطبخ كثيرًا حينما نكون فى منزله – لأن لديه عددًا من الخدم . فلقد كان (ديفيد) إلى جانب كل ذلك ثريًّا .. ثريًّا جدًّا .

ولم يحدث أن ارتبطت من قبل برجل غنى .. لقد عرفت بعضهم ولكنهم كانوا كبار السن أو يعشون على الملل أو متعجرفون حتى ولو كانوا صغار

السن . ولكن (ديڤيد) كان مختلفًا . لقد كان غنيًا ولكنه لم يكن كذلك ..
وقد كان هذا شيئًا لا يُصدق . وكنت قد قررت أن أصدقه وأستمر ..
ولم لا ؟ وماذا أنتظر .. ليس هناك وقت للانتظار . لقد حدث زلزال فى
حياتى ، وتبعثر الأثاث وطارت الصور من فوق الجدران .. وإذا كان لابد
من عمل تغيير مهول فى حياتى ، فهذا هو الوقت المناسب لهذا العمل ،
فكل شىء يعيش فى فوضى .. والموت قابع هناك .. ففيم الانتظار فلأفعل
هذا التغيير الآن وفورًا . وقلت لنفسى هيا – اقفزى ، وقد فعلت ..

وبالطبع لم أفكر كيف سيكون الحال وأنا أجمع أشيائى وأهجر زوجى
وأغادر منزلى . ولقد فعلتها فى المساء مثل أى لص بينما كان (آرثر) عند
طبيب الأسنان . ولا أظن أننى شعرت يومًا أننى أكاد أنشق نصفين مثلما
شعرت فى ذلك اليوم .. لقد شعرت أن بداخلى شخصين ، أحدهما جامد
كالصلب ممتلئ بطاقة ونشاط آليين يشجب الأشياء خارج خزانات الملابس
بلا تردد ، والآخر مصنوع من البورسلين الرقيق متقوقع هناك فى أحد
الأركان يكاد ينكسر . ولكن الشخص الأول استطاع أن يُنجز مهمته
بإتقان .. كانت يداه باردتين وهو يحزم الأمتعة ويضع الملابس فى الحقائب
كأنه يضع جثثًا داخل كفن . ولكن انتهت المهمة . وخرجت من هناك
على الفور ..

لم أكن فى حالة جيدة حينما وصلت إلى فيلادلفيا . كانت مغادرة نيويورك
مثل عملية جراحية أجريت لى ، وكنت أشعر بالضعف من جراء الجراحة
الحقيقية أصلاً .. وحين وصلت كان (ديڤيد) هادئًا جدًا ، وكان مهزوزًا
أيضًا ، ولكننى عرفت ذلك فيما بعد ولم يجعلنى أشعر بذلك فى حينه
وكان هذا جميلاً منه ، بل إن هذا فى الحقيقة من أفضل مزاياه .

ومشينا كثيرًا فى البداية وكانت لنا خطة . وكانت الخطة أن أحاول
الحصول على الطلاق بأسرع ما يمكن وأن نتزوج ونعيش سعداء معًا إلى

الأبد (فيما أظن) . ذلك على الرغم من أننى علمت من خلال مناقشاتى التليفونية مع (آرثر) فيما بعد – أنه لن يمنحنى طلاقًا سريعًا .

وأخبرت أصدقائى المقربين (إيريكا) و (بات) و (جوانا) و (ليو) بما حدث وكنت أقول لهم : إن الحياة أسطورة خرافية فقط يلزمها منشاهد من الرعب فى بادئ الأمر ثم تسير الحياة بشكل طبيعى .. انظروا إلىّ لقد كان الثمن أوقيتين من اللحم فقط .. لقد قاسيت فى بادئ الأمر ولكننى هأنذا أحيا من جديد .. انظروا إننى أعرف أن هذا عالم عادل .. مثلما كنت تقولين دائما يا أمى .. فإن ابنتك تستحق الأفضل .. فقط كان عليها أن تنال الأسوأ .. أولاً ..

واتصلت بأمى وحدثتها عن (ديڤيد) وكيف أنه اتصل بأحسن طبيب فى السرطان فى فيلادلفيا وأخذ لى موعدًا معه .. ليس هذا فقط بل صحبنى إلى الطبيب بنفسه وقلت لها « هذا زوج سيُعنى بى يا أمى » .

ولأصدقائى عبر المكالمات التليفونية البعيدة قلت لهم :

« لقد أردت أن أتزوج من شخص ناضج فلقد تغيرت احتياجاتى .. هذا كل ما فى الأمر أريد شخصًا يكون لطيفًا معى .. لطيفًا بمعنى الكلمة وطيبًا بدرجة كافية ويهتم بى أيضًا » .

وأجابتنى (إيريكا) فى صوت خفيض :

– « ولكن (آرثر) كان يعتنى بك أيضًا » .

– لا ، لم يكن كذلك ، كان فقط لا يريد أن يفقدنى – وهذا شىء مختلف .

– حسن ، ولكنه شىء من هذا القبيل . هكذا أجابتنى (إيريكا) .

ولم أتصل « بإيريكا » لمدة أسبوع .. لم أكن أريد أن أسمع شيئًا عن (آرثر) وعن عنايته بى .. لم أكن أريد أن أسمع عنه شيئًا بالمرة . وكان هو

فى كل مرة يتصل بى يتوسل إلىّ على غير عادته كى أعود إليه .. وكان يتصل فى بادئ الأمر مرة أو مرتين فى اليوم ، وكنت أبكى فى كل مرة حتى يكاد صدرى أن ينفطر ، وكنت أخشى أن ينفتح الجرح فتوقفت عن الرد على التليفون ، وهنا بدأت خطاباته .. كان هناك تقريبًا خطابًا فى كل يوم ، وكانت أسوأ أثرًا من المكالمات التليفونية :

« عزيزتى .. لقد كنت ومازلت مستعدًا أن أعيش معك بإخلاص تام .. ولا أحد سواك . لقد كان هذا جزءًا من طبيعتى البشرية ، وحينما أجريت لك الجراحة كنت أنوى أن أحدثك بذلك بكل وضوح . لقد كنت أعرف أنك كنت تَشُكين .. وآسف جدًّا لأننى لم أحاول أن أبعد شكوكك .. أعلم أن الجراحة قد هزتك حتى أطراف أصابعك .

إن فقدك جعلنى أشعر بعدم الثقة والخوف والتردد ، وجعلنى أدرك الآن كم كنت أنت تعانين من مثل هذه المشاعر بفقدك لأحد أجزاء جسدك .. وأننى أعتقد أن قرارك بهجرى له علاقة وثيقة بفقدانك الثقة حتى ولو كان شخصًا مثلك على درجة من الوعى والثقافة إلا أن عدم شعورك بالأمان مع زوجك جعلك تنجذبين إلى الأمان والراحة والعناية بعيدًا عنه .. أنا لا أعلم شيئًا عن مشاعرك تجاه ذلك الرجل فلم يحدث أن تحدثت معى فى هذا الأمر ، ولكن ، ربما أردت عدم جرح شعورى ، ومع ذلك فقد جرحتنى بالفعل » .

وهالنى الخطاب ، فمنذ أن توقف عن الاتصال بى وبدأ فى الكتابة إلىّ توقعت المضايقة والغيظ والغضب .. ولكن هذه كلها أمور أستطيع أن أتناولها .. أما هذا النوع من الألم .. الناتج عن الفهم أخيرًا .. فلا .

وانهرت من أول خطاب ثم تماسكت ونهضت .. شكرا لله فإن صديقتى (بات فيشر) تصادف أنها كانت تسكن فى مسكن مؤقت قريب من منزل

(ديفيد) . وخلال الأسبوع الأول الذى مكثته فى فيلادلفيا كانت (بات) تأتى إلى بعد أن يذهب (ديفيد) إلى عمله فى الصباح وقبل أن يصل البريد أيضا .. وبذلك لا أكون وحدى مع رسائل (آرثر) .. وبمجرد أن أرى خطاب (آرثر) كنت لا أحتمل قراءته وأخرج على الفور للمشى مع (بات) .

إن منطقة (هيل) فى فيلادلفيا هى المكان المناسب لحكام مثلى . فالشوارع القديمة هادئة كالجنة ، وهناك جو من العظمة والأبهة والنظام يمنع المرء من الصياح بصوت عال .. وكنت أنا و (بات) نتبادل الحديث دائمًا خلال تلك النزهات .. ولكننى لا أتذكر شيئًا من أحاديثنا بقدر ما أتذكر ما نراه أثناء نزهاتنا .. واجهات المنازل الجميلة ، السيدات العجائز بمعاطفهن وهم يحيون دائمًا « صباح الخير » و « مساء الخير » حسبما يتراءى لهن .

وفى مايو تحسنت حالتى وتحسن الجو وأصبح دافئًا وبدأت جولاتنا تطول وبدأ الناس يجلسون فى الحدائق على المقاعد وعلى الحشيش الأخضر ووجوههم إلى الشمس .. وكنت أنا و (بات) نضع معاطفنا على الأرض ونجلس برهة على الحشيش الأخضر ونصفنا تحت شجرة والنصف الآخر فى الشمس .. وكانت (بات) شخصية جريئة مرحة ولذلك لم تنح الأمور معها ناحية القسوة أو العبوس أبدًا .

وحينما كانت الشمس تغيب وراء مبنى (مركز بن) كنا نعود إلى المنزل لتناول الشاى ثم تعود (بات) إلى منزلها وأجلس أنا لأكتب قليلاً – وكان هذا يحفظ لى توازنى النفسى – إلى أن يعود (ديفيد) إلى المنزل ثم نتكلم عن عمله الذى لا أفهمه رغم أنى أحاول ، ثم نتحدث قليلاً عما كتبته فى ذلك اليوم ، ثم نتناول العشاء ويسير كل شىء على ما يرام إلى أن يأتى اليوم التالى والخطاب التالى :

« .. أظن أننى تغيرت كثيرًا فى نواحى كثيرة منها أننى – بصرف النظر عن الطريقة التى تصرفت بها – أرى أننى آخذ زواجنا على نحو جاد

وأشعر بالتزام كل واحد تجاه الآخر . لا زلت أشعر أننى زوجك رغم صعوبة ابتلاع حقيقة أنك مرتبطة بشخص آخر . أرجو ألا تندفعى .. أتمنى أن تحاولى إمكانية رؤية أننى ربما أكون الأكثر نضجًا من ذلك الآخر (رغم اعترافى بأنه يقوم بدور الأب بالنسبة لك على ما يبدو) .. » .

وقالت لى (إيريكا) :

– إذا كانت خطابات (آرثر) تؤثر فيك إلى هذه الدرجة فمن الأفضل أن تعودى إليه .

– كيف تقولين ذلك ؟ أنت تعلمين أن (آرثر) صعب للغاية . ولا تنسى أنه كاتب صناعته الكتابة ويعرف جيدًا كيف يتعامل مع الكلمات على الورق .. لماذا إذن لم يقل لى أبدًا شيئًا مما يقوله الآن حينما كنا معا !! ؟ إننى متأكدة أن ما فعلته هو الشىء الصواب .. ثم إن « ديڤيد » شخص رائع .

– إذن لماذا تكتئبين بسبب خطاباته !! ؟

– « إيريكا » ، من الطبيعى أن يحدث لى هذا ، آرثر كان زوجى .. وأنا أحبه أقصد كنت أحبه .. لا أستطيع أن أشرح لك ذلك ..

والواقع أننى كنت مصدومة ومرعوبة ولم أكن مهيأة لمعايشة الألم الذى يستشعره (آرثر) .. لقد شعرت بالألم أنا أيضًا ، ولكن كان هو بعض ألمى .. ولقد أخذ الألم شكلاً آخر عضويًا ، فقد بدأ جرحى يؤلمنى أكثر ، وبدأت معدتى تؤلمنى وفقدت بعض وزنى ، وازددت نحافة حتى أن خواتمى كانت تسقط من أصابعى . ولكننى تماسكت وقلت لنفسى لابد أن ينتهى كل هذا ، عندئذ يصبح كل شىء على ما يرام . وقلت ذلك « لديڤيد » أيضًا حينما عاد إلى المنزل فى المساء ولاحظ مظهرى المضطرب .. وقال بصوته الكامل : « أنا أعلم ، لم أكن أتوقع أن يكون الأمر سهلاً » .

وبدأت أتساءل هل هو حقيقة يشعر بما أعانيه ؟ وعند هذه النقطة لم أكن أريد أن أعرف الإجابة .. ماذا لو أنه لا يشعر بى تمامًا بعكس ما بدا لى من صوته الكامل ؟ ؟ .. ولم أكن مستعدة لمثل ذلك .. وتذكرت كم أنتظر عودته للمنزل كل مساء ، وكيف أترقب دخوله حينما أشعر بالمفتاح يدور فى الباب . وفيما عدا (بات) صديقتى ، كان (ديڤيد) هو كل ما لى فى فيلادلفيا .. هو الشخص الوحيد الذى أتحدث إليه .. ليس هذا فقط ففى كل مرة يدخل المنزل أفكر .. ها هى ذى حياتى الجديدة قادمة ، آخذة فى الاعتبار كم كنت محطمة وكم كان هو ودودًا .

لقد قضينا أوقاتًا رائعة فى تلك الفترة .. كنا نسمع الموسيقى ونلعب الطاولة ونتناول العشاء ونتحدث .. وكان كل ذلك رائعًا .. حياة هادئة .. على خلاف حياتى الزوجية السابقة تمامًا .. لا معارك .. لا ضغوط بل حديث هادئ لطيف .. فيما عدا أننى كنت أشعر فى معظم الأحيان بأننى غير موجودة وكنت أؤكد لنفسى أننى سأشعر بوجودى حالاً وأقول لنفسى أيضا : انتظرى قليلاً وانتظرت ولكننى كنت مخطئة .. فلقد كنت أشعر كأنه دور جديد ألعبه أكثر من كونها حياة جديدة أعيشها ..

ولقد رأينا أنه من الأفضل لى ألا أذهب إلى نيويورك لفترة .. وكان هذا يوافقنى تمامًا فلقد كان السبب الوحيد الذى يتطلب ذهابى إلى نيويورك هو رؤية دكتور « رومفيلد » وفكرت أنه يمكننى الاستعاضة عن زيارته بالتليفون ولقد وافق هو على ذلك .. وكان غريبًا علىّ فى بادئ الأمر أن أرقد على سرير (ديفيد) فى الحادية عشرة صباحًا وفى أذنى ترن لكنة دكتور « رومفيلد » الألمانية .. ولكن سرعان ما اعتدت على ذلك . ولقد قمنا بخمس جلسات تقريبًا عن طريق التليفون .

وقال لى الدكتور « رومفيلد » :

– « .. لقد أجريت جراحة أخرى ، فالانفصال مثل الجراحة ، إنه عملية استئصال » .

آه .. هذا ما أردت سماعه تمامًا .. إذن فإن مشاعرى المجنونة المضطربة هذه كانت منطقية .. ثم بعد ذلك أضع السماعة وأنا أشعر بتحسن كبير . ثم أسمع صوت الخطابات وهى تنزلق فى فتحة البريد الموجودة فى الباب الأمامى ، وأسير ببطء خارج الحجرة وأهبط إلى الطابق الأسفل وأنحنى لألتقط البريد كله .. وبعد أن أضع البريد الخاص « بديڤيد » جانبًا أبدأ فى فتح الخطاب الذى يخصنى وأقرأ تلك الكلمات :

« .. إننى أخشى تمامًا أنه حتى إذا كنت تحبيننى فى النهاية وليس هو وإذا شعرت بثقة متجددة فى نفسك وفىّ أيضا ، وأردت العودة فستشعرين بالذنب وربما تقولين لنفسك عندئذٍ إن الألم هو نصيبك وأنه غير مسموح لك بأن تكونى سعيدة بعد الآن .. وإن كل ما تحتاجينه هو الراحة والأمان فقط .. وأنه قد قام برعايتك خلال الفترة الحرجة التى تمرين بها .. وهكذا ..

هلا قرأت هذا الخطاب بكل عناية وأن تقرئيه أكثر من مرة من فضلك ، وحاولى فهم ما أقصده .. فإذا كنت قد ارتكبت خطأً فهلا حاولت رؤيته وإصلاحه ، وهلا حاولت أن تكونى شجاعة بالقدر الكافى لعودتك وإعطائى فرصة أخرى !! .. فأنا لا أشك فى أنه يستطيع أن يحيا بدونك ..

وحتى لا تشعرين بالذنب تجاهى أيضا ، أريدك أن تعرفى أننى لم أعد أعانى المزيد من الألم .. بل إننى أحيا وسأظل كذلك .. ولكننى فقط لازلت

أحبك ولازلت أشتاق إلى عودتك .. وأحتاجك .. وأشعر بأننا شخصان في إحدى التراجيديات اليونانية القديمة تتقاذفنا قوى خارجة عن إرادتنا الواعية .

ولكن في النهاية فإن مصيرنا في أيدينا الأربعة ، يديك ويديّ .. وفي إمكاننا تمامًا أن نضع أيدينا معًا من جديد .

أشتاق إليك يا زوجتي الجميلة المحبوبة .. وأفتقدك روحا وجسدا .. » .

ملحوظة : إذا أعطيتني الفرصة ، أعدك بأن أكون سهلاً لينًا ، أقل ثورة ، أقل مطلبا .. إلخ .. إلخ .. إلخ .

ولحسن الحظ ، فإن البريد يأتي قبل الظهر حيث يكون لديّ أكثر من ست ساعات أنتزع نفسي فيها من تأثير خطاب (آرثر) قبل أن أتهيأ لاستقبال (ديڤيد) عند عودته إلى المنزل في المساء .

* * *

الفصل الحادى والعشرون :

قالت لى أمى على التليفون :

– « إننى أشعر بالقلق تجاه شىء ما !! »

وقاطعتها قائلة :

– « يا أمى ، إن صحتى جيدة ولقد قال طبيب السرطان الشهير : إننى بخير . أؤكد لك أننى نسيت العملية تمامًا ولا أكاد أذكرها » .

ولقد كان هذا صحيحًا ، ففى ما بين تفكيرى فى « ديڤيد و آرثر » لم تكن هناك فرصة للتفكير فى أى شىء آخر حتى ولو كان السرطان .

وقالت أمى :

– ليس هذا ما أود أن أقوله ، أعرف أن (ديڤيد) رجل لطيف ولكنى فقط آمل ألا يكون لقرارك هذا دخل بنقوده لأننى أنا وأباك ننوى أن نترك لك ... .

وقاطعتها قائلة :

– يا أمى ، هذا ليس له دخل بالنقود .. أنا لا أحتاج نقوده ولا أحتاج نقودكما أيضا فأنا أكسب الكثير من المال .. أتذكرين ؟

وقالت أمى :

– إننى فقط كنت أتساءل ، لأنه إذا كانت المسألة لها علاقة بنقوده فأنا وأبوك خططنا لـ ..

وقاطعتها مرة أخرى :

– لقد سمعتك فى المرة الأولى يا أمى من فضلك !

ولكن ، كان للنقود دخل فى هذا الأمر بطريقة ما ، رغم أننى لم أكن

أظن ذلك فى بداية الأمر . ليس لأننى كنت أريد الرفاهية .. وهى لا بأس بها على أية حال ... . ولكننى فقط لم أكن أطمع فيها أو أشتهيها . إلى جانب أنه كان بمقدورى أن أوفر لنفسى قدرًا من الرفاهية من مالى الخاص بدون (ديڤيد) . ورغم ذلك فقد كنت أشبه ما يكون بشخص به قشعريرة ، وكانت نقود (ديڤيد) أشبه بكومة من الأغطية الصوفية الناعمة الموضوعة على الجانب الآخر من السرير .. إنها أكثر مما أريده أو أحتاجه ، ولكن وجودها مريح يكفى أن تعرف أنها هناك لتشعر بالدفء .

وفى سبتمبر وافق (آرثر) أخيرًا على منحى الطلاق ، فذهبنا أنا « وديڤيد » إلى « هايتى » من أجل ذلك . كان كل شىء سهلاً ، فليس هناك أطفال ولا نفقة . كان طلاقًا سريعًا يستحق ثمن تذكرة الطائرة .. وكانت السماء تمطر فى (هايتى) ولقد بكيت كثيرًا .. بل إننى فى الواقع لم أكف عن البكاء .. وكان هذا شيئًا مملاً ولكننى لم أكن أستطيع مقاومته .

ولقد كان طلاقى مثل زواجى تقريبًا .. دقيقتان فقط فى حجرة صغيرة فى بلد غريب مع شخص له « لكنة » خاصة . الفرق أننى هذه المرة كنت وحدى فى الغرفة ولم أبتسم فيما بعد . ولقد قالت لى سكرتيرة المحامى التى لاحظت شفتى المرتعشة :

— « من الطبيعى أن تشعرى بذلك » . وقلت فى نفسى :

— أتعشم ذلك ، أتعشم ذلك .

وتغيرت الأمور كثيرًا بعد زواجى من (ديڤيد) .. فى الحقيقة ، تغير كل شىء . فى بادئ الأمر توقفت خطابات (آرثر) وبدأت أشعر أنه حقيقة خرج من نظام حياتى واستغرقتنى حياتى مع « ديڤيد » ، وشعرت أننى أحبه الآن فقط .. وأظنه شعر بذلك فلقد قال مرة : إنه يعرف ذلك وأن ذلك يسعده كثيرًا .. ولكن الشىء المضحك والغريب أنه لم يكن يبدو

سعيدًا مثلما كان من قبل . عندما كنت أمنحه الحزن . والشيء المضحك الآخر أنه لم يكن لطيفًا تمامًا معى مثلما كان حينذاك . وكلما كنت أزداد حبًّا له كلما ازداد هروبًا منى . وكان يبدو مستاءً نوعًا . وكلما أظهرت التزامًا أكثر تجاه حياتنا معًا كلما أظهر لامبالاة ... وكان لا يزال يقول كل هذه الأشياء الجميلة عن مدى حبه لى ، ولكنه بدأ يقول أشياء أخرى غير جميلة أيضا . وفى إحدى الأمسيات بعد العشاء نظر إلى وقال لى : إنه لم يكن متأكدًا من حبه لى . وقررت ألا أثير ضجة حول هذا الموضوع وقلت له : « لا تقلق ، فحينما تعيش مع شخص فأنك لا تشعر بالهوس تجاهه فى كل دقيقة .. وليس معنى ذلك أيضًا أنك لا تحبه » .

فأجاب : « أوه » .

حسن ، أعتقد أنه على حق .. انظروا إلى الظروف التى جَعَلته يمر بها ، والآن جاء دوره ليرد لى بعض ما فَعلتُه به .. ولقد فعل .. بدأ يشكو كثيرًا .. يشكو من الماضى وكيف أننى جعلته يعانى منه ومن المستقبل وكيف أننى جعلته يخشاه وربما أجعله يعانى منه أيضًا . وقلت له : « الماضى ليس بيدى ، ولكننى أستطيع أن أفعل شيئًا تجاه المستقبل ، فقل لى ماذا أستطيع أن أفعل ؟ »

ولم يكن يعجبه أن أعمل فى نيويورك حتى ولو استطعت أداء عملى من فيلادلفيا (وهذا ما كنت أحاول أن تسمح لى به محطة إن . بى . سى.) إذ لابد من عمل المونتاج وإتمام العمل فى نيويورك) ولم يكن يعجبه ذلك أيضًا فقلت له :

– أوكى ، سأترك وظيفتى .

ولم تعجبه أيضا طريقتى تجاه فكرة إنجاب الأطفال (وهى سلبية) . ولم يكن هذا أسلوبًا جديدًا فى حياتى . فلقد كتبت مرة موضوعًا فى

مجلة (لوك) أقول : « إن الأمومة يجب أن تكون اختيارًا وليس عملاً أتوماتيكيًا يعقب الزواج » . ولم أكن شخصيا ملتزمة بشدة بهذه الفكرة ولكننى كنت أميل إلى هذا الاتجاه . وكان (ديڤيد) يعرف ذلك ، وفى نفس الوقت كنت أعرف أنه يريد أطفالاً – بالرغم من شعورى أنه يحب فكرة إنجاب الأطفال أكثر من حبه لوجود أطفال حوله – والآن .. هو يصر على أنه بالطبع يريد أطفالاً .. بل إنه قال إنه لا يستطيع أن يعيش بدونهم . ولقد فاجأنى هذا القرار خاصة وهو يعلم شعورى تجاه هذا الأمر . وأيضًا بالنظر إلى أننى أكبر قليلاً من السن التى تسمح بإنجاب أول طفل .. وأيضًا بالنظر لما حدث لجسدى من جراحة ... ورغم كل ذلك أصر على موقفه ... .

– أوكى ، سأفعلها ، سأنجب أطفالاً . وبعد أن فكرت فى الأمر بأيام قليلة بدأت تروق لى فكرة الإنجاب .. لقد بدا من العدل بالنسبة له أن يطالبنى بأشياء .. حتى ولو كانت أشياء صعبة .. ألم يعطنى هو الكثير .. !! ! ؟ ؟

ولكن العجيب أننى كلما قلت إننى سأفعل ما يريده ، بدأ يريد أكثر ، وبدا أقل امتنانًا تجاه رغبتى فى تحقيق طلباته .. وفكرت بينى وبين نفسى « إذن فهو ليس كاملاً كما ظننت » .

وفى أحد الأيام أثناء زيارة إلى الطبيب أخذت الأمور مجرى سيئا ، فلقد خطر لى أن أسأل إن كان إنجاب الأطفال يتعارض مع حالتى الصحية كمريضة بالسرطان .. وكقاعدة لم يعد (ديڤيد) يصحبنى لمواعيد الطبيب ، ولكنه كان معى فى هذه المرة ... ...

وحين ألقيت سؤالى على الطبيب تردد قليلاً ثم قال ببطء :

– « من المحتمل ألا يكون هناك ضرر .. ولكن هناك بعض المخاطرة

فى ذلك ، فأثناء الحمل تحدث زيادة فى مستوى « الأستروجين » ، وإن كانت هناك لا تزال أية خلايا سرطانية فى الجسم – وأعتقد أن هذا غير وارد فى حالتك – فإن الاستروجين يساعد السرطان على النمو » .

وشعرت على الفور بأن معدتى قد تقلصت ونظرت إلى « ديڤيد » ووجدته ساكتا .

ثم أضاف الطبيب قائلاً :

– ولكن هذا موقف عليه تحفظات فالنساء يحملن بعد الاستئصال و ...

وقاطعته بسؤال تعلمت أن أسأله :

– لو أن زوجتك فى مكانى ، فهل تَدَعها تحمل ؟ ! فأجاب دون لحظة تردد واحدة :

– لا .

وحينما ركبنا السيارة ، فردت يدى فى حجرى وأخذت أنظر إليهما ثم قلت « لديڤيد » :

– إننى بالطبع سأكون سعيدة فى أن أتبنى طفلاً !! !

ولكننى كنت أدرك أنه إذا لم يفلح ذلك وإذا لم يكن راغبًا فى الاستمرار فى زواجى فلا بأس ... لأننى كنت أعرف شعوره فى أن ينجب أطفاله لا أن يتبنى أطفال الآخرين . وطلبت منه أن يقرر ماذا يريد وبسرعة . وقال : إنه أصيب بخيبة أمل ولكن لا بأس !! وسألته « هل أنت متأكد أنه لا بأس » فأجاب « بنعم » .

ولم نتكلم فى ذلك الموضوع مرة أخرى لفترة فلقد كنا نشعر بخيبة أمل أكبر من أن نتحدث فيه ثانية .. ولكن بعد مرور أسبوع كنت على يقين بأننا يجب أن نتحدث فى هذا الشأن مرة ثانية وقلت له :

– أعلم إلى أى حد أنت تريد الأطفال ، وهذا يجعلنى أريدهم أنا أيضًا .. وأنا شخصيًا أتمنى من كل قلبى أن أمنحك شيئًا . ولكن ، حتى لو تبنينا أطفالاً فأعدك بأن أكون أمًّا جيدة لهم .. فأنا أريد ذلك فعلاً .. وسأتوقف عن العمل .. و ..

ووضع (ديڤيد) رأسه بين يديه دون أن يتكلم . فأكملت : « يا عزيزى إذا كنت لا تحتمل هذا فلابد أن ننتهى من هذا الموضوع ، أو نصل إلى قرار بشأنه حتى نشعر بالراحة .. أعنى أن كثيرًا من الناس يتبنون أطفالاً ويحبونهم وتسير الحياة بشكل عادى » .

ونظر إلى بشكل غريب وكان صوته خافتًا حتى إننى لم أتأكد فى البداية من أننى فهمت ما قاله ولكننى بعد ثوان فهمته تمامًا وقال :

– إن الطبيب لم يقل بالضبط أنه ليس بإمكانك إنجاب أطفال .. هل قال شيئًا مثل هذا .. ؟

وحملقت فيه وأنا أقول :

– هذا صحيح ولكن هناك خطر فى ذلك . صحيح ليس هناك خطر كبير ولكنها حياتى وأنا أكره أن أجازف بها . ونظر إلى « ديڤيد » وقال :

– يجب أن تتأكدى أننى لن أطلب منك أى شىء يعرض حياتك للخطر .

وظل (ديڤيد) يلح فى هذا الموضوع ويضغط علىّ وتحدث فى هذا الموضوع مرة ثانية مع الطبيب الذى قال له : إن من المحتمل أن يكون هناك خطر على هذا الحمل . ولم ييأس واستشار خبيرًا فى السرطان الذى قال له : إن هذا ممكن بعد عامين وأن ليس هناك دليل قاطع بوجود خطر . وقلت « ديڤيد » ونحن فى السيارة مساء يوم أحد :

– ولكن هذا هو لُب الموضوع .. ليست هناك دراسة عن امرأة واحدة في التاسعة والثلاثين من عمرها أصيبت بسرطان الثدى ثم حملت لأول مرة .. تلك هى الحقيقة المجردة التى لا يعرفها هؤلاء الأطباء .

– إنهم يعرفون على الأقل أن الحمل يمكن أن يكون فى أمان بعد سنتين أو ثلاث من الجراحة .

– ولكن بعد ثلاث سنوات من الجراحة سيكون عمرى ٤٢ سنة .

وهكذا كان يدور الحوار حول هذا الموضوع . وفى مرة أخرى اتهمنى بأننى خائفة بدون داع ولقد حيرنى هذا كثيرا . ربما كنت كذلك .. ولم أعد أدرى كيف أفكر .

وفى هذا الوقت كنت أذهب إلى نيويوك مرة كل حين وفى إحدى المرات ذهبت لأرى (رومفيلد) وحكيت له ما جرى فهز رأسه ثم قال :

– لقد عوقبت بمرضك .. والآن « ديڤيد » يعاقبك بسبب العقاب .

وأدهشنى ذلك كثيرًا ، فلقد كان شيئًا غير عادى بالنسبة لمحلل نفسى « كرومفيلد » أو أى محلل نفسى آخر أن يكون حاد النقد هكذا .. ووجدت نفسى أدافع عن « ديڤيد » وأقول « لرومفيلد » :

– إن كثيرًا من الرجال يريدون أطفالاً ينجبونهم ، أليس كذلك ؟

– نعم ، ولكن إذا لم يكن بالإمكان إنجاب أطفال فإنها ليست غلطتك أليس كذلك أيضًا ؟ ؟ !

– لا ليست هذه غلطتى ، كما أنها ليست غلطته هو أيضًا .

ثم أخذت تاكسى إلى المحطة وكنت متعبة وأشعر بآلام متقطعة فى موضع حلمة الثدى المفقود . خط مترو ٤٣٠ لم يكن قد وصل بعد فاشتريت بعض المجلات لأقرأها ، ولكنى جلست هناك ممسكة بهم لفترة وأنا أحدق

فى الكرسى الذى أمامى .. ثم فكرت فى حل مجنون رائع لمشكلة الطفل .. فى الحقيقة لقد كان موضوعًا فى أحد هذه المجلات هو الذى أوحى لى بالفكرة . ولم أذكر شيئًا « لديڤيد » حينما عدت إلى المنزل .. فلقد أردت أن أجرى بعض الاتصالات أولاً . وقضيت تقريبًا معظم اليوم التالى على التليفون . وكانت الفكرة هى (التلقيح الصناعى) . فبإمكاننا أن نجد شابة صغيرة السن صحيحة الجسم وفقيرة تقبل أن تكون على استعداد لأن تحمل جنينًا من أجل مبلغ كبير من المال ، وبمجرد أن تضع الطفل استلمه أنا ... هذا هو الحل الأمثل ، أو هكذا ظننت .. وبذلك نحصل على طفل من صُلب (ديڤيد) بجينات « ديڤيد » بما أن هذه النقطة هامة جدًّا بالنسبة له . وسيكون طفلاً صحيح الجسم وأن أمه أو أمها لن تكون مصابة بالسرطان . واتصلت بالطبيب ووافقنى على أنها فكرة رائعة ووعد بأن يبحث الأمر . ثم اتصلت « بجودى رامسى » وهى صديقة كاتبة ساعدتنى من قبل فى مسألة الحصول على ثدى صناعى . وقالت : إنها فكرة عظيمة وقالت أيضًا : إنها ستبدأ على الفور فى البحث عن تلك الفتاة التى ستقوم بدور الأم البديلة واتصلت بأمى وأخبرتها فقالت إنها ستكتب إلى قريب لها يستطيع أن يساعدنا فى البحث عن فتاة تصلح لهذا الدور . وقالت إنها فكرة رائعة وسيكون هذا عملاً رائعًا . ولم أدر بالضبط بالنسبة لمن سيكون هذا العمل رائعًا ... ... ولكنى لم أتوقف لأسألها فالعجلات كانت تدور بسرعة وكنت منفعلة جدًّا بهذه الفكرة ، ولم أطق الانتظار أكثر من ذلك لأخبر (ديڤيد) . فاتصلت به فى المكتب وأفرغت كل ما عندى وحينما أدركت أنه لا يجيب بشىء توقفت عن الكلام وتنهد هو فسألته :

– ألا تعجبك الفكرة ؟

– لا ، لا تعجبنى .

ولم يتكلم أى منا لمدة ثوان ثم قال هو بصوت خفيض :

– أريد أن أنجب أطفالاً من المرأة التى أحبها !!

وعلى الرغم من ذلك واصلت البحث فى هذا الموضوع آملة أن يغير رأيه ، ولكنه لم يفعل . وبدأت أشعر بشعور فظيع ، كرهت جسدى المشوه الناقص .. كرهت ما يحدث لى « ولديڤيد » .. وأصبحنا مثل عدوين كل واحد له موقف يزداد صعوبة وتحجرًا يوما عن يوم . هو يعتقد أننى أبالغ فى مخاوفى حتى لا أطالب بفعل شىء لم أرغب يومًا أن أفعله ... . ألم أطرد من قبل أى فكرة لإنجاب الأطفال قبل أن يدخل السرطان حياتى بوقت طويل ؟ ؟ ألم أكتب مقالاً أُمَجِد متعة عدم الإنجاب والتملص من عبء الأمومة . وكان « ديڤيد » يعتقد أيضًا أن الطبيب الذى قال : إنه لو كانت زوجته فى مكانى ما جعلها تنجب – كان يعتقد أن هذا الطبيب يمثل وجهة نظر واحدة ، لا أكثر ولا أقل ، وأن وجهة النظر الأخرى إنه لا بأس من أن أنجب أو على الأقل أفكر فى مسألة الإنجاب بشكل جاد . وكنت فى بعض الأحيان ، من تأثير التعب والملل أكثر من أى شىء آخر أفكر فى الاستسلام أى أن أفعلها وأصبح حاملاً ... ..

ولكزت (ديڤيد) وهو نائم ذات ليلة « هاى ، ربما أفعلها .. »

واستدار ناحيتى وضمنى إليه وقال :

– أوه !! إن هذا سيسعدنى كثيرًا ...

– سيحدث .. سيحدث .

قلتها فى نفسى وأنا أراقبه يغط فى النوم .

وحددنا موعدًا لإعلان زواجنا رسميًا وأخبرنا الأصدقاء بذلك الموعد ، ولكنه عاد يقول : إنه غير رأيه وأنه يرى تأجيل هذا الإعلان . وأصبح غريب الأطوار وساءت علاقتنا الحميمة ولكنه كان لا يزال لطيف الحديث ..

غير أننى بدأت أرى مسافة بين ما يقوله وما يفعله واشتقت إلى (آرثر) .. اشتقت إليه كثيرًا ... ..

وانفجر الموقف كله فى يوم أحد بارد مظلم فى أواسط ديسمبر ، الليلة السابقة على تحديدنا لموعد جديد لإعلان زواجنا .. بعده بدا واضحًا أن كلينا كان مكتئبا . وفى الصباح التالى كان لدينا موعد للذهاب إلى مزرعة أحد الأصدقاء .. ولقد ساعدنا وجودنا مع الآخرين هناك على التغلب على حالة الاكتئاب التى أصابتنا ، وجعل من السهل أن يتحاشى كل منا الآخر باندماجنا بالحديث مع الآخرين . ولكن حين انتهى ذلك وكان لابد من الرحيل أصبحنا وحدنا من جديد فى السيارة مع هذا الصمت الرهيب الذى طرأ على حياتنا .

وحينما عدنا إلى المنزل وخلعت معطفى انتابتنى رعشة من البرودة التى تبعتنا إلى الداخل وظلت جاثمة على المكان . وكان « ديڤيد » قد صعد إلى أعلى ، وحينما اقتربت من حجرته سمعت صوت تكتكة الريموت كونترول . لشد ما أكره صوت ذلك الشىء والطريقة التى يستعمله بها « ديڤيد » خصوصا حينما يكون هناك شىء يشغل باله أو يقلقه ، عندئذ يمسك به ويظل يغير القنوات واحدة تلو الأخرى ... وأحيانًا يفعل نفس الشىء حينما يتحدث فى التليفون وعلى الأخص حينما يتحدث إلى أخته الصغرى . ولست أدرى لماذا تُسبب لى هذه الحركة هذا القدر من الإزعاج .

ورفع رأسه حين دخلت الحجرة وظل يتكتك بذلك الشىء . وكانت معظم المشاهد على الشاشة لكرة القدم أو أفلام قديمة .. وفى النهاية أغلق التلفزيون . وجلست على حافة السرير ونظر كل منا للآخر وسألنى :

- لماذا لا أشعر بالارتياح لهذا الزواج ؟

- وكذلك أنا أيضا ، أظن أننا لا نشعر شعورًا طيبًا تجاه أحدنا الآخر !! !

– أظن ذلك .. ، قالها بصوت خفيض ميت ، وكان هناك حديث آخر ولكنه لايهم الآن . وقال : إنه يريد أن يخرج قليلاً .. ثم غادر المكان .. وحزمت أنا حقائبي ... . وارتعشت شفتاى ولكنها لم تكن مثل حالتي حينما حزمت حقائبي أول مرة وأنا أغادر شقة (آرثر) .. لم تكن أبدًا بذلك السوء .

وحين وصلت إلى محطة (بن) طلبت (آرثر) تليفونيا وقلت :

– أريد أن أقابلك .

– متى ؟

– هل يوم الأربعاء مناسب ؟

(وتركت لنفسي ثلاثة أيام كي أجمع شتات نفسي قبل أن ألقاه) .

– نعم مناسب . هل تقولين لى لماذا تودين لقائى ؟

– لا ، ليس الآن .

ووضعت السماعة ثم أسندت رأسي على يدى التي لازالت على السماعة ومكثت كذلك لمدة عشر ثوان تقريبًا وعيناى مغمضتان ودون حركة على الإطلاق .

الفصل الثانى والعشرون :

لقد مرت الآن تسعة أشهر منذ أن أُزيل الثدى وعشر غدد ليمفاوية مساعدة . وحين أخذت حمامًا فى ذلك الصباح وحلقت تحت إبطى شعرت حقيقة ولأول مرة بالشفرة على بشرة الإبط الأيسر . ومنذ ذلك الحين وأنا أتحسس هذه المنطقة من آن لآخر مثل طفل يكتشف أعضاءه لأول مرة .

لقد عدت الآن إلى نفسى القديمة تقريبًا . فمعنوياتى مرتفعة بدرجة معقولة الآن ولم أعد مكتئبة . بل إننى الآن مشغولة من جديد بعملى فى وكالة إن . بى . سى . بنفس الطريقة القديمة العادية .. وعمومًا أرى الحياة تتحرك بنفس الطريقة المعتادة وبنفس السرعة .

إننى الآن أعيش مع أمى ولقد مات أبى منذ شهرين بأزمة قلبية مفاجئة وهو فى المنزل ولم أكن أريد أن تشعر أمى بالوحدة .. كما أننى أيضًا لم أستوعب موت أبى بعد .. وحينما أتصفح صُوره الموجودة فى أحد الأدراج أشعر بجفاف فى حلقى ومرارة ومع ذلك أشعر أن وفاته لم تؤثر فىّ بعد . ربما أكون قد فقدت الشعور بسبب الأشياء التى مرت بى . إن ما يؤلمنى الآن هو حزن أمى .. وإن كانت أحسن حالاً الآن عن ذى قبل .. ولقد ساعدها وجودى معها كثيرًا كما قالت لى فيما بعد – وأظن أن هذا صحيح . إن الشقة صغيرة ومن المحتمل أن أتركها بعد شهر أو اثنين أو حينما أتأكد أنها بخير عندئذ أنتقل أنا ولكن لست أدرى متى ؟ ..

ولقد تقابلت أنا وآرثر حسب الموعد فى ليلة الأربعاء فى مطعم الفصول الأربعة ، لقد أردت أن أذهب إلى هناك فقط لأنه مكان جميل .. ولقد كنا فى غاية اللطف معًا ، وكنا أيضا مهزوزين جدًا .. وكان (آرثر) كذلك على وجه الخصوص . قال لى : إنه يشعر مثل شخص جاء من العالم الآخر عاد بعد الموت .. وبكينا قليلاً وتماسكت أيدينا وسأل كل منا عن أحوال صاحبه وعن عمله وشربنا كثيرًا .

ومنذ ذلك الحين تقابلنا عدة مرات وكانت لقاءات لطيفة ولكننا كنا حذرين إلى حد ما تجاه أى علاقة مستديمة فهو لا يزال يخشى من احتمالات عودتى « لديڤيد » - وكنت أسمع من « ديڤيد » من حين لآخر وكان يكتب لى خطابات يقول لى : كيف أننى حطمت كل شىء بسبب إلحاحى عليه ثم يقول : إنه لا يزال يحبنى وينتظر أن أعود إليه يومًا ما .

وكنت أريد أن أتأكد من نفسى ومن أننى لا أريد العودة إلى (آرثر) كرد فعل لما حدث مع (ديڤيد) ولكن من أجل (آرثر) نفسه ، ومن أجل ما نكونه معًا دون المقارنة بأى شخص أو بأى شىء .

كما كان يشغلنى أيضا أمر التغييرات التى طرأت أو التى لم تطرأ على كل منا إذا نحن حاولنا العودة من جديد . وآرثر قلق بالنسبة لهذه النقطة أيضًا .. وهو شىء مُطمئن فى حد ذاته .

إننى أعتبر نفسى و (آرثر) محظوظين بطريقة ما .. لقد مررنا بتجربة غير عادية .. لقد اقتحمنا أحلامنا واكتشفنا أننا نحب الواقع والحقيقة أكثر من أى شىء آخر .. فإذا لم أكن قد مررت بهذه التجربة بكل أبعادها مع (ديڤيد) لظللت طول عمرى أعتقد أنه ذلك الرجل الكامل الذى لم أفز به . وكذلك (آرثر) اعترف لى بأنه أقام علاقات لا بأس بها ولكنها لم تجعله يشعر بالسعادة بطريقة ملائمة ..

كذلك كان من الخير أننا أنهينا زواجنا .. لأننا إذا ما تزوجنا من جديد فسيكون زواجًا جديدًا بمعنى الكلمة .. صحيح أننا لا نزال نفس الشخصين وأن الكثير من طباعنا لم يتغير ، ولكن لا بأس أن (ديڤيد) الكامل جعل (آرثر) الغير كامل فى صورة حسنة بالنسبة لى .

ورغم ذلك ، فمن الأفضل لكلينا ولى على وجه الخصوص ألاّ أتخذ أى قرار إلا بعد فترة مناسبة ، وألاّ أفعل شيئًا إلا بعد فترة مناسبة أيضًا . ويعلم الله أننى قد فعلت الكثير ..

وبالنسبة لجسدى ، لم أعد مهووسة بالبحث عن ثدى صناعى بمواصفات خاصة .. وإن كنت لا أزال أبتلع ريقى بشدة حينما ألمح جسدى العارى فى المرآة وأرى آثار المجزرة واضحة على صدرى ..

لا بأس من أن أبتلع ريقى بشدة فهناك أشياء أسوأ من ذلك بكثير .. كما أن هناك جراحات تجميل متقدمة .. وربما يوما ما أجرى إحدى هذه الجراحات ..

وفى نفس الوقت فإن الثدى الذى اشتريته من (ميتشجان) لم يفسد بعد ، ولا تزال الحلمة فى موضعها وتعطى مظهرًا جميلاً طبيعيًّا للثدى ، ولكن ما يضايقنى حقيقة فيها هو ذلك القدر من العمل الذى يتطلبه تثبيتها وخلعها .. تمامًا مثلما يكون للمرء طقم أسنان يقوم بتنظيفه مرتين يوميًّا . إن هذا عمل لا نهاية له ..

وحتى بدون الجراحة التجميلية ، فأنا أعتقد أننى لازلت جميلة . وعند ارتدائى ملابسى أبدو جذابة أيضًا ، ويرى (آرثر) أننى لازلت جذابة بل ومغرية أيضًا .. صحيح أننى أفتقد أحد أدواتى الغائبة ، حتى وإن قال (آرثر) إنه لا يفتقده . بل إننى أعتقد أنه يفتقده حتى وإن قال غير ذلك . وحينما يتصادف أن يطيل أحد الرجال النظر إلىّ فى الشارع أو فى الطائرة أو فى أحد الحفلات أجدنى أفكر ماذا لو أنه علم حقيقة أمرى ؟

وأتساءل أيضًا بينى وبين نفسى ، كيف يكون الحال مع رجل جديد إذا لم أعد إلى (آرثر) كيف أستطيع أن أتناول هذا الأمر ؟ وكيف أتعامل معه !! ؟ ومتى أقول له الحقيقة ؟ ؟

من الواضح أنه ليس من العدل أن أنتظر حتى يضمنا سرير واحد ثم أخبره بالحقيقة .. كما أنه ليس أيضا من المناسب أن أخبره مباشرة بهذه الحقيقة قبل أن تتوثق علاقتنا .. وأيضًا حينذاك وإذا لم يعد راغبا فى هذه العلاقة

فسيشعر بالحرج فى أن يقول ذلك .. إذن فمن الأفضل أن أخبره من البداية .. ولكن كيف ؟ يمكننى أن أتحدث عن الكتاب فيما أظن ويكون هذا مدخلاً طبيعيًا للحديث فى هذا الموضوع .

وحتى إذا لم يُبد اهتمامًا بهذا الموضوع ، فماذا سيكون شعورى أنا ! قد يكون لا بأس به . ولكننى غير متأكدة فى الواقع . وإذا عدت (لآرثر) فلن أدرك أبدًا حقيقة شعورى ، وهذا أحد الأسباب التى تجعلنى أرجئ قرار العودة لآرثر .. أريد أن أتأكد من أننى لن أعود إليه فقط لأتجنب مشكلة التعامل مع رجل جديد أكون مضطرة لأن أحكى له عن ذلك الثدى الذى فقدته ..

أما بالنسبة للآخرين ، فإننى حين أرى أحد الأشخاص يتفحص صدرى بفضول بدلاً من أن يبدى بعض العطف . مثلا أتعمد أن أفاجئه بالقول « إنه الثدى الأيسر » ثم أستأنف الحديث بشكل عادى . وعدا ذلك فكل المشاكل تعتبر ثانوية إذا ما قورنت بقلقى من ارتداد السرطان ومن الموت .. ولكننى لا أفكر فى الموت فى معظم الأحيان بشكل مباشر .. بمعنى أننى لا أجلس محاولة أن أتصوره أو شيئًا من هذا القبيل .. إنه فقط يمر بخاطرى فى بعض الأحيان كلافتة أحد الإعلانات .. وخصوصًا قبل أن أذهب للنوم .. فهو يطير على جناح الريح ويأتى فى الليل قبل أن أنام .

إننى حقيقة لا أعتقد أننى سأموت .. وهذا شىء غريب حقًا .. فلازلت أعتقد أن الأشياء الكريهة لا يمكن أن تحدث لى .. لا بأس فلازلت أظن أن ما حدث لى حدث بطريق الخطأ .. فالحوادث تحدث ولكننى قد أخذت نصيبى منها .. لقد أخذت حادثتى .. وهذا يكفى فليس هناك من تصدمه السيارة مرتين !!

ولكن هذا يحدث عادة لمرضى السرطان .. صحيح أن المصابين بسرطان الثدى وكانت غددهم الليمفاوية نظيفة وخالية من السرطان ، فإنهم عادة

لا يموتون .. ولكن الإصابة بالسرطان مرتين شيء من المحتمل حدوثه أكثر من الإصابة بحادثة سيارة مرتين .

حسن ، أظن أننى سأتنفس بارتياح حينما تمر ثلاث سنوات أو حتى سنتين – وهى الفترة المحتملة لارتداد السرطان . وفى نفس الوقت وكما يقولون : على المرء أن يتعلم أن يعيش به . وفى بعض الأحيان كنت أعيش به بصورة أفضل عن ذى قبل ، ولكن آلامى الثانوية كانت أسوأ ما يحدث لى .. فمنذ إصابتى بالسرطان أصبحت موسوسة بشكل فظيع .. فأى ألم بسيط يصيب أحد أعضاء جسدى يصيبنى بفزع مهول .. فإذا أصبت بالصداع مثلا ظننت أنه ربما يكون سرطان المخ .

وإذا آلمتنى قدمى بسبب ضيق الحذاء أظن أننى مصابة بسرطان فى أصابعى ، واكتسبت حالة من الغضب الدائم تجاه جسدى ، جسدى الذى كنت أثق به دائمًا قد خذلنى .. ويصعب على غفران ذلك .. الحقيقة أننى نفس السيارة التى كنتها من قبل عدا أن هناك انبعاجًا فى حاجز الاصطدام الأمامى . صحيح أننى أميل إلى تهوين التغيير الذى طرأ على شخصيتى .. ومثال ذلك أننى كنت يومًا أتحدث مع أمى عن بعض مظاهر التغيير التى طرأت على شخصيتى ، وكنت أقول لها بجدية : « إننى الآن نافدة الصبر جدًا ، لا أريد أن أضيع الوقت ، ولا أريد أن أتحدث مع الناس الذين لا أرغب فى الحديث إليهم ، أو أتواجد مع أناس لا أحبهم .. وأعتقد أننى الآن أقل أدبًا عن ذى قبل » .

وفاجأتنى أمى قائلة برقة : « ولكن يا حبيبتى أنت لم تكونى مؤدبة من قبل أبدًا !! » .

ولكن هناك بالتأكيد بعض التغيرات التى حدثت بالرغم من ذلك – ليس فى شخصيتى كما كنت أظن – ولكن فى الطريقة التى أرى بها بعض

الأشياء . فحينما يكون احتمال الموت واردًا فى عقل أحد الأشخاص فإن مشاكل الحياة مهما كبرت تبدو تافهة .. وحين تسير الأمور على ما يرام فإننى أشعر بنفس السعادة التى كنت أحسها قبل العملية ولكن إذا حدث العكس فإننى لا أحزن ولا أتألم بنفس القدر الذى كان يحدث قبل العملية ..

أشياء مثل المشاكل التى تحدث فى العمل لم تعد تقلقنى بالصورة التى كانت تحدث من قبل . أصبح تأثير ذلك على أقل بكثير عن ذى قبل .. كما أن شعورى المتزايد تجاه الموت زاد من شعورى الإيجابى تجاه الحياة .. وكان هناك دائمًا سؤال يدور فى رأسى :

هل أنا أفعل

ما أريد أن أفعله

لو أننى سأموت !! ؟ ؟

وحين تكون الإجابة بلا ، فإننى لا أفعل هذا الشىء فى أغلب الأحيان .. وفى بعض الأحيان كنت أفعل ذلك الشىء .. ولكننى وقد تعارفت على الموت .. ومهما كان هذا اللقاء مرعبًا وغير كامل .. فإننى أظن أنه سوف يخفف من صدمة لقائى معه حين يحدث ذلك بشكل مكتمل . وأتمنى ألا يحدث سريعًا ، لأن معايشتى للموت أعطتنى معلومات جديدة عن الحياة كلها ، ساعدتنى على أن أكون أفضل من ذى قبل ، وبشىء من التدريب أستطيع أن أكون أفضل وأفضل . فإذا لم يرتد لى المرض وإذا لم أمت بسرعة فكل ما فقدته هو ثديى ، وهذا ليس سيئًا جدًا .. أقصد ليس سيئًا إلى هذا الحد !!

الخاتمة

أفضل سنى عمرى

وبعد مرور خمس سنوات على الجراحة تحكى (بتى رولين) كيف أن السرطان قد غير من نظرتها إلى الحياة بصورة أفضل كما تقول :

« إننى على وشك الاحتفال .. ليست هناك حفلة بقبعات مضحكة .. ولا أنا أتوقع بطاقات تهنئة فى البريد .. وإن كان على مصممى البطاقات أن يضيفوا بطاقة جديدة إلى قائمة بطاقات المناسبات .. وهى الذكرى السنوية للسرطان .. فغدًا تمر خمس سنوات على استئصال ورم خبيث من ثديى الأيسر ومع الورم ثديى أيضا .. وأن أحيا لمدة خمس سنوات بعد العملية فإن هذا له معنى كبير فى دوائر السرطان .. وليس هناك سحر بالنسبة للرقم ولكن الحقائق تشير إلى أنه إذا عشت هذا العدد من السنوات بعد تشخيص المرض فإن معنى ذلك أن لديك فرصة للحياة الطبيعية بنسبة ٨٠٪ .

ربما يكون لمصممى البطاقات التذكارية الحق فى أن يتجاهلوا تخصيص بطاقة لمثل هذه المناسبة . ورغم ذلك إلا إننى أشعر شعورًا طيبًا لمجرد احتمال عدم ارتداد السرطان مرة أخرى بل وأكثر من ذلك فإننى أشعر شعورًا طيبًا تجاه إصابتى به بادئ ذى بدء ! وهنا يكمن التناقض . فرغم أن السرطان كان أسوأ ما حدث لى إلا أنه فى نفس الوقت كان أفضل ما حدث !! فلقد أثرى حياتى وجعلنى أكثر حكمة وأسعد حالاً .. وهذا تناقض آخر !! فعلى الرغم أننى على استعداد لأن أفعل أى شيء ممكن حتى أتجنب حدوثه مرة ثانية .. إلا أننى فى نفس الوقت راضية أنه قد حدث .

هناك نظرية عن الأشخاص الذين يتعرضون فى حياتهم لخطر الموت

تفسر حالة التناقض التى يمرون بها .. فبعد النجاة من الموت ولمدة ستة أشهر يظل المرء مهزوزاً وشاعرًا بالامتنان فى نفس الوقت . وحين يكون المرء مسلحا بحس قوى عن كنه النهاية فهو عندئذ يبدأ فى أن يعيش الحياة بطريقة مختلفة .. فيتوقف أثناء سباق الحياة ليلحظ نمو أوراق نبات الزينة فى منزله أو يعطى اهتمامًا أكبر لمن يحبهم ، وكما يقولون ، يكتسب نظرة جديدة للأمور . وبعد مرور الشهور الستة وطبقا لهذه النظرية فإن تلك الرؤية الجديدة تتلاشى تدريجيًا وتعود إلى نفس الجنون الذى عشت به حياتك من قبل أن تصدمك عربة السرطان . الذى حدث هو أنك توقفت عن الشعور بالخوف لأن التصادم قد حدث بالفعل .

ولكن الأمر يختلف بالنسبة للأشخاص الذين صدمتهم سيارة السرطان ، فقد تقف بعيدًا عن أماكن الخطر ولكنك لا تستطيع أن تفعل شيئًا لتمنع ما حدث فى جسدك من أن يحدث ثانية إلا إذا كنت تخفى رأسك فى الرمال .. فأنت تعلم تمام العلم أنه قد يرتد ثانية .. وبالنسبة لحالتى فقد قال الأطباء : إن هذا مستبعد وعلى الرغم من ذلك فإن الاحتمال وارد .. وحقيقى بالنسبة لى . صحيح أن مرور خمس سنوات هو شىء يبعث على التأكيد والاطمئنان ، ولكننى أعلم جيدًا أننى سأظل خائفة قليلاً طوال البقية الباقية من حياتى ، ولكننى شجاعة ومستعدة .. فبعض السموم بجرعات صغيرة يكون فيها الشفاء أيضًا . وأن يكون المرء خائفًا قليلا من الموت فإن هذا يفعل العجائب بالنسبة لحياته .. ولقد فعل ذلك بالنسبة لى .. فالشعور الدائم بالموت غيّر من حياتى اليومية إلى الأفضل .. فحينما يكون المرء خائفًا قليلاً من الموت فإنه يكون أقل خوفًا من أشياء أخرى مثل : الرؤساء ، الأزواج ، السرقة ، الاغتصاب ، الفشل ، الانفلونزا والألم وغيرها . ولقد فقدت بعد ذلك كثيرًا من مخاوفى الكبيرة والصغيرة أيضًا .. فلقد اعتدت مثلاً أن أكون فى حالة متوترة أمام كاميرات التليفزيون خشية

ألا أكون ذكية وجذابة ومنتصرة بشكل جيد .. بالطبع لا يزال يسعدنى أن أسمع من أحد غير أمى أو زوجى أننى كنت رائعة أو شيئًا من هذا القبيل .. إلا أننى فقدت الخوف من ألا أكون كذلك فى نظر الآخرين .. لقد جعلنى السرطان أقل قلقًا وأقل اهتمامًا بما يظنه الناس سواء على المستوى العملى أو الاجتماعى..

كما أننى أيضا أقل اهتماما باتجاه مستقبلى .. فأنا لا أعرف إلى أين يتجه ولا أفكر فى ذلك .. كل ما أفكر فيه هو أين أنا وماذا أفعل وهل أستمتع بما أفعله .. والنتيجة هى أننى هذه الأيام يبدو أننى أفعل باستمرار ما أحب أن أفعله فقط .. وربما أكون أيضًا أكثر نجاحًا من ذى قبل حينما كنت أحرص على النجاح .

وكتابى هذا الذى بين يديكم قد أعطانى الكثير من المتعة والسرور أكثر من أى شيء آخر فى حياتى العملية كلها .. وهو مثال على ذلك النجاح غير المقصود الذى أتحدث عنه . فى البداية كانت فكرة أن أترك عملى فى التليفزيون لمدة ستة أشهر لأتفرغ للكتابة عن مرض السرطان فكرة غير معقولة .. ولكن حين حدث السرطان لم أتوقف لأسأل نفسى هل هذا عمل معقول أم لا .. لقد أردت أن أكتب هذا الكتاب فقط .. وأن أكتبه بالطريقة التى تلائمنى وترضينى وليس بالضرورة من أجل السوق .. لذا فقد خذلت الناشر الذى أراد لهذا الكتاب أن يكون على طريقة (كيف تتغلب على السرطان ؟) تلك الطريقة التعليمية الجافة . لقد كنت أرغب فى كتابة مثل هذا الكتاب سواء حدث لى المرض أو لم يحدث .. ولكن كان من المحتمل جدًّا ألا يخرج هذا الكتاب إلى النور لو لم يكن حدث لى ما حدث . لأننى بالفعل كنت أخشى الانقطاع عن التليفزيون هذه الشهور الستة وأتصور أننى لو كنت قد كتبته قبل ذلك فربما لم أكن لأتكلم بمثل هذه الصراحة التى كتبت بها تجربتى . وتحدثت بها عن مشاعرى وأخص

خصوصياتى .. وكنت وأنا أكتب أتذكر وأقول لنفسى : « ربما تموتين ، فماذا يهم ما يظنه الناس بك أو يقولونه عنك » . صحيح أن كثيرًا من الناس يكتبون بصراحة وأمانة دونما حاجة إلى تجربة مرضية .. ولكن بالنسبة لى لا أظن أننى كنت أستطيع الكتابة بمثل هذه الصراحة لو لم أمر بتلك التجربة ..

إن لمسة من السرطان تحولك إلى مريض بالوسواس ، فحين تشعر بحرقان فى الزور تتصور أنه سرطان الحنجرة .. وحين تصاب بكالو من زوج أحذية ضيق تعتقد أنه ورم خبيث قد أصاب قدميك ولكن– وهنا الجانب المضىء– فأنت تقلق ولكن حين يتضح أن هذا شىء آخر غير السرطان فإنك تسعد بذلك وتحفل به كأى مناسبة سعيدة وتقول مثلاً « الحمد لله إنها إنفلونزا » وهذا ما قلته لنفسى منذ أسبوعين .

بعض الأطباء ذوى حساسية أكثر من غيرهم فيما يختص بالقلق المتسبب عن السرطان . وفى زيارة لطبيب النساء الخاص بى ، وكان يحدثنى عن المتاعب التى تسبق انقطاع الطمث (متاعب سن اليأس) . دون أن يلحظ وهو يحدثنى أننى قد تحولت إلى حجر جامد جالس أمامه وكان كل ما يهمنى سؤال واحد فقط : هل هو سرطان ؟ وأخيرًا همست له بذلك السؤال فنظر إلى باستغراب شديد وقال : « بالطبع لا » وكأنما يقول كيف تفكرين فى هذا الشىء وهو لا يدرى أن هذا هو كل ما أعبأ به !!

وحين زرت المجبر مؤخرًا بسبب بعض الآلام فى ركبتى ، وبعد أن أخذ لى صورة أشعة وقبل أن ينطق بكلمة عن ماهية المشكلة قال : « إنه ليس كما تظنين .. إنه تمزق عضلى » ويومها عدت إلى منزلى سعيدة .

لقد كنت أستمتع بالحياة على طريقتى أينما وكلما استطعت ذلك .. كما أننى كنت أستمتع أيضًا بإنفاق النقود فمنذ مرضى وأنا أنفق أكثر مما اعتدت صحيح أن لدىّ الآن نقودًا أكثر من قبل ، ولكن معظمها كان بسبب هذا الكتاب الذى هو أحد فضائل السرطان !!

وكنت دائما شديدة البخل – قد يقول البعض هذا شىء كريه – ولكننى لم أعد كذلك . بل يخيل لى أيضا أننى أصبحت كريمة مع الآخرين .. فمنذ السرطان وأنا أعطى هدايا قيمة فى المناسبات . وكما أن السرطان أيضًا يقتل الشعور بالذنب . فأنا الآن أستعمل إجازاتى .. وآخذ إجازة من وقت لآخر لأنه ليس فقط ربما أموت فى العام القادم بل أيضًا لأننى أشعر بأنه بعد كل الذى مررت به فأنا أستحق تلك الإجازة . وأيضًا أدركت بعد مرور هذه السنوات بأن ما مررت به ليس كثيرًا إذا ما قورن بما يمر به بعض الناس .

وشىء آخر ، فمنذ اللحظة التى أصبت بالمرض تحسن ذوقى فى الرجال بدرجة كبيرة .. فرغم خشونة زوجى الأول معى حتى أنه كان يقر بذلك بنفسه إلا أننى كنت مولعة به للغاية .. والآن .. فإن كل من يعرف الرجل الذى تزوجته أخيرا ومنذ عام فقط يعتقد أننى محظوظة ، بما فيهم أمى وكذلك أنا نفسى أعتقد ذلك .. ولكننى أعرف أنه ليس الحظ أو الصدفة .. بل إنه السرطان الذى جعلنى أرغب فى الارتباط بشخص رائع .. ربما لم أكن لأرغب فى ذلك من قبل ..

ولقد أدهشنى كثيرًا هذا التغيير فى ذوقى تجاه الرجال لدرجة أننى ذهبت لاستشارة طبيب نفسانى ، الذى أكد لى أننى بخير ولا أتوهم أشياء وكل ما فى الأمر أن التخريب الذى حدث فى جسدى قد فعل العجب برأسى .

ربما تكون السعادة هى الشىء الذى لا يجب الكلام عنه كثيرًا ، ولكن لا مفر من الحديث عنها .. ولقد وجدت أنه كلما عملت على الوصول

إليها أشعر بشيء من التحسن .. إن قدرًا كبيرًا من السعادة يكمن فى ملاحظتها .. فإذا لم تكن قد مرضت أبدًا فإنك لن تلحظ أنك فى صحة جيدة كما أنك لن تستمتع أيضا بحالتك الصحية الجيدة هذه .. إننى حتى ألاحظ صحة زوجى الجيدة بينما هو نفسه لا يلحظها وأدهش كيف يفعل ذلك !!

ولعله من الملاحظ أننى لم أذكر فى هذه الخاتمة شيئًا عن ثديى المفقود !! هذا على الرغم من الضجة التى أثرتها على مدى خمس سنوات .. ربما لأن هذه الخسارة تبدو لى الآن لا تستحق مجرد ذكرها .. فمنذ سنوات خمس مضت ، شعرت بالأسى والأسف لنفسى لأننى لن أستطيع ارتداء ملابس السهرة عارية الصدر . واليوم أشعر بأن فقد ثديى قد أنقذ حياتى وأننى كنت محظوظة بالفعل . وحين أفكر فى كل الأشياء الطيبة التى جاءت نتيجة لهذه الخسارة ، فإننى أنظر إلى المكان الخالى الذى كان يرقد فيه ثديى المفقود وأقول : يا له من ثمن زهيد لما أنا فيه من سعادة !! بل إن كثيرًا من أصدقائى وصديقاتى الذين تخطوا الأربعين يشعرون بمرور كل سنة وكأنها تقربهم من الموت ، بينما يعنى مرور السنوات بالنسبة لى ، البعد عن الموت !!

ولكن .. ماذا لو ارتد المرض ثانية ؟ ! أوكى حتى لو حدث هذا فسأنظر خلفى إلى السنوات التى مضت منذ بداية الجراحة بوعى كامل بأننى قد عشت هذه السنوات وحصلت على أفضل ما فيها .. ولابد أن أعترف بأن المرض الذى كاد أن يقضى على حياتى هو نفسه الذى جعلنى أحياها بشكل أفضل !!

فهرس

صفحة

مقدمة	٥
الفصل الأول	٧
الفصل الثانى	١١
الفصل الثالث	١٦
الفصل الرابع	٢٦
الفصل الخامس	٣٧
الفصل السادس	٤١
الفصل السابع	٤٥
الفصل الثامن	٥٢
الفصل التاسع	٦٦
الفصل العاشر	٧٣
الفصل الحادى عشر	٧٩
الفصل الثانى عشر	٨٩
الفصل الثالث عشر	٩٤
الفصل الرابع عشر	١٠٣
الفصل الخامس عشر	١٠٨
الفصل السادس عشر	١١٤
الفصل السابع عشر	١٢٠

صفحة

الفصل الثامن عشر ١٢٨

الفصل التاسع عشر ١٤٥

الفصل العشرون ١٥١

الفصل الحادى والعشرون ١٦٢

الفصل الثانى والعشرون ١٧٣

الخاتمة : (أفضل سنى عمرى) ١٧٩



رقم الإيداع	١٩٩٧/٩٢٣٩	
الترقيم الدولى	977-02-5444-2	ISBN

١/٩٥/٤

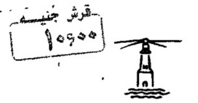
طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



هذا الكتاب

يكشف النقاب عن تجربة مذهلة خاضتها امرأة فى مقتبل العمر .. جذابة ، وناجحة فى عملها وزواجها .. اكتشفت فجأة أنها مصابة بسرطان الثدى . لم تصدق فى البداية أنها سقطت فى براثن هذا المرض اللعين ، فبكت ، لكنها قررت عدم الاستسلام ومواجهة هذا العدو فى شجاعة نادرة ، حتى انتصرت عليه فى النهاية .

كتاب لابد أن تقرأه كل امرأة لتتعلم كيف تقهر الخوف داخلها .



دارالمعارف

٠٤١٨٦١/٠١